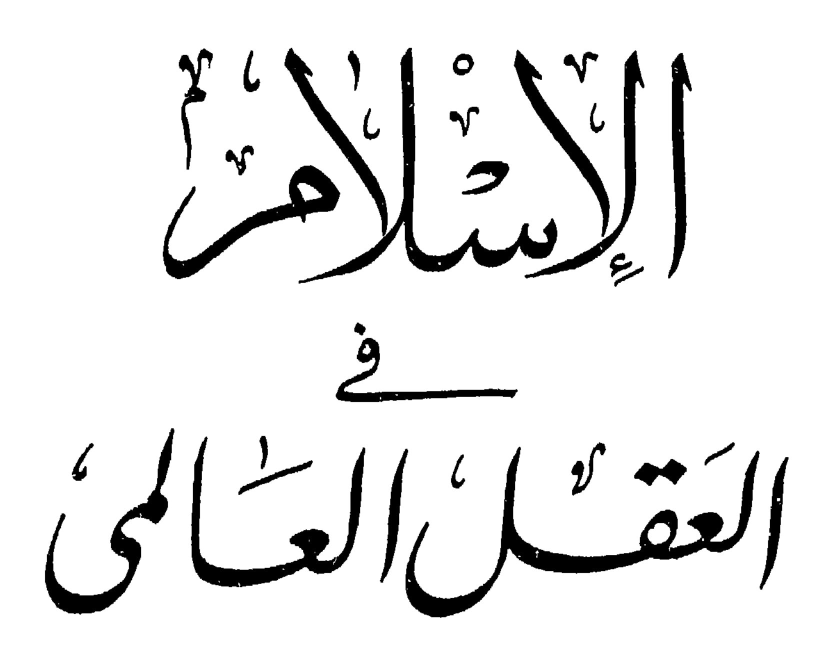


الدكتور توفيق يوسف الواعي

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ المنصورة . ش.م.م

الإسلام
في
العقل العالمي

الطبعة الأولى

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

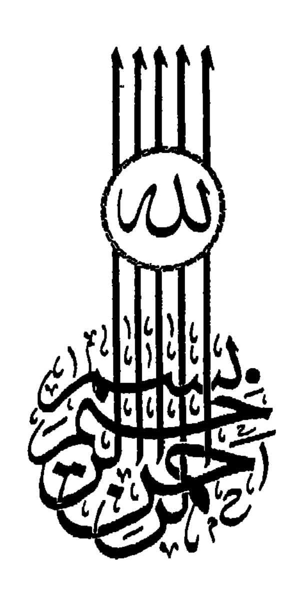


دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة ش.م.م

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت ٢٤٢٧٧٢١ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٣٠

المكتبة : أمام كلية الطب ت ٣٤٧٤٢٣ ص ب ٢٣٠ تلكس DWFA UN 24004


بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الأول

النظريات الإسلامية مقارنة بالنظريات الغربية

الفصـــل الأول : المنهج القرآني في قراءة الفهم العالمي .

الفصل الثـاني : نظريات الإسلام الفكرية والحضارية مع المقارنة .

الفصـــل الثالث : الانحراف وعلاجه .

الفصل الأول

المنهج القرآنى فى قراءة الفهم العالمى

أ ــ تمهيد :

كل أمة ينبغي لها أن تعرف موقعها على هذه الأرض ومكانها في هذا العالم ومنزلتها بين الأمم .

كما ينبغي لها كذلك أن ترهف الحس لما يدور حولها ويجرى في جنباتها وتصغى السمع إلى دوى الحوادث وصخب الأيام وأنين الليالي وزئير الأسود وعواء الذئاب . وتفتح الأعين لترى الرعود والبروق والفتن والإحن ، وتجلو البصيرة لتميز بين الصديق والعدو ، والنافع والضار ، والسم والعسل ، والخير والشر ، حتى لا تؤخذ على غرة ، أو تجرى إلى حتفها بظلفها ولله در القائل :

قدر لنفسك قبل الخطو موضعها ... فمــــن علا زلجا عن غرة زلقـــا

وحتى لاتنام في أرض الوحوش أو تسهو في عرين الأسود فتكون القاضية

ومـن رعـى غنما في أرض مَسْبَعَــة ... ونـــــــام عنها تولى رعيها الأسد

فالأيام لا تلهو والحوادث لا تنام والشر لا يهدأ ولله در القائل :

رب ركب قد أناخـــوا عندنـــا ... يشربـــون الخمر بالماء الـــــزلال

ثم ضحـــوا عصف الدهــــر بهم ... وكـذاك الدهـر حالٍ بعـــد حال

وقد نامت أمم ، ولهت أخرى ، وأغمضت عيونها عن اللهب الذى يحيط بها ، فأكلتها سباع الشر ، ومحتها جحافل البغي ، وتركت ديارها لتنعق فيها الغربان ، وتجرى فيها الوحوش الضالة ، وصارت مثلا وعبرة .

وقد مر أحد الشعراء على ديار الأندلس فسأل الديار عن الأيام الخوالى والمرابع النضرة والرجال الكرام فقال :

قلت يوما لدار القوم تفانوا ... أين سكانك العزاز علينا
فأجابت هنا أقاموا قليلا ... م ساروا ولست أعلم أينا

وقال شوقي يصف ما كان من أمر الأندلس الزائلة ، فقال :

آخر العهد بالجزيرة كانت ... بعد عرك من الزمان وضرس
فتراها تقول راية جيش ... باد بالأمس بين أسر وحبس
ومفاتيحها مقاليد ملك ... باعها الوارث المضيع ببخس
خرج القوم في كتائب صم ... عن حفاظ كموكب السفن خرس
ركبوا البحر نعشا وكانت ... تحت أبائهم هي العرس أمس

ولهذا أمرنا القرآن الكريم أن نأخذ العبرة من الأيام والحوادث ، ونسمع ونصغي ونفتح الأعين ونعمل العقول حتى تنجلي الحوادث ، ويظهر الحق ، ويتم التدبير ، ويعد لكل شيء عدته : قال تعالى : ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور** ﴾[1] . ﴿ **أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق** ﴾ [2] . ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون** ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ **قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين** ﴾[4] .

ولله در ابن دريد حيث يقول :

---

(١) الحج / ٤٦ .
(٢) غافر / ٢١ .
(٣) غافر / ٨٢ .
(٤) آل عمران / ١٣٧ ، ١٣٨ .

من لم تفده عبر أيامه كان العمى أولى به من الهدى
من لم يعظه الدهر لم ينفعه ما راح به الواعظ يوما أو غدا
من قاس مالم يره بما رأى أراه مايدنو إليه مانأى

وهكذا يجب أن يفتح المسلم المعاصر قلبه وعينه وحسه ليعرف في أي جو يعيش ، وأى وسيلة تنجيه من تربص المتربصين ، ومن عصابات الضلال والبهتان ، وأى طريق يتحتم عليه أن يسلكه إن أراد لنفسه حياة كريمة ، ورغب السير الحقيقي على الأرض بسلامة وقوة وأمان .

وقد رأينا القرآن في بدء أمر الرسول ﷺ ــ كرما من الله وفضلا ــ يخبره بما يبيت القوم له ، وليكون هذا دستورا يسير عليه فيما بعد ليحذر المنحرفين والمبطلين ، يقول تعالى : ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** ﴾[1]

وهكذا يكون شأن المجرمين في كل زمان ومكان ، لا يهدأ لهم بال ، ولا ترتاح لهم نفس إلا بزوال الحق ، وصدق الله : ﴿ **وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون** ﴾[2] .

ونرى كذلك رحمة الله بموسى عليه السلام إذ أعلمه على لسان أحد المخلصين بما كان غافلاً عنه فقال سبحانه : ﴿ **وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين** ﴾ [3] .

وهكذا لا تسلم نفوس الظالمين من الخبث والتآمر والبغي على الحق ، وعلى الطهر وعلى رجال الدعوات ، وعلى الشعوب الناهضة وعلى أهل الخير والصلاح ، وعلى الرسالات والحضارات السامية العظيمة ، ولكن أنى لهم فأين يذهبون عند شموخ الحق ، وعند وعي القائمين عليه والمبلغين رسالته وعناية الله معهم وصدق الله : ﴿ **أم حسب الذين في**

---

(١) الأنفال / ٣٠ .
(٢) الأنعام / ١٢٣ .
(٣) القصص / ٢٠ .

قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم.ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم ﴾ [١] .

قال عثمان بن عفان رضي الله عنه : « ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه » .

وفي الأثر : « ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله جلبابها إن خيرا فخير وإن شرا فشر »[٢] .

وهكذا المؤمن لابد أن يكون قوى الملاحظة ، شديد الفراسة ، واسع المعرفة ، يقظ الإحساس ، ينظر بنور الله ليعرف من لحن القول ومن سيما وأحوال الحاقدين والظالمين ما يأخذ منه حذره ، ويعد له أمره ، حتى يرد المكر على أهله ، والبغي على أصحابه **﴿ ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون ﴾**[٣] .

ب ــ الأفكار المستخلصة من الدراسات في مجال الصراع العالمي للإسلام :

هناك أفكار يتوصل الإنسان إليها بعد كثير من التطواف في المراجع والكتب التي تتحدث عن الفكر الغربي والشرقي وعلاقته بالفكر الإسلامي ، ويتوصل إليها بعد قراءات في الفكر العالمي واستقراءات في نتاج الحضارة الحديثة الثقافي ، وفي بحوث المثقفين والمستشرقين على اختلاف مللهم وعقائدهم وانتماءاتهم الفكرية والمذهبية ، ونظرتهم إلى الفكر الإسلامي وتراثه وأممه في الماضي والحاضر والمستقبل . هذه الأفكار التي يتوصل إليها هي تقييم للاتجاهات الفكرية لقطاعات مختلفة في هذا العالم من حيث نظرتهم إلى الإسلام ماضيه وحاضره ومستقبله .

وتتلخص فيما يأتي :

---

(١) محمد / ٢٩ ــ ٣٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤ ص ١٨٠ ط دار المعرفة ، فيض القدير جـ ٥ ص ٤١٩ ، ورواه الطبراني وأحمد .

(٣) النمل / ٥٠ ــ ٥٢

١ ـــ اليهود ، وهم أعداء للإسلام ، لا يهادنونه فكرا وعملا ، ولا يجدون فرصة أو مناسبة إلا وطعنوا في الإسلام وأهله ، وشككوا في ثقافته وطبيعته ، وحذروا من خطره ، وحرضوا على أهله وفكره .

٢ ـــ السياسيون ، وهم دائما ينظرون إلى القوى المؤثرة ، وإلى مايبرز منها ، وقوة الإسلام لايستهان بها ، وهناك عداء قديم مستحكم بين هذه القوى وبين الإسلام ، كما أنهم ينظرون إلى المسلمين نظرة المستغل الجشع وسوق المسلمين معروفة لتصريف بضائعهم ، وكذلك فهم يميلون دائما إلى التعمية على الحقائق ، كما يميلون إلى الاستعلاء وحب السيطرة والرفعة .

٣ ـــ خدم السياسة من المستشرقين الباحثين عن عورات المسلمين لتوهين تراثهم وإخراجهم عن ثقافتهم وقوتهم ، وأتباعهم من المبشرين الذين يجوسون بالفتن خلال الديار والعاملين على غزو المسلمين ثقافيا وحضاريا كما أنهم يفتحون الأعين على تحرك العملاق الإسلامي ، ويخوفون منه ، ويضعون الخطط للقضاء عليه . فهم السجانون الساهرون والحراس المصوبون بنادقهم إلى كل نهضة إسلامية .

٤ ـــ الباحثون الذين يدعون التجرد ، لا تخلو طائفة منهم من إخلاص الجهلاء الذين يبحثون بغير أدوات صحيحة للبحث . فيقعون في أخطاء فاحشة . كما أن هناك طائفة أخرى تخلط عملا صالحا بآخر سيئا لرواسب قديمة تظهر أحيانا على السطح وتطفو على فكرهم وبحوثهم واستنتاجاتهم حيث يضعون السم في العسل والضر في الدسم .

٥ ـــ الباحثون الذين تجردوا فعلا من أدران الماضي ورواسبه ، وقصدوا الحق ، وظهرت لهم أنواره ، وساروا نحوه بثبات وإيمان . وهؤلاء أسلم منهم الكثير ونعم بنور الإيمان وسار في الصف المؤمن ونبذ الجهل والجهالة . منهم محمد أسد ، وروجيه جارودى وغيرهم وغيرهم .

جـ ـــ المنهج القرآني في قراءة الفهم العالمي :

يتحدث القرآن ، وهو صادق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، عن الفهم العالمى والعقل المواجه للإسلام من حيث قربه أو بعده من الرسالة ، ومن حيث عدائه أو مهادنته للدعوة الإسلامية والفكر الإسلامي ، ومن حيث بزوغ دولته وظهور تعاليمه . يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا** ،

ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون. وإذا سمعوا ماأنزل إلى الرسول ترى اعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين. ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ﴾[1] فأبانت الآيات أصنافا من الناس نوضحها فيما يأتي :

١ ــ الصنف الأول : اليهود ، وأخبرت أنهم أشد الناس عداوة للمؤمنين لما انطوت عليه قلوبهم من الحقد والحسد والغل . قال ابن كثير في تفسيره عند الآية : «وما ذاك لأن كفر اليهود كفر عناد ، وجحود ومباهتة للحق ، وغمط الناس وتنقص بحملة العلم ، ولهذا قتلوا كثيرا من الأنبياء حتى هموا بقتل رسول الله ﷺ غير مرة وسموه وسحروه وألبوا غليه أشباههم من المشركين ، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة »[2] . وقد روى للمسلمين في هذا أثر يقول : « ما خلا يهودى بمسلم قط إلا حدثته نفسه بقتله »[3] .

٢ ــ الصنف الثاني : المشركون المنكرون للألوهية ، والعابدون للأشخاص والأهواء والمذاهب الباطلة . الجاعلون لله ندا وهو خلقهم ، ويمثلهم الآن الأحزاب الشيوعية والإلحادية ، ومن دار في فلكهم . وليس بخاف على أحد ماتفعله الشيوعية في بلادها ضد الإسلام والمسلمين ، وضد التعاليم الإسلامية ، وماذا تقول عن الفكر الإسلامي عامة ، وعن بعث دولته ورفع رايته .

٣ ــ الصنف الثالث : أصحاب الفهم النزيه والقلوب الكريمة الذين يبحثون عن الحق وعن تعاليمه ، ويعرفون سيماه ، ويسيرون قصادا إليه فى صفاء حيدة وتجرد الباحثين عن الحقيقة ، وهؤلاء يقدرون الإسلام ورسالته ، ويعرفون فائدته ونفعه للبشرية والإنسانية ، فيسارعون دائما في الانضمام إليه واللحاق به قائلين : ﴿ **ومالنا لانؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين** ﴾ وهؤلاء فرقة من المسيحيين أهل الكتاب الذين اتصفوا بالنزاهة والتخلي عن رواسب الماضي وأحقاده لما رأوا من الحق الناصع .

٤ ــ الصنف الرابع : فئة أخرى من أهل الكتاب سيطرت عليهم الأطماع والأهواء والشهوات وأعمت عيونهم القوة فحقدوا على المسلمين لأمور منها :

---

(١) المائدة / ٨٢ ــ ٨٤ . (٢) تفسير ابن كثير ٢ / ٨٥ ط المعرفة . (٣) نفس المرجع ٢ / ٨٥ .

أ ـــ لمعرفتهم لحضارة الإسلام ومنهجه الغلاب القاهر ، ولحقه الأبلج ، فهم يخشون من نور الحقيقة أن يكشف الباطل .

ب ـــ حرصهم على مافي أيديهم من سطوة وهيمنة ولا يريدون أن ينازعهم أحد أو يغلبهم مذهب أو فكرة أو دين .

جـ ـــ لشعورهم بعظمة الإسلام والمسلمين وقوة تماسكهم بالحق فهم يريدون أن يرجعوهم عن دينهم ويفتنوهم عن عقيدتهم ويكيدوا لهم في أخوتهم .

وهؤلاء عناهم القرآن بقوله تعالى : ﴿ **ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير** ﴾[1] . وقوله تعالى : ﴿ **ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون . ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون . ياأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون . وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون . ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾[2] .

د ـــ مسلمات يجب الالتفات إليها :

هناك مسلمات مشتركة عند الباحثين الغربيين وغيرهم ، يشتركون فيها عند الكلام على الحضارة الإسلامية ، وعند الكلام عن القرآن الكريم وعن نهضة العالم الإسلامى الحديثة . يجب أن يفطن إليها الباحث المسلم وأن يلتفت إلى مغزاها ومرماها نوجزها فيما يأتى :

١ ـــ ينسبون فضل الإسلام إلى العرب ، لا إلى رسالة أو منهاج أو وحي رباني ـــ فيقولون حضارة العرب ، علوم العرب ، فتوح العرب ، رغم أن هذه الحضارة وهذه العلوم وتلك الفتوح اشتركت فيها شعوب وأمم كثيرة غير العرب ، وكان الدافع إليها في تقدمها وحضارتها هدفا واضحا لم يكن موجوداً عند العرب قبل ذلك ، ولم يظهر ذلك الدافع إلا

---

(١) البقرة / ١٠٩ . (٢) آل عمران / ٦٩ ـــ ٧٤ .

بالعقيدة الإسلامية ، وكان الباعث الحقيقي وراء هذه النهضة وهذا التقدم العلمي والفتح العظيم هو المنهج الإسلامي الذى جمع من شتات ووحد من فرقة وأنهض من ضياع .

٢ ـ ينسبون القرآن الكريم إلى محمد ﷺ ، ويقولون قرآن محمد ، تعاليم محمد ، سواء في ذلك من يذمونه أو يمدحونه ، ومن يعدونه من عبقرية الرسول أو من أوهامه ، يريدون بهذا إخراج القرآن من دائرة الوحي إلى دائرة الصنعة البشرية والأوهام الخيالية .

٣ ـ لا يتكلمون عن الصحوة الإسلامية اليوم إلا بالتوهية والتنفير والتحريض والتحذير وكلٌ له في ذلك وجهته وغرضه ، يجمعهم كلهم غرض مشترك رغم ذلك ، وهو الخوف منها ومحاولة إجهاضها والقضاء عليها ، لأنهم يعلمون أنهم عند انفلاق صبحها سيتوارى باطلهم ، وتظهر عبوديتهم واستغلالهم للشعوب والأمم .

ونحن نقول لهؤلاء وأولئك : نحن نعرف فضل العرب في حمل الرسالة وتبليغ الهداية والجهاد فى سبيلها والدفاع عنها ، كما نقدر عبقريتهم وعقلهم ودأبهم العلمي ولا ينكر ذلك إلا جاحد ، ولكننا مع هذا نقول إن العرب بغير رسالة الإسلام ما كان يمكنهم أن يأتوا برسالة ، ولا أن يسودوا العالم ، ولا أن يكون لهم ما كان ، وقد حباهم الله بفضله ، واختارهم لتبليغ هديه ، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء ، فالعرب بالإسلام وبالهداية وبالمنهج الرباني كانت لهم هذه الحضارة التي اشترك فيها كل إنسان مسلم من شتي الأجناس والألوان والأصقاع ، وما جاء الدين للعرب فقط ولكن جاء للبشرية جمعاء يفوز به من يأخذ به ويعمل بهديه ، وقد قال القرآن من أول الطريق للعرب : ﴿ **وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾[1] . وما كان العرب في يوم ما عنصريين ولا قوميين ولكن كانوا عالميين وكانت رسالتهم للناس أجمعين . وصدق الله : ﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما** ﴾[2] .

نقول لهؤلاء أيضا : ليس القرآن الكريم من صنع محمد ولا من أوهامه كما تدعون وتزعمون ولكنه من عند الحق سبحانه وتعالى وصدق الله العظيم : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما في السموٰات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور** ﴾[3] .

---

(١) محمد / ٣٨ . (٢) الأحزاب / ٤٠ . (٣) الشورى / ٥٢ ـ ٥٣ .

جاء القرآن للناس كافة ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، فيحيى هممهم ويزكي عقولهم وصدق الله : ﴿ **يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا** ﴾[1] .

وكفى محمد ﷺ فخرا أنه خاتم النبيين وإمام المرسلين ومبلغ الوحي الأمين .

ونقول لهم أيضا : نحن نعلم أن هذه الأمة لا يصلح آخرها إلا بما صلح به أولها ولا يردها إلى الريادة إلا الشيء الذى أحياها من موات وبعثها من خمول وصدق الله : ﴿ **أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها** ﴾ [2] .

ونقول لهم : إن الصحوة الإسلامية اليوم ، ما هي إلا طلائع البعث الإسلامي الزاحف ، وبشائر النور المشرق والنصر المبين ، ولن يخدع بكم إلا غر أبله ، أو يساعدكم في هذا الفهم إلا عميل منافق وعدو آثم لئيم .

ونحن مع هذا نعلم أن للحق مع الباطل جولة وصدق الله : ﴿ **كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض** ﴾[3] .

---

(١) النساء / ١٧٤ . (٢) الأنعام / ١٢٢ . (٣) الرعد / ١٧ .

الفصل الثانى

نظريات الإسلام الفكرية والحضارية مع المقارنة

لا شك أن قوة الإسلام كرسالة تكمن في طبيعته الفطرية التي تخترق كل نفس وتفتح مغاليق القلوب وتبدد السدود التي تقف حائلا بين الإنسان وبين تحقيق رسالته السامية في الحياة ، ونظريات الإسلام في شتي النواحي هي التي تقهر كل جبار عنيد وتفتك بكل حاسد بليد وتخيف كل متربص وحاقد .

فسرعة هذه النظريات على الإقناع والتجميع والتربية والتهذيب والصمود والانطلاق والإبداع والتفوق كبيرة جدا ، بل هائلة وذات أعماق بعيدة وآفاق سامقة وثمار طيبة ، لهذا يجب أن نلقي الضوء عليها حتى يعرف القاريء والمفكر كيف هي مقنعة وعظيمة ، وكيف أنها تستلفت نظر القوى المختلفة فتعمل عملها وتفعل منهم فعلها كل حسب اتجاهه وحسب ما فيه من خير أو باطل ، أو أطماع أو أحقاد .

المبحث الأول

نظرية الإسلام في الكرامة الإنسانية مع المقارنة

أ ــ نظرية الإسلام في الكرامة :

يحدثنا الإسلام في كثير من الآيات والأحاديث عن كرامة الإنسان وعلو شأنه عند الله سبحانه وتعالى وفي الحياة الدنيا ، بل لا نكون مبالغين إذا قلنا : إن الإسلام جعل الإنسان أشرف مخلوق في الوجود وأعز شيء في الكون وأكرم نفس في العوالم ، سواه الله بيده ، قال تعالى : ﴿ **قال ياإبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديَّ** ﴾ (١) ، ﴿ **والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يُعَمَّر من مَعَمَّر ولا يُنقَصُ من عُمُره إلا في كتاب إن ذلك علي الله يسير** ﴾ (٢) .

ثم نفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته فقال تعالى للملائكة : ﴿ **فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين** ﴾ (٣) .

ثم رفعه منزلة وكرمه نفسا وحياتا ورزقه من الطيبات : فقال تعالى : ﴿ **ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾(٤) .

بل يبلغ هذا التكريم مبلغا كبيرا ويسير شأوا بعيدا فيخبر هذا الإنسان أن هذه الأرض التي يعيش عليها وهذه الأكوان التي تحيط به خلقت من أجله وسخرت لراحته وهيئت لمعيشته فيقول تعالى في ذلك : ﴿ **هو الذى خلق لكم مافي الأرض جميعا** ﴾(٥).

---

(١) ص / ٧٥ . (٢) فاطر / ١١ . (٣) سورة ص / ٧٢ ــ ٧٤ .

(٤) الإسراء / ٧٠ . (٥) البقرة / ٢٩ .

﴿ الذى جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون . والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون . والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ماتركبون . لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾(١) .

وقال تعالى : **﴿ الله الذى خلق السمٰوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾**(٢) .

هذه هي الإنسانية في نظر الإسلام ، الإنسانية كلها والآدمية جميعها أبيضها وأسودها عجميها وعربيها ، شرقيها وغربيها ، الإنسانية على وجه المعمورة كلها . يخاطبها ربها ويسوى بينها خالقها ، ولهذا فالإسلام يسوى بينها ويجعل لها من الكرامة والرفعة والسمو ماجعله الله سبحانه لها ، يقول تعالى مخاطبا تلك الإنسانية : **﴿ ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا﴾**(٣) .

لايفاضل الإسلام بينها بجنس أو لون أو مكان أو زمان إلا إذا فضل الله ، وتفضيل الله له مقياس آخر غير هذه المقاييس الجنسية أو العرقية أو اللونية ، إن تفضيل الله يأتي بالعمل الصالح وبالتقوى التي تحل في القلوب فتدفعها إلى العمل بميزان الله وتعاليمه وتحضها على الاستقامة على أوامر الله ومنهاجه وصراطه المستقيم وصدق الله العظيم إذ يبين ذلك فيقول : **﴿ ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾**(٤) .

كما لا تؤثر في كرامة الإنسان وإنسانيته اختلاف دين أو تباين رأى أو تعدد وجهة ، قال تعالى : **﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾**(٥) .

---

(١) الزخرف / ١٠ — ١٣ .   (٢) إبراهيم / ٣٢ — ٣٤ .   (٣) النساء / ١ .
(٤) الحجرات / ١٣ .   (٥) الممتحنة / ٨ .

إذن فالاختلاف في الدين لا يكون سببا في نزاع أو إنقاص حق أو قطيعة أو عدم بر ، اللهم إلا إذا كان هناك اعتداء أو بغي فإن لذلك شأنا آخر للحفاظ على الحق وعلى رجاله ودعوته ، أما ماعدا ذلك : « فلهم مالنا وعليهم ما علينا » . ولا إكراه في الدين أو جبر في رأى وصدق الله : ﴿ **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي** ﴾(1) .

كما لا يؤثر في كرامة الإنسان ضعف أو مهنة أو صنعة عظيمة كانت أو حقيرة ، قال تعالى : ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا** ﴾(2) . ﴿ **فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر** ﴾(3) .

وقال ﷺ : « رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره »(4) وقال ﷺ : « ابغوني الضعفاء فإنما تنصرون وترزقون بضعفائكم »(5) .

ب ــ نظرية الكرامة الغربية والعالمية :

لا يخفى على الباحث المنصف ما يتردى فيه العالم من التمييز العنصرى ، ومن الشعوبية والأنانية وحب الذات واستغلال الضعفاء ، وعدم احترام حرية الشعوب . فالسيادة للقوى والويل للضعيف ، والجبابرة هم ملوك الأرض ، ومناطق النفوذ مقسمة ولكل قوى حمى وعبيد ، والتسابق على العمالة وعلى الإرضاء للسادة شرعة معترف بها ، في الشيوعية استعباد الناس وتسخيرهم لطبقة تعبد من دون الله ، ونشر الشيوعية وإجبار الشعوب عليها الديانة الجديدة لهؤلاء ، وحرق الشعوب وإذلال عباد الله قانون العدالة الماركسية ، وطبقة المنبوذين في الهند اليوم يعاملون معاملة الحيوانات بل أضل سبيلا . والتنمر لكل ما هو يخالف دين الأسياد جرائم لا تغتفر .

هذا فضلا عن عنصرية الغرب المتسلط الحاقد المادى الأناني الجشع الذى لا يرضى بغير استذلال الشعوب بديلا ، وبغير أخذ خيراتها وسلب نهضاتها سبيلا .

وفي هذا يقول الباحث النمساوى « ليوبولد فابس ــ محمد أسد » : « إن الرومان

---

(1) البقرة / ٢٥٦ . (2) الكهف / ٢٨ . (3) الضحى / ٩ ــ ١٠ .
(4) مسلم . (5) أبو داود بإسناد جيد .

واليونان نظروا إلى أنفسهم على أنهم هم وحدهم المتمدينون ، أما كل من كان أجنبيا عنهم ، وعلى الأخص أولئك الذين كانوا يعيشون شرق البحر المتوسط ، فقد كان الرومان واليونان يطلقون عليهم لفظ البرابرة ، ومنذ ذلك الحين والأوربيون يعتقدون أن تفوقهم العنصرى على سائر البشر أمر واقع ، ثم إن احتقارهم إلى حد بعيد أو قريب لكل ماهو ليس أوروبيا من أجناس الناس وشعوبهم قد أصبح أحد المميزات البارزة في المدنية الغربية »[1] . ثم يقول : « وخلاصة القول : إن المدينة الأوروبية قائمة في أساسها على المدنية الرومانية الوثنية ، وهي لم تستفد من النصرانية التى اعتنقتها لأسباب قاهرية ، وإنما أخذت من النصرانية الطلاء الخارجي فحسب ، ولكنها في واقعها وثنية مادية لا تؤمن بغير القوة . من أجل ذلك نرى فرقا عظيما بينها وبين الإسلام مناعة ذاتية وجبارة . ولا ريب فى أن هذه الحقيقة الثمينة قد اكتشفها « غلادستون » — وزير بريطانيا الأول وأحد موطدى أركان الإمبراطورية في الشرق — حينما قال : ما دام هذا القرآن موجودا فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق ، ولا أن تكون هي نفسها في أمان »[2] .

إذن فهناك امتهان لكرامة الإنسانية ، وهناك عنصرية بغيضة وهناك قتل لكل منهج صحيح وهناك تآمر على دعاة الإنسانية والربانية ، هناك شيطان يتحرك في قلب قطيع عنصرى متوحش يفتك بكل معاني الخير والكمال والجلال . هناك نظرية تدعو إلى تناصر الجنس البشرى والاعتداء على حقوقه في سبيل أوهام العنصرية والأنانية وحب الاستعلاء والاستعباد .

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص ٥٢ ط دار العلم للملايين .

(٢) نفس المرجع ص ٤١ .

المبحث الثاني

نظرية الإسلام في العدالة الإنسانية مع المقارنة

أ ـــ نظرية الإسلام في العدالة :

نظرية العدالة الإسلامية ككل النظريات الإسلامية قوامها الوحي ، ومصدرها خالق الناس وربهم ، ولهذا جاءت تلك النظريات مستقيمة واضحة نافعة ، متمشية مع الفطرة مواكبة لخير الإنسان ونفعه وسعادته .

وإذا نظرنا إلى عدل الإسلام رأيناه لا يفرق بين إنسان وإنسان ، لقوته أو لمنصبه أو لدينه أو للونه أو لقرابته أو لعداوته أو لنفعه أو لضره . أو لهوى وشهوة أو أى سبب كائنا ما كان .

نسمع ذلك النداء الرباني الكريم للتنبيه على ذلك والعمل به والتزامه : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا** ﴾ [1] .

القسط والقسط فقط والعدل والعدل فقط ولو على النفس ، والشهادة لله المطلع على السرائر والنفوس فهو المراقب والعالم بكل خاطرة وخالجة ، فحسب المؤمنين أن الله يراقبهم ويطلع عليهم وأن تعاملهم يكون دائما معه ، وأنه هو صاحب الحق القيم على تنفيذه حسبهم ذلك لترتعد فرائصهم ويرجف كيانهم وتجند مشاعرهم للحفاظ على الحق في وجه الدنيا كلها ابتداء من النفس والمشاعر الفطرية أو الاجتماعية وانتهاء بكل من على وجه الأرض .

حدث أن عبد الله بن رواحة ـــ رضي الله عنه ـــ لما بعثه رسول الله ـــ ﷺ ـــ يقدر على أهل خيبر محصولهم من الثمار والزروع لمقاسمتهم إياه مناصفة ، حسب عهد

---

(١) النساء / ١٣٥ .

رسول الله ﷺ ، بعد فتح خيبر .. أن حاول اليهود رشوته ليرفق لهم ، فقال لهم : « والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلي ولأنتم والله أبغض إلي من أعدادكم من القردة والخنازير . وما يحملني حبي إياه وبغضي لكم ، على أن لا أعدل فيكم .. فقالوا : بهذا قامت السمٰوات والأرض » (١) .

فقد كان رضي الله عنه قد فقه الدرس وتخرج في مدرسة الرسول ﷺ على المنهج الرباني المنفرد .

وتذكرنا هذه الحادثة بأخرى حكاها القرآن الكريم وقعت بين يهودى وبين أحد المؤمنين وكان الميزان فيها لصالح اليهودى . وكاد أن يميل بفعل العاطفة لصالح المؤمن فإذا بالقرآن الكريم ينزل ليرد الأمر إلى نصابه ويسجل قصة لا تعرف الأرض لها نظيرا أو شبيها وتشهد وحدها بأن هذا القرآن وهذا الدين لابد أن يكون من عند الله ، لأن البشر مهما ارتقي تصورهم وهممهم ومهما استقامت طبائعهم لا يمكن أن يبلغوا هذا المستوى الذى تشير إليه الآية إلا بوحي من الله سبحانه ، خاصة إذا كان تاريخ هذه الجماعات من قديم يبنى على العرق ونصرة القبيلة والدفاع عنها ، وخاصة إذا كان في وقت كان اليهود في المدينة يطلقون كل سهامهم المسمومة ضد المسلمين ويتربصون بهم ويحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا إرضاء لنفسهم اللئيمة وحقدا على الإسلام والمسلمين .

فقد روى أن قتادة بن النعمان وعمه رفاعة غزا مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته فسرقت درع لأحدهم « رفاعة » فحامت الشبهة حول رجل من الأنصار من أهل بيت يقال له : بنو أبيرق . فأتى صاحب الدرع رسول الله ﷺ ــ فقال : إن طعمة بن أبيرق سرق درعى (وفي رواية : إنه بشير بن أبيرق .. وفي هذه الرواية : أن بشيرا هذا كان منافقا يقول الشعر في ذم الصحابة وينسبه لبعض العرب) . فلما رأى السارق ذلك عمد إلى الدرع فألقاها في بيت رجل يهودى اسمه « زيد بن السمين » وقال لنفر من عشيرته : إني غيبت الدرع وألقيتها في بيت فلان . وستوجد عنده فانطلقوا إلى رسول الله ﷺ ــ فقالوا : إن صاحبنا برىء ، وإن الذى سرق الدرع فلان . وقد أحطنا بذلك علما . فأعذر صاحبنا على رؤوس الناس ، وجادل عنه ، فإنه إن لم يعصمه الله بك يهلك ، ولما عرف الرسول ﷺ أن الدرع وجدت في بيت اليهودى ، قام فبرأ ابن أبيرق وعذره على رؤوس

(١) في ظلال القرآن جـ ٢ ص ٨٨٦ .

الناس ، ولكن الحق سبحانه وتعالى رد الأمر إلى نصابه وأقام الميزان الذى لايميل مع الأهواء والشهوات والعصبيات ولا يتأرجح مع المودة والشنآن أيا كانت الملابسات .والأحوال وأيا كانت الأشخاص أو الألقاب . فقال سبحانه : ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما . واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما . ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما . يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون مالا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا . ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا . ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما . ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما . ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا . ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما** ﴾(١) .

اختار الله هذا الحادث ليلقن المؤمنين درسا قاسيا على رؤوس الأشهاد . وكانت مع يهودى من اليهود ، أشد أعداء المؤمنين ، والذين يذوقون منهم أشد أنواع العنت والتنكيل ، والذين يحرضون عليهم المشركين ، ويشهرون بهم ، ويؤيدون المنافقين ويدلون على عورات المؤمنين ، اختار الله هذا الجو وهذه الحادثة . ليكون الدرس أبلغ وليعلم المؤمنون أن الحق لا دخل له بكل هذا ، لأنه الحق ولأنهم القائمون عليه وصدق الله إذ يؤكد هذا المعنى فيقول مؤكدا هذا الدرس : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون** ﴾ (٢) .

هذا هو الإسلام الذي من اطلع على تراثه وعلى تاريخ المسلمين في عدالتهم ينطق بذلك راضيا أو كارها لأن الحقائق آخذة بزمامه وإن كان يتعامى عن الحقيقة بحاجة بين جوانحه .

يقول « أرنولد توينبي » في « كتابه الدعوة إلى الإسلام » : « سجل أبو عبيدة في

---

(١) النساء / ١٠٥ — ١١٣ .
(٢) المائدة / ٨ .

المعاهدة التي أبرمها مع بعض أهالي المدن المجاورة للحيرة : إن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا . فلما علم أبو عبيدة بتجهيز هرقل لمحاربته وأراد أن يخرج إليه ويترك تلك المدن التي صالحها كتب إلى عمال المدن المفتوحة برد ما أخذ منهم لأنه لا يستطيع أن يوفي لهم بما شرطه معهم وهو حمايتهم . فاستغرب القوم وقالوا لو كان هذا مع بني قومنا ما ردوا علينا شيئا . فاذهبوا فإنا على العهد سائرون » .

هذا هو العدل الذى نعمت به الإنسانية زمنا وهي اليوم تحن إليه وتتشوق إلى عطره وأريجه .

ب ـــ نظرية العدالة الغربية :

أما عن النظرية الغربية في العدالة فهي توجه الأخلاق والآداب والأحكام وجهات معينة تخدم رغبات الأشخاص والأمم . فالسياسة خدعة ، والغاية تبرر الوسيلة ، والحق هو مصلحتي ومصلحة أمتي ، والحلال ماحل في اليد ، والعهود تحترم إذا أدت إلى مكسب أو ربح أو مصلحة أو أتاحت فرصة ممكن استغلالها في صالح الشخص أو الأمة .

نضرب مثلا على ذلك بواقعة من الوقائع الكثيرة في هذا الميدان : حينما نشبت حرب البلقان عام ١٩١٢ بين الدولة العثمانية من ناحية ودول البلقان المؤلفة من « اليونان وبلغاريا والصرب والجبل الأسود » من ناحية أخرى ، خشيت الدولة الأوروبية أن تنتهي الحرب بانتصار الدولة العثمانية فأعلنت الدول الأوروبية الكبرى قرارا حاسما بلسان المسيو « بوانكاريه » وزير خارجية فرنسا صرح فيه نيابة عن تلك الدول ، بأنه لا يسمح للمنتصر في هذه الحرب بأن يجني ثمرة انتصاره ، أو يضم أى جزء من أراضي خصمه المغلوب إلى بلاده ، ولما انتهت الحرب بتغلب دول البلقان على الدولة العثمانية ، وفتكت الجيوش البلقانية بالمسلمين نساء وشيوخا وأطفالا في وحشية هائلة وصفها أحمد شوقي بأنها تشبه نكبة الأندلس في قصيدته التي قال في مطلعها :

يا أخت أنـدلس علـــيك سلام ... هوت الخلافـــة عنك والإسلام
نزل الهلال عن السمـاء فلـــيتها ... طويت وعـــم العــــالمين ظلام

ثم يقول في فضائح الغرب الغازي :

واليوم يهتـف بالصليب عصائبُ ... هم للإلـــه وروحـــه ظُلَّام
خلطوا صليبك والخناجرَ والمُـدى ... كلٌّ أداةٌ للأذى وحِمام

أو ما تراهـــــم ذبحوا جيرانهم بين البيـــوت كأنهم أغنـــام
كم مُرضَعٍ في حِجْرِ نعمته غدَا وله على حَدِّ السيــوف فطــام
وصبيــة هُتِكت خميلةُ طُهرهـا وتناثـــــرت عن نَوْرِهِ الأكمام
وأخــي ثمانين استُبيــح وقــارُه لم يُغنِ عنه الضعفُ والأعـوام
وجريـح حربٍ ظامـىء وأدُوه لم يعطفهــمُ جرحُ دمٍ وأُوام [1]
ومهاجرين تنكـرت أوطانُهـم ضلُّوا السبيلَ من الذهول وهاموا
السيفُ إن ركبوا الفرارَ سبيلُهـم والنِّطْعُ [2] إن طلبوا القَرار مُقام
يلتفتـون مودعين ديارَهـم واللحظُ ماءٌ والديــارُ ضِرام[3]

بعد هذا بدّلت الدول الأوروبية موقفها فورا وأعلنت موافقتها على ضم البلاد العثمانية التي احتلتها دول البلقان وتركت وعدها التي وعدت به وتنكرت له فأرسلت الدولة العثمانية أحد وزرائها وهو «سليمان البستاني» المسيحي لمقابلة « بوانكاريه » وتذكيره بتصريحه الرسمي في بداية الحرب ، فلما قابله واسترعى نظره إلى نتائج هذا الموقف وسوء تأثيره على عواطف مئات الملايين من المسلمين الذين تحكم فرنسا جزءا وافرا منهم أجابه « بوانكاريه » قائلا : « مسيو بستاني ، إنك مسيحي عاقل وإن هذه الملايين لو اجتمعت كلمتها وانتظم عقدها لحسبت أوروبا حسابها وأما في حالتها الحاضرة فليس لها أى وزن » . ولما طالبت الدولة العثمانية الدول الأوروبية بأن تفي بوعدها كان ردها وجوابها : « إن ما يأخذه الهلال من الصليب يجب أن يعود إلى الصليب . أما ما يأخذه الصليب من الهلال فلن يعود إلى الهلال »[4] .

لغة الغاب والناب والمخلب لغة القوة الغاشمة والهمجية والجاهلية ، إن قصار النظر من المسلمين يعتقدون أن لهذه الأمم عهوداً أو مواثيق ، أو شرفاً أو قانوناً حقيقيا يلزمهم بشيء في حالة قوتهم وضعف خصمهم ، وهذه داهية من الدواهي والأدلة والأمثلة على ذلك تتكرر كل يوم وكل حين .

---

(١) وأوام : العطش ودوار الرأس .

(٢) النِّطع : بساط من الجلد يفرش لمن يضرب عنقه .

(٣) ضِرام : مشتعلة نارا .

(٤) انظر مع الله للشيخ محمد الغزالى ص ٤٠٧ ط دار الكتب الإسلامية .

وقد شرح الأستاذ « جود » الإنجليزي . المجد القومي بقوله :

« إن المجد القومي إنما يعني أن يكون الشعب يملك قوة يسلط بها رغبته وهواه على الآخرين إذا مست الحاجة ، ويكفي لشناعة ما يسمونه المثل الكامل للشعب أنه يناقض الصفات الخلقية والفضيلة » .

ويقول المسيو « بلدون » ـــ عن فظاعة الشرف الأوروبي الذي لا يعتد إلا بالقوة والظلم ، ويجعل هذا هو الشرف الكبير للفرد والجماعة : « معلوم أن هذه القوة التي تنال بها الأمم هذه الدرجة من الشرف إنما تتوقف على قنابل نارية متفجرة ومشتعلة النيران ، وعلى وفاء الشبان وولائهم بهذا المعنى . فالشرف الذي يمدح لأجله الشعب يناقض الصفات الأخلاقية والإنسانية ، فأرى أن الشعب يجب أن يعد همجيا وغير مهذب بالمقدار الذي يملكه من الشرف المزعوم . إذ ليس الشرف أن ينال الإنسان أو الشعب الشرف بالخديعة والمكر والظلم »[1] .

هذه عدالة الغرب المتمدن صاحب الحضارة التي يراد لها أن تسود العالم في يوم من الأيام ويفتن بها المخدوعون كما تفتن الشاة بالجزار المتربص بها .

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوى ص ٢٢٦ ط دار القلم .

المبحث الثالث

نظرية الإسلام في تكريم المرأة مع المقارنة

أولا : نظرة الإسلام إلى المرأة :

نظرية الإسلام في تكريم المرأة تنبع من رحمة الخالق جل جلاله بخلقه ، وبمعرفة طبيعة كل خلق وما يصلحه : وعلاقة الجنسين الرجال والنساء قد صاحبها على مر العصور شيء من الغلو والتفريط والاضطراب والتخبط إلى أن أدركت هذه العلاقة عناية الله سبحانه فأقامت العلاقة بينهما على أساس من حقائق الفطرة ، تتمثل فيما يأتي :

١ ـــ جعل كلا من الزوجين سكينة للآخر فقال تعالى : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة** ﴾[١] . فالحقيقة الفطرية أنهما زوجان يكمل كل منهما الآخر ويسكن كل منهما إلى الآخر ، ويكون قرة عين له ﴿ **والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما** ﴾[٢] . بل هما نفس واحدة تخرج منهما نفوس وجنس واحد يبث منهما رجالا ونساء ، فأى تفضيل لأحد على الآخر ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء** ﴾[٣] .

٢ ـــ تساوي المرأة مع الرجل من ناحية العلاقة بالله والعمل له وجزاء ذلك عنده سبحانه ، قال تعالى : ﴿ **إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما** ﴾[٤] . ﴿ **فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض** ﴾[٥] .

(١) الروم / ٢١ . (٢) الفرقان / ٧٤ . (٣) النساء / ١

(٤) الأحزاب / ٣٥ . (٥) آل عمران / ١٩٥ .

٣ ــ تساوى المرأة مع الرجل في حق الملكية والاستقلالية في الذمة المالية ، وفقا لتكوينها الفطري ووظيفتها في المجتمع الإنساني . قال تعالى : ﴿ **للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن** ﴾[(١)] ﴿ **للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا** ﴾[(٢)] .

٤ ــ للمرأة حرية اختيار الزوج لقول الرسول ﷺ: « البكر تستأذن في نفسها فإن صمتت فهو إذنها ، وإن أبت فلا جواز عليها » وقال عليه الصلاة والسلام : « شاوروا النساء في أبضاعهن » قالت عائشة : يارسول الله إن البكر لتستحي ، قال : « إذنها صمتها »[(٣)] . كما لها صداقها الذى يرضيها قال تعالى : ﴿ **وإن آتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا** ﴾[(٤)]. تتصرف فيه حيث تشاء لادخل لأحد فيه : ﴿ **وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا** ﴾[(٥)] .

٥ ــ يوصي الإسلام بالمرأة ويهتم بها أكثر من الرجل :

* **يوصي بها زوجة** : قال تعالى : ﴿ **وعاشروهن بالمعروف** ﴾[(٦)] وقال تعالى : ﴿ **ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما** ﴾[(٧)] . وقال ﷺ : « استوصوا بالنساء خيرا فإنما هن عوان عندكم ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك »[(٨)] وقال ﷺ: « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا ، وخياركم خياركم لنسائهم »[(٩)] وقال ﷺ : « الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة »[(١٠)] .

* **ويوصي بها أمًّا** : قال تعالى : ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك** ﴾[(١١)] . وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي قال : « أمك » قال : ثم من ؟

---

(١) النساء / ٣٢ .
(٢) النساء / ٧ .
(٣) الاختيار ٣ / ٩٢ تعليق الشيخ محمود أبو دقيقة .
(٤) النساء / ٢٠ .
(٥) النساء / ٤ .
(٦) النساء / ١٩ .
(٧) النساء / ١٢٩ .
(٨) الترمذى وابن ماجه .
(٩) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .
(١٠) رواه مسلم .
(١١) لقمان / ١٤ .

قال : « أمك » قال : ثم من ؟ قال : « أمك » قال : ثم من ؟ قال : « ثم أبوك »[1] .

* **ويوصي بها بنتا** : قال ﷺ: « مامن مسلم له ابنتان فيحسن إليهما ما صحبتاه ، أو صحبهما إلا أدخلاه الجنة »[2] . وقال ﷺ : « لايكن لأحدكم ثلاث بنات أو ثلاث أخوات فيحسن إليهن إلا دخل الجنة »[3] . وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺقال : « من كن له ثلاث بنات فصبر على لأوائهن وضرَّائهن وسرَّائهن أدخله الله الجنة برحمته إياهن » ، فقال رجل : واثنتان يارسول الله ؟ قال : « واثنتان » ، قال رجل : يارسول الله وواحدة ؟ قال : « وواحدة »[4] .

ونستطيع أن نقول في هذه العجالة : إن كرامة المرأة هي شطر الكرامة الآدمية التي قررها الحق سبحانه وتعالى ، وأن النظرة الإسلامية إليها تبنى على حقائق الفطرة في تكوين الجنس الإنساني أولا ، وفي تكوين كل من زوجيه ثانيا ، وأن طبيعة نظرة الإسلام إلى الإنسان ، لا تسمح بأن تكون العلاقة بين الجنسين هي مجرد العلاقة الحيوانية القائمة بين أزواج الحيوان الأعجم وإنما تقرر تلك النظرة أن تلك العلاقة الكريمة لها غايات أبعد وأشمل من هذا الالتقاء الحيواني البحت ، غاية تتفق مع غاية الوجود ومع صلاح الإنسان وسعادته تنتج سكنا للأسرة والمجتمع وقرة عين للأزواج وللأمة ، وهداية للزوجين وللناس وتربية للنشء وزيادة في الطهر والفضيلة والخلق.

هذه هي طبيعة الإسلام وهذا فكره فما هو فكر غيره إذن ؟

ثانيا : نظرة الفكر الغربي إلى المرأة :

نظرة الفكر الغربي إلى المرأة مازالت هي النظرة القديمة المستمدة من الفكر الروماني والحضارة الرومانية القديمة ، وقد جاءت المسيحية فأيدت تلك النظرة وزادتها سوءا على سوء ومهانة على مهانة ، وجاءت المدنية الحديثة فكللت ذلك كله بالامتهان الجنسي ، والضياع الخلقي والاتجار في الأعراض وإباحة الرقيق الأبيض وابتذال المرأة شطر الإنسانية وصانعة الجنس البشري ، ومربية الجيل ومحضن الطفولة وسيدة العش الآمن السعيد ، وراية المُثُل وعنوان العفة والكرامة والاستقرار .

---

(١) متفق عليه .
(٢) رواه ابن ماجه بإسناد حسن .
(٣) رواه الترمذي .
(٤) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد .

والواقع المر أن المرأة في العالم لم تر الإنصاف أو النور إلا بعد بزوغ شمس الإسلام :

ـ **ففي الجاهلية العربية** : كانت الحالة كما وصفها القرآن ﴿ **وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون** ﴾[1] كانت تُوَرَّث كمتاع البيت بعد موت زوجها .

ـ **وفي الجاهلية اليونانية والرومانية** : « كان الرجل رب الأسرة ، له حقوق الملك كاملة على أهله وولده بل بلغ من سلطته في هذا الشأن ، أن كان يجوز له حتى قتل زوجه في بعض الأحيان وبيع أولاده »[2] .

وكانت المرأة في المجتمعات كلها محتقرة اجتماعيا تباع وتشترى في الأسواق مسلوبة الحرية فاقدة الحقوق خاضعة لسلطان الرجل في كل شئون حياتها .

أما جاهلية الأديان المحرفة فقد أضفت على هذه المآسي صبغة ربانية فزادتها قسوة وشراهة .

ـ **جاهلية اليهودية** : اعتبرت اليهودية المرأة لعنة لأنها أغوت آدم ، وجاء في التوراة أن المرأة أمر من الموت ، واعتبرت عند بعض اليهود في مرتبة الخدم . ولأبيها أن يبيعها ولا حق لها في الميراث إذا كان لأبيها ذرية من البنين .

ـ **جاهلية المسيحية** : في المسيحية عدت المرأة بابا للشيطان ومدخلا من مداخله إلى النفس الإنسانية ، بل تقرر المسيحية أن المرأة جسم خال من الروح الناجية من عذاب جهنم ماعدا أم المسيح .

ونرى مايقول أقطاب المسيحيين في ذلك :

يقول « تر توليان » أحد أقطاب المسيحية الأول وأئمتها : « المرأة مدخل الشيطان إلى النفس الإنسانية ، وأنها دافعة بالمرء إلى الشجرة الممنوعة ناقضة لقانون الله ومشوهة لصورة الله » .

ويقول « كرائي سوستام » الذى يعد من كبار أولياء الديانة المسيحية في المرأة : « هي شر لابد منه ، ووسوسة جبلية ، وآفة مرغوب فيها ، وخطر على الأسرة والبيت ومحبوبة فتاكة ، ورزء مطلوب محوه » .

---

(١) النحل / ٥٨ ـ ٥٩ .

(٢) الإسلام ومشكلات الحضارة ص ٦٨ .

ويحكي الأستاذ « المودودي » في كتابه « الحجاب » بعض أقوال المسيحية في المرأة فيقول : « المرأة ينبوع المعاصي ، وأصل السيئة والفجور ، وهي للرجل باب من أبواب جهنم ، من حيث هي مصدر تحريكه وحمله على الآثام ، ومنها انبجست عيون المصائب الإنسانية جمعاء . فبحسبها ندامة وخجلا أنها امرأة ، وينبغي لها أن تستحي من حسنها وجمالها ، لأنه سلاح إبليس الذى لا يوازيه سلاح من أسلحته المتنوعة ، وعليها أن تكفر ولا تنقطع عن أداء الكفارة أبدا لأنها هي التي قد أتت بما أتت من الرزء والشقاء للأرض وأهلها » .

بمثل هذه الأفكار العفنة كانت المجتمعات المسيحية تعامل المرأة وتنظر إليها بامتهان وقد استمرت هذه النظرة وتطور هذا الامتهان في العصر الحديث وأخذ أشكالا عدة ومتنوعة .

ـــ **جاهلية الحضارة الغربية الحديثة** : تطورت الجاهلية الحديثة لامتهان المرأة وازدرائها وقتل عفتها ، فاستُعْمِلت كَدُمْيَة في ترويج السلع والفنون والإغراء التي استغلت فيها عن طريق الصحافة والإذاعة والسينما ثم التلفاز والفيديو ، ثم تيسير البغاء لها في جميع صوره وألوانه من بيوت للدعارة رسمية وغير رسمية ، ومسارح وبارات وملاه تصطاد الزبائن وتقدم لهم البضاعة الدنسة .

وبيوت الأزياء وبيوت الزينة ، والاختلاط والألقاب الرنانة التي تطلق لتسهيل الرجس ثم تحاط بسيل مستمر من الإنتاج « الفني » من قصص ومسرحيات وأفلام وروايات وإذاعات وصحافة تصور الحياة من خلال الجنس وتهون السقوط وتحبب فيه وترغب في الانحدار إليه ، يساعد على هذا فلاسفة الشيطان الذين أنتجتهم الحضارة النكدة الخبيثة من أمثال « ماركس » و « دور كايم » و « فرويد » وغيرهم . فقد أبرزتهم أساليب الدعاية الحديثة والإعلام على أنهم أصحاب النظريات العلمية وأهل الفكر وأساتذة الاجتماع ورواد الحضارة . فأحكموا الطوق على عنق الفريسة وسحبوها إلى الجزارين وسهلوا عمل عصابات الرقيق وبيوت الدعارة .

يقول « ماركس » : « إن العفة الجنسية فضائل المجتمع الإقطاعي البائد » . ويقول « فرويد» : « إن الإنسان لايحقق ذاته بغير إشباع الجنس ، وكل قيد من دين أو أخلاق أو مجتمع أو تقاليد هو قيد باطل ومدمر لطاقات الإنسان وهو كبت غير مشروع »[1] .

---

(١) جاهلية القرن العشرين . محمد قطب ص ١٨٨ ط وهبة .

وبهذا قضي على المرأة أمًّا وزوجة وإنسانة وقيمة كريمة في هذه الحياة ، كما قضي عليها استقرارا وسعادة ، وقضي على الجيل الصاعد وقضي كذلك على الأخلاق .

ويقول « ول ديورانت » الفيلسوف الأمريكي : « لما كان زواج الرجل والمرأة في المجتمع الحديث ليس زواجا بالمعنى الصحيح — لأنه صلة جنسية لا رباط أبوة — فإنه يفسد لفقدانه الأساس الذى يقوم عليه ، ومقومات الحياة ، يموت هذا الزواج لانفصاله عن الحياة وعن النوع . وينكمش الزوجان في نفسيهما وحيدين كأنهما قطعتان منفصلتان ، وتنتهي الغيرة الموجودة في الحب إلى فردية يبعثها ضغط حياة المساخر .... »[١] .

هذه النظرة الممتهنة للمرأة كانت بغير رتوش تعمل عملها إلى عهد قريب ، فقد كان القانون الإنجليزى إلى سنة ١٨٠٥ يبيح للرجل أن يبيع زوجته ، وحدد لذلك مبلغ ست بنسات ثمنا للزوجة المصونة ، ثم وضع لذلك رتوش وطلاءات سهلت بيع المرأة حتى بغير ثمن وبغير حياء وبغير قانون .

ولهذا رجع بعض المخلصين من رجال الغرب إلى النظرية الإسلامية ينادون بها لحماية أمتهم من الانهيار . فيقول « جان جاك روسو » : « الرجل من صنع المرأة فإذا أردنا رجالا أقوياء عظماء فعلينا بتربية المرأة » . ويقول « جوستاف لوبون » يحكى نظر الشرقيين إلى امتهان الأوروبيين للمرأة : « ينظر الشرقيون إلى الأوروبيين الذين يُكرهون نساءهم على التجارة والصناعة والاشتغال إلخ ، كما ننظر إلى حصان أصيل يستخدمه صاحبه في جر عربة ، أو إدارة حجر الرحى ، بينما كلمة حريم عندهم (أى عند الشرقيين) يدل على كل ماهو مقدس ويدل على أمتع قسم وأشده حرمة لدى المسلم »[٢] .

ويقول « توينبى » تحت عنوان « درس من التاريخ للإنسان المعاصر » : « إن المرأة اليوم لها عملان : العمل الأول : من حيث هي زوجة وأم . والثاني : من حيث هي عاملة في الإدارات والمصانع . وقد كانت المرأة الإنجليزية تقوم بهذا العمل الثاني فلم نؤمل الخير وراء عملها المرهق ، إذ أثبت التاريخ أن عصور الانحطاط هي تلك العصور التي تركت فيها المرأة بيتها »[٣] .

---

(١) مباهج الفلسفة — ص ٢٢٥ جاهلية القرن العشرين ص ١٦٧ .

(٢) حضارة العرب جوستاف لوبون ص ٤٩٩ ، ٥٠٣ .

(٣) قذائف الحق للغزالي ص ٣١٤ ط ذات السلاسل .

هذا ما يقرره المخلصون وعلماء التاريخ المحبون لأممهم ، وأما المسلطون على الأمم والشعوب والمنحرفون فلهم شأن آخر .

ولكن المؤسف حقا ما يسمعه الإنسان اليوم من بعض الشرقيين المهزومين بالثقافات الدخيلة الذين يروجون انحطاط المرأة والسير على تلك الجاهلية الخبيثة ، ويشجعون الشابات على التحلل من البقية الباقية من الحياء والخلق الفاضل ويبشرون بمستقبل باسم لهؤلاء المنحلات فنسمع أحدهم يقول : « أنه من دواعي سروري أن أرى الجيل الحاضر من الفتيات يحسن الرقص على الموسيقى ويشدين بالألحان الشجية .

فأقول وهذا من مصائب الدهر التي تجمعت على الأمم المنكوبة ورماهم بها ، ولله در القائل :

رماني الدهر بالأرزاء حتى ... فؤادى في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتني سهام ... تكسرت النصال على النصال

المبحث الرابع

النظرية العلمية في الفكر الإسلامي

ــ تبني النظرية العلمية في الفكر الإسلامى علي الوجوب والفرضية ، قال ﷺ : « طلب العلم فريضة على كل مسلم »[1] .

ــ كما تبنى على رضاء الله والجنة ، قال تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾[2] وقال ﷺ : « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما صنع ، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض » [3] .

وذهب رجل إلى رسول الله في المسجد فقال يارسول الله إني جئت أطلب العلم ، فقال : « مرحبا بطالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها ، ثم يركب بعضها بعضا حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب »[4] .

ــ كما تبنى على اعتبار أن العلم هو طريق الرفعة في الدنيا والسعادة فيها : فهو أفضل كسب قال ﷺ : « ما اكتسب مكتسب مثل فضل علم يهدى صاحبه إلى هدى ، أو يرده عن ردى »[5] .

وهو أنفس شيء يجب أن يحرص عليه الإنسان ويسابق عليه ، قال ﷺ: « لاحسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها »[6] .

وهو الرفعة الحقيقية التي لا تراقى ، يبين هذا رسول الله ﷺ فيقول : « فضل العالم

---

(١) صحيح . رواته ثقات . فيض القدير ٤ / ٢٦٧ ط المعرفة .

(٢) فاطر / ٢٨ .

(٣) رواه أبو داود وابن ماجة والترمذى والبيهقى ــ صحيح .

(٤) رواه أحمد والطبرانى بإسناد جيد وقال صحيح الإسناد .

(٥) رواه الطبرانى فى الصغير والكبير .

(٦) رواه البخارى ومسلم .

على العابد كفضلي على أدناكم » ، ثم قال : « إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها والحوت ليصلون على معلم الناس الخير »(١) .

وهو النماء والسعادة والغيث العميم : قال ﷺ : « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فينفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة أخرى منها إنما هي قيعان ، لا تمسك ماء ولا تنبت الكلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى ، ونفعه مابعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به »(٢) .

ــ تبنى على اعتبار أن العلم هو الحياة والهداية والنور ، والجهل هو الموت والعمى والضلال ، ولهذا قارن الإسلام بين أصحاب الجهل والعلم ، بين من ساروا في التعاليم وبين من قعدوا عنها فقال : ﴿ **ومايستوى الأعمى والبصير . ولا الظلمات ولا النور . ولا الظل ولا الحرور . وما يستوى الأحياء ولا الأموات** ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ **مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون** ﴾(٤) .

ــ تبنى على إذاعة العلم والعمل به وجعله قاعدة للعمل ونفي الخرافة عنه ولهذا حذر الرسول ﷺ من كتم العلم وعدم إذاعته على الناس فقال ﷺ : « من كتم علما ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار »(٥) . وقال ﷺ : « من سئل عن علم فكتمه جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار »(٦) .

كما جعل الإسلام العلم قاعدة للعمل ، وحجة على العالم حتى تُنار الدنيا بالعلم فلا يصار إلى قول دون عمل ، قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر**

---

(١) رواه الترمذى وحسنة وقال حديث حسن صحيح .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣) فاطر / ١٩ ــ ٢٢ .

(٤) هود / ٢٤ .

(٥) ابن ماجه ــ صحيح .

(٦) رواه الطبرانى بإسناد جيد .

مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾[2]. وقال ﷺ: « يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه فى النار فيدور كما يدور الحمار برحاه ، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون : أى فلان ما شأنك أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ قال : كنت آمركم بالمعروف ولا آتية وأنهاكم عن المنكر وآتية »[3] . وفي رواية زيادة : يقول النبي ﷺ . « مررت ليلة أسرى بي بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار ، قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء خطباء أمتك يقولون ما لا يفعلون » .

ولهذا فالعلم الذى لا ينفع أو العلم الفاسد الذى يؤدى إلى ضرر أو فساد ، مرفوض في الفكر الإسلامي ومنهي عنه .

فالعلم إذا كان مماراة وجدال وضياع للوقت كان مذموما وكان منهياً عنه ، قال ﷺ: « ماضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل »[4] .

وكذلك إذا كان علما فاسدا كعلم المهلكات وعلم السحر وعلم الجنس والرذيلة وعلوم الإلحاد والضلال . فهذا مما يتنافر مع النظرية العلمية للإسلام ومع الطبيعة المؤمنة ودائما يستعيذ المسلم من ذلك فيقول : « اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ونفس لا تشبع ودعوة لا يستجاب لها » .

طبيعة العقلية الإسلامية العلمية :

للعقلية الإسلامية طبيعة علمية متميزة تظهر خصائصها وتفصح عن جوهرها المتفرد وتعمل عملها في المجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية منها :

١ ـ العلاج والبناء :

البناء وليس الهدم ، البيان والإرشاد ، النصح والتقويم ، التبصير والتنوير ، ومقومات البناء غير مقومات الهدم ، والطاقات المبذولة فى التقويم غير الطاقات المصروفة فى التهوين . فلم تأت التعاليم الإسلامية لتهدم أباطيل وتكشف مفاسد وفقط ، ولا لتحقر عادات وتقاليد

---

(١) الصف / ٢ ، ٣ .　　(٢) البقرة / ٤٤ .

(٣) رواه البخارى ومسلم .

(٤) رواه ابن ماجه والترمذى وقال حديث حسن صحيح .

عفنة وحسب ، وإنما لتورث بدلا منها هداية وإرشادا ، وتقويما وإصلاحا ، ولتبني مكانها أعرافا وأنماطا أكثر فاعلية وقوامة لحياة الإنسان ومستقبله ، فلم تقف التعاليم الإسلامية صارخة مولولة ، أو منذرة موعدة مرهبة ، تدخل الرعب فى النفوس وتخلع القلوب ، بغير أن تمسح على الصدور وتفهم الطبائع والأحوال والطاقات والقدرات وصدق الله : ﴿ **ما جعل عليكم فى الدين من حرج** ﴾ (1) ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾(2) ولم تنزل الساحة بغير خطة أو علم أو شفاء أو دربة ، بل نزلت بهذا كله وبكل أجهزة البناء ومعدات الصعود إلى القمة ، وصدق الله : ﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم** ﴾(3) .

كان هذا النور وهذا العلم وهذا الهدى فيما بعد هو المنقذ والمعلم والشافي للبشرية من جهلها العضال وعمايتها الطويلة . أنطق كثيرا من الباحثين والدارسين :

قال ، « جورج سارتون » :
« حقق المسلمون عباقرة الشرق أعظم المآثر فى القرون الوسطى . فكتبت أعظم المؤلفات قيمة وأكثرها أصالة ، وأغزرها مادة باللغة العربية . وكانت من منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادي عشر ، لغة العلم الارتقائي للجنس البشري ، حتى لقد كان ينبغي لأي كائن إذا أراد أن يلم بثقافة عصره ، وبأحدث صورها أن يتعلم اللغة العربية ، ولقد فعل ذلك كثيرون من غير المتكلمين بها » (4) .

وقال ، « ر . نيكلسون » يصف النشاط العلمي للمسلمين وقيمته :
« فقد لاح بأن الناس فى العالم الإسلامي كله ابتداء من الخليفة إلى أقل المواطنين قد أصبحوا طلابا للعلم ، أو على الأقل مناصرين له . وكان الناس لأجل طلب العلم يسافرون عبر قارات ثلاث ، ثم يعودون إلى بلادهم وكأنهم نحل تشبع بالعسل ، ليفضوا بما جمعوا من محصول ثمين إلى حشود من التلاميذ المتشوقين للعلم ، وليؤلفوا بهمة عظيمة الأعمال التى تتصف بالدقة وسعة الأفق ، والتى استمد منها العلم الحديث ـــ بكل ما تحمله هذه العبارة من معان ـــ مقوماته بصورة أكثر فاعلية مما نظن أو نفترض » (5) .

---

(1) الحج / 78 . (2) البقرة / 185 . (3) المائدة / 15 ـــ 16 .

(4 ، 5) مآثر العرب على الحضارة الأوربية. إسماعيل مظهر ص 13 ، 18 ط الأنجلو المصرية .

٢ ـ التكامل والتوازن :

لم يكن العلم الإسلامى ماديا يهتم بالمادة والبحث فيها واكتشاف أسبابها وخواصها فقط ولم يكن أخلاقيا أو اجتماعيا أو روحيا فحسب ، وإنما تطرق إلى كل علم مفيد وبحث مجدي ، يعود على الإنسان بالفائدة والخير ، واعتبره علما إسلاميا يأخذ الإنسان الثواب عليه من الله سبحانه إذا هو تعلمه وعمل به ونفع به الناس ، فلم يفصل بين الروحانيات والماديات ، ولا بين الدنيويات والأخرويات فالروحانيات وقود لتحصيل الماديات وإحسانها وإشاعة خيرها وإصلاح شأنها ، والماديات دفع للروحانيات وتحقيق لمقاصدها ، وعون على تحقيق غاياتها ومراميها وصدق الله : « **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين** »[١] .

والدنيويات مزرعة للأخرويات ورفعة للدرجات فيها بالأعمال الصالحة والأفعال الكريمة والأخرويات تزكية للدنيويات وتحصين لها من الانحراف أو الاعوجاج أو مقارفة الآثام والمظالم ، وصدق الله : ﴿ **من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا. ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا** »[٢] « **أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون** ﴾[٣] .

نتاج هذا التوازن:

وكان من نتائج هذا التوازن والتكامل خروج جيل من العمالقة فى كل علم وفن ، فى الدين والدنيا ، فى الفقه والأدب ، فى الأخلاق والحكم ، فى الطب والفلك ، فى الفيزياء والرياضيات ، فى التاريخ والجغرافيا . من أمثال « الرازي ، وابن سينا ، والبيرونى ، وموسى بن جعفر ، وأبو القاسم وثابت بن قرة والإدريسي ، وابن خلدون » وغيرهم الذين كانوا رواد العالم في مختلف فروع المعرفة الإنسانية ، وأساتذة الأمم في الشرق والغرب ، **فأما عن العلوم الطبية** : فإنهم كانوا رواده الأوائل بلا منازع يشهد لذلك القاصي والداني حيث برعوا فى فن التطبيب وتنظيم المستشفيات ، والإشراف الفني الدقيق على كل ما يتعلق بالصحة العامة ، فدام أثرهم الطبي فى أوربا ابتداء من القرن الحادي عشر ، وتربعت فى هذه الحقبة الطويلة كتبهم الطبية على عرش الطب فى أوربا ، وكانت أسماء أطبائهم على كل

(١) للقصص / ٧٧ . (٢) النساء / ١٢٣ ـــ ١٢٤ .
(٣) العنكبوت / ٤ .

لسان وكتبهم الطبية مناراً لكل طبيب ، ومأثورات حكمتهم فى كل بيت ، يقول « جوستاف لوبون » فى حضارة العرب :

« إن أهم تقدم للعرب فى عالم الطب هو ما كان فى الجراحة ووصف الأمراض وأنواع الأدوية ، والصيدلة . والطب مدين للعرب بعقاقير كثيرة كالسَّليخة والسَّنا المكيّ والروند ، والتمر الهندي ، وجوز القيء ، والقرمز ، والكافور ، والكحول وغير ذلك كثير . وهو مدين لهم بفن الصيدلة وبكثير من المستحضرات التى لا تزال تستعمل كالأشربة واللعوق واللزقات والمراهم والدهان والمياه المقطرة ، إلخ .

والطب مدين لهم كذلك بطرق كثيرة فى المداواة التى عاد إليها على أنها اكتشافات حديثة بعد أن نسيت زمانا طويلا ، ومنها طريقة إمصاص النبات بعض الأدوية كما صنع ابن زهر الذى كان يعالج المرضى المصابين بالقبض بإطعامهم عنبا أشرب من بعض المسهلات .

وعلم الجراحة مدين للعرب أيضا ، بكثير من مبتكراته الأساسية فظلت كتبهم فيه مرجعا للدراسة فى كليات الطب إلى وقت قريب جدا . فالعرب كانوا يعرفون فى القرن الحادى عشر من الميلاد معالجة غشاوة العين بخفض العدسة أو إخراجها ، وكانوا يعرفون عملية تفتيت الحصوة التى وصفها أبو القاسم بوضوح ، وكانوا يعرفون صب الماء البارد لقطع النزيف ، وكانوا يعرفون الكاويات والفتائل إلخ ، وكانوا يعرفون البنج الذى ظن أنه من مبتكرات العصر الحاضر ، وذلك باستعمال الزُّؤان والشَّيْلَم لتنويم المريض قبل العمليات المؤلمة حتى يفقد وعيه وحواسه » (١) .

وكان الرازي من علماء الطب وأشهرهم فى الإسلام كما كان من علماء الكيمياء وعلماء التفسير المعدودين ، وله تراث فى العلوم المختلفة كالفلسفة والتاريخ والكمياء وتفسير القرآن الكريم والعلوم الإسلامية . والطب إلخ ، وله مؤلفات عديدة فى الطب منها ماكتبه فى بعض الحميات ذات البثور كالحصبة والجدري ، وكان واسع الاطلاع على علم التشريح ، وكان كتابه فى أمراض الأطفال أول كتاب بحث فى هذا الموضوع ، وكتابه الحاوي الذى جمع فيه صناعة الطب ، وكتابه المنصوري ، الذي بعث به إلى الأمير منصور ، والمؤلف من عشرة أقسام وهى ١ ــ التشريح ٢ ــ الأمزجة ، ٣ ــ الأغذية والأدوية ، ٤ ــ الصحة ، ٥ ــ دواء البشرة ، ٦ ــ نظام السفر ، ٧ ــ الجراحة ، ٨ ــ السموم ، ٩ ــ الأمراض

(١) حضارة العرب ص ٥٩٤ ، ٥٩٥ عادل زعيتر ط إحياء الكتاب العربى .

على العموم ، ١٠ ــ الحمى .

وقد ترجمت كتب الرازي إلى اللاتينية وطبعت عدة مرات لاسيما فى البندقية وباريس ، وظلت جامعات الطب فى أوربا تعتمد زمنا طويلا على كتبه مع كتب ابن سينا وتجعلها أساسا للتدريس فى جامعة لوفان حتى فى القرن السابع عشر الميلادي .

٣ ــ النظرية العلمية الإسلامية تبنى على النظر والبحث والتقصي والتجربة والظن الموصل إلى الحقيقة واليقين :

أما أنها تبنى على النظر فقد وضح القرآن ذلك في كثير من آياته : منها قوله تعالى : **﴿ إن في خلق السموٰت والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾**[١] . ويقول سبحانه منبها العقول والأفكار والأفهام إلى النظر في الأشياء وفي العوالم ليظهر بديع صنعه سبحانه وعظيم قدرته وليستطيع الناس أن يأخذوا من العوالم ماقدر الله وما أودع فيها من أسرار وحكم ، وآيات فيها صلاح الناس وسعادتهم ، وليعلموا أن هذه العوالم لم يخلقها الله عبثا وإنما خلقها لنفع الناس وخيرهم فإذا فتحوا البصائر وعملوا الأفهام استفادوا وسعدوا ، وصدق الله : **﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾**[٢] . **﴿ والأرض وضعها للأنام . فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام . والحب ذو العصف والريحان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾**[٣] . وقال تعالى : **﴿ الله الذى رفع السموٰت بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾**[٤] . وقال

---

(١) البقرة / ١٦٤ . (٢) تبارك / ١٥ .

(٣) الرحمن / ١٠ ــ ١٣ .

(٤) الرعد / ٢ ــ ٤ .

تعالى : ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير ﴾[1] . ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون . وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين . وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم . وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴾ [2] .

---

(١) العنكبوت / ٢٠ .

(٢) الحجر / ١٩ ـــ ٢٢ .

المبحث الخامس

نظرية الإسلام الطبية

يقرر الإسلام أن النفع والضر والصحة والمرض والموت والحياة بيد الله سبحانه وتعالى يوضح هذا ويبينه في كثير من سور القرآن : من ذلك قوله تعالى : ﴿ **الذى خلقني فهو يهدين . والذى هو يطعمني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتني ثم يحيين** ﴾ [1] . وقوله تعالى : ﴿ **وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو** ﴾ [2] وقوله تعالى : ﴿ **قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا إلا ماشاء الله** ﴾[3] .

والإسلام يقرر هذه القاعدة ليوضح جوانب معينة منها :

أولا : حتى لا يصير الإنسان عبدا لغير الله سبحانه ولا يخشى إلا هو ولا يتوكل إلا عليه فليس لأى قوة في الأرض سلطان على ذلك الإنسان إلا بإذن خالقه ومولاه ، وصدق الله : ﴿ **قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا** ﴾[4]﴿ **أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ماتذكرون** ﴾[5] .

ثانيا : ليتعلق الإنسان بالمؤثر الفعلي ويتشبث برحمة الله سبحانه وعطفه فتقوى الصلة بين العبد وربه وبين الإنسان والمنعم عليه : ﴿ **وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين . وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين . وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين . وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين** ﴾[6] .

---

(١) الشعراء / ٧٨ ــ ٨١ .
(٢) الأنعام / ١٧ ، يونس / ١٠٧ .
(٣) يونس / ٤٩ .
(٤) الإسراء / ٥٦ .
(٥) النمل / ٦٢ .
(٦) الأنبياء / ٨٣ ــ ٨٨ .

ثالثا: ليتحقق معنى الابتلاء : ويعرف مقدار الصبر والمصابرة التي يختبر به الإيمان وتعظم به الدرجات وصدق الله : ﴿ **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآيتنا يوقنون** ﴾(١). ﴿ **ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور** ﴾(٢) . ﴿ **ياأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين** ﴾(٣) . ﴿ **ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولـئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾(٤) . وقال ﷺ : « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلي الرجل على قدر دينه »(٥) .

رابعا : ليعلم المؤمن أن كل شيء قد علقه الله بالأسباب وربطه بالقوانين المسيرة لهذا الكون ، فالقوانين من إرادة الله والأسباب من صنعته وتدبيره الذى تعلقت به إرادته سبحانه ، وبهذا أمرنا الله باتباع الأسباب وإعداد العدة وأخذ الحيطة والحذر في الحرب وغير ذلك وعاقب سبحانه من تخلى عن هذه الأسباب أو تساهل في تحصيلها . فأما أمره سبحانه باتخاذ الأسباب بقوله تعالى : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل** ﴾ (٦) . وقوله تعالى : ﴿ **خذو حذركم فانفروا ثباتا أو انفروا جميعا** ﴾ (٧) . ﴿ **ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة** ﴾ (٨) .

وقد أمر رسول الله ﷺ بالتداوى فقال : « إن الله أنزل الداء والدواء وجعل لكل داء دواء . فتداووا ولا تتداوا بحرام »(٩) .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إن لكل داء دواء فإذا أصاب دواء الداء برئ بإذن الله » (١٠) .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ماأنزل الله داء إلا وأنزل له دواء »(١١).

---

(١) السجدة / ٢٤ . (٢) الشورى / ٤٣ . (٣) البقرة / ١٥٣ .
(٤) البقرة / ١٥٥ ـــ ١٥٧ . (٥) البخارى . (٦) الأنفال / ٦٠ .
(٧) النساء / ٧١ (٨) التوبة / ٤٦ .
(٩) أخرجه أبو داود وهو حديث حسن . (١٠)أخرجة مسلم .
(١١) أخرجه البخارى .

وعاقب سبحانه وتعالى من تساهل وتكاسل : فقال سبحانه : ﴿ **ماأصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك** ﴾[1] . عقوبة له على ما اقترف مصداقا لقوله تعالى : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير** ﴾[2] . وقوله تعالى : ﴿ **أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم** ﴾[3] .

ولكن ينبغي أن يعلم أن الأسباب ليست هي المؤثرة بذاتها وإنما تأثيرها مستمد من الله سبحانه الذى أرادها أن تكون كذلك .

خامسا : ليعلم المسلم أن له نهاية محتومة ولكنه مع هذا يجب عليه أن يحافظ على صحته وعلى جسده ويطلب له كل مايصونه من العلل والأمراض حتى يحافظ على صحته التي هي نعمة من الله أعطاها له وأودعه إياها ، فلا ينبغي أن يفرط فيها أو يتهاون في حفظها . قال ﷺ : « نعمتان مغبونٌ فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ » . فبنعمة الصحة تتم الصالحات وَيَقْوى المؤمن على طاعة الله والقيام بأوامره سبحانه .

لهذا عني المسلمون بالصحة وأجهدوا أنفسهم في حفظها وصيانتها لقول رسول الله ﷺ : « اسألوا الله العافية ، فإنه ما أوتي أحد بعد اليقين في الله خيرا من العافية »[4] ولتنبيهاته ﷺ الصحية الكثيرة التى منها على سبيل المثال : قوله ﷺ: « لا يبولن أحدكم في الماء الدائم » . وقوله ﷺ : « لا يحل الممرض على المصح وليحل المصح حيث شاء » وقوله سبحانه : ﴿ **ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ﴾[5] . ﴿ **ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما** ﴾[6] .

ولهذا حرم الإسلام الخبائث والمهلكات والمسكرات وما يضر بالعقل أو الجسد أو الصحة وارتبط الحفاظ على الصحة بالعقيدة وصار واجبا يثاب عليه الإنسان أو يعاقب .

ولهذا كان علماء الإسلام هم أول النبغاء في فن الطب وهم أول معلموه وأول من كر على علوم الطب في الأمم المختلفة وقاموا بترجمتها ونقدها وتصحيحها طبقا لبحوث ميدانية وتجارب طبية وأضافوا إليها تراثا ضخما من العلوم الصيدلية والطبية ، وكان أول مؤلف لعمل

(١) النساء / ٧٩ .
(٢) الشورى / ٣٠ .
(٣) ال عمران / ١٦٥ .
(٤) رواه أحمد والبخارى فى باب الجهاد .
(٥) البقرة ١٩٥ .
(٦) النساء / ٢٩ .

طبي إسلامي هو : « علي بن رين الطبرى » مؤلف كتاب : « فردوس الحكمة » وقد ألفه سنة ٢٣٦ هـ وكان لهذا الكتاب قيمة طبية في مجال علم الأمراض والصيدلة ، والحمية ، وكان الطبرى أستاذا لطبيب عظيم من أطباء الإسلام هو « أبو بكر بن زكريا الرازى » « ٢٥١ — ٣١٤ هـ » وهو يعد بلا منازع أعظم أطباء العصور الوسطى من حيث عنايته بالطب الإكلينكي ، وكان أثره هو وابن سينا ضخماً سواء فى الشرق أو الغرب .. ومن هنا أطلق عليه : « جيلانوس العرب » ، وهو مؤلف كتاب « الحاوى » وقد أسهم « الرازى » كذلك في ميدان الطب بحوالي ستة وخمسين مصنفا كما يذكر « البيروني » ، وكان أول من ميز بين أمراض عديدة ، وكذلك أول من كتب رسالة في الجدرى ، وكيفية علاجه ، وفرق بينه وبين الحصبة .

وجاء بعد الرازى كثير من العلماء منهم : « علي بن عباس » الذى نبغ في علاج كثير من الأمراض المختلفة ، وبلغت شهرة مؤلفاته الآفاق ومن أبرزها كتاب « كامل الصناعات » ، ثم جاء « ابن سينا » المتوفي سنة ٤٢٨ هـ والذى يعتبر من أكبر أطباء الإسلام حتى أطلق عليه الغرب لقب « أمير الأطباء » وكان ابن سينا مع علمه بالطب حجة في الفلسفة ، وقد قدر « لابن سينا » أن يرتفع بالطب الإسلامي إلى الذروة ، كما قدر لكتابه « القانون » أن يصبح المرجع الأساسي للدارسين من بعده .

ولقد استمرت حركة الطب في ازدهار مستمر في كل مجالاته ، ففي العيون ظهر الخازن ، وعلي بن رضوان .

كما ظهر ابن النفيس مكتشف الدورة الدموية ، وقد نقد أعمال جالينوس في التشريح ، وأظهر ما فيها من أخطاء .

وظهر من الأطباء الموسوعيين في مصر « داود الأنطاكي » المتوفي سنة ١١٠١ هـ . صاحب « التذكرة » كما ظهر « أبو القاسم الزهراوى » الجراح صاحب كتاب « التصريف لمن عجز عن التأليف » وغيرهم وغيرهم من العلماء الأفذاذ[1] أمثال « الحسن بن الهيثم » في البصريات وطب العيون .

وقد كانت العلوم الطبية مثل غيرها غالبا ما كانت تدرس في المساجد ، وقد عني

---

(١) انظر : الطب الإسلامي ١ / ٧٨ الطبعة الثانية .

المسلمون بإنشا المكتبات الطبية ، فقد أقام « المأمون » « بيت الحكمة » في بغداد عام ٨٣٠ م . وقامت على غراره المكتبات التي كانت تغذى العلماء بالأفكار والمؤلفات والتجارب الطبية العظيمة ، وكان موسم الحج وسيلة جيدة لالتقاء علماء المسلمين وتبادل الأفكار بين علماء الأقطار المختلفة من الهند وأسبانيا والمشرق وآسيا الصغرى وأفريقيا .

وقد أنشئت المؤسسات الطبية ، وأقيمت المستشفيات على غرار المستشفيات التعليمية التي كانت تمثل المعاهد العلمية ، وقد عد بعض المحققين هذا المصحات التعليمية فوجدها تربو على أربع وثلاثين موزعة في أرجاء العالم الإسلامي من إيران إلى المغرب ، ومن شمال سورية إلى مصر ، وفي القاهرة قد أنشأ « ابن طولون » أول مستشفى في عام ٨٧٢ م ، وقد كان الجامع الأزهر من أهم تلك المؤسسات في ذلك الوقت حيث كانت « مدرسة الأزهر الطبية » هي أول من زود جامعة أوروبية في صقلية بالمعارف الطبية . وفي بغداد أقيم أول مستشفى بأمر الخليفة « هارون الرشيد » في بداية القرن التاسع الميلادى ، وأتبع بخمس مستشفيات أخرى ، وكذلك أنشئت المستشفيات الجوالة في القرن الحادى عشر ، وكان كل مستشفى ينقسم إلى وحدتين ، وحدة للرجال ووحدة للنساء ، ولكل وحدة أجنحتها الخاصة وصيدليتها الخاصة ، وكانت تحتوى المستشفيات على المكتبات الطبية والعلمية(١) .

وكانت هذه المستشفيات في عرض البلاد وطولها يعالج فيها الفقير والغني بالمجان ، وكانوا يحصلون كذلك على الغذاء والمأوى والعقاقير بالمجان ، وكذلك الألبسة بالإضافة إلى تعويض مالي لشهر كامل يتقاضونه المرضى عند الخروج من المستشفى حتى لا يعملون فور خروجهم ويلزمون الراحة التامة .

هذا في الزمن الذى كانت أوروبا فيه في ظلام الجهل وعماية الخرافة .

يروى صاحب كتاب « الاعتبار » التي طبعته جامعة « برنستون » بالولايات المتحدة حادثة عن طب الأوروبيين وعن الطب العربي الإسلامي فيقول : « سأل أمير أوروبي إلى أمير عربي يطلب منه طبيبا يداوى أصحابه فأرسل له الأمير العربي طبيبا اسمه (ثابت) . فما غاب عشرة أيام حتى عاد . فقال له الأمير العربي : ما أسرع ماداويت المرضى ، فقال

(١) المرجع السابق ـــ ١٣٠ .

الطبيب : أحضروا عندى فارسا قد طلعت له الدملة في رجله ، وامرأة لحقها نشاف . فعملت للفارس لبخة ففتحت الدملة وصلحت . وحميت المرأة ورطبت مزاجها . فجاء طبيب أفرنجي فقال لهم : ماهذا ، هذا لا يعرف شيئا يداويهم ، وقال للفارس : أيهما أحب إليك أن تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين ؟ قال : أعيش برجل واحدة .

قال : أحضروا لي فارسا وفأسا قاطعا . ثم وضع رجل الرجل على قرمة خشب وقال للفارس : اضرب فضربه فقطع رجله فسال مخها وخرجت روحه معها ومات الرجل .

وأبصر المرأة فقال هذه في رأسها شيطان ، احلقوا شعرها : فلم يذهب عنها الداء فأخذ موسى وشق جلدة رأسها وملأها بالملح فماتت . فقلت لهم : ألكم بي حاجة بعد ما رأيت . وتركتهم وجئت » (١) .

وبعد : فعلى النظرية العلمية السليمة قامت النظرية الطبية الإسلامية تبحث عن أسباب الداء وعما يصلحه من دواء بالنظر إلى خواص الأشياء والتجارب المفيدة التي هي نتاج معايشة المرضى واستعمال العقاقير المختلفة . والبحث عن كل مايؤثر أو يفيد في هذا الميدان . طلبا لصحة الجسم وحفظا لنعمة الله الموهوبة لهذا الإنسان إلى أن يأتيه أجله المحدود والموقوت . وليستطيع أن يستثمر حياته كلها وطاقته كاملة في سبيل نفع الإنسانية والقيام برسالته فى الأرض وتحقيق أهدافه العليا .

كما أن أساس النظرية الإسلامية الطبية متين وقوى ، لأنه مرتبط بعقيدة دافعة تحتم العمل في مجالها كواجب عليه ثواب وعقاب ورضاء من الله سبحانه ، لا يحركه لذة أو رغبة عارضة أو واجب قومي فقط .

أما النظرية غير الإسلامية فدافعها الاستمتاع بالحياة الشخصية أولا والسلامة العامة ثانيا ، ودافع كل ذلك أهداف شخصية أو قومية ليست مرتبطة بعقيدة لها من القوة ما للنظرية الإسلامية ولا من الغايات ما لها . بل قد يستعمل الطب لترويج مذاهب وآراء أو تبشير لاستعمار ، أو استغلال لشعوب وسلب لخيرات ، إلى غير ذلك مما سنتعرض له بعد — إن شاء الله تعالى .

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب ص ٢١٥ .

المبحث السادس

النظرية العلمية في الفكر الغربي

كل مافي الكون وجد أساسا لرفاهية الإنسان وسعادته وانطلاقته في هذه الحياة ، فالإنسان هو سيد هذه الأرض وهو المهيمن عليها ، يطلق يده فى عمارتها وتشكيلها واستخراج طاقاتها وخاماتها . كل ذلك حسب منهج حياة كامل ينظم حركة الكون والإنسان ، وحركة العوالم والأكوان يضعه الله سبحانه وتعالى له لأنه صاحب الحياة ، ولا يترك الحق سبحانه وتعالى ذلك للإنسان لأنه مزود بطاقات معينة ليتحكم في المادة عن علم بطبيعتها ــ بينما هو غير مزود بمثل هذه الطاقات لمعرفة نفسه حتى يتحكم في أمرها عن علم كما يتحكم هو في المادة التي ذللها الحق سبحانه وتعالى له : ﴿ **هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور** ﴾[1] .

وإن تقدم الإنسان في علوم المادة وإبداعه في العالم المادى وصحة بحوثه فيها ونظرياته في هذا الحقل ، لا تقتضي تقدمه في علم الإنسان ولا صحة بحثه ونظرياته في هذا الحقل ، لأن الحقل الأول قد أهله الله له وحثه عليه والحقل الثاني قد منع منه ولكنه أهدى إليه منة من الله وفضلا ، عن طريق الوحي وصدق الله : ﴿ **يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾[2] .

دواؤك فيك ومـــا تنظـــر ... وداؤك منك ومـــا تبصر
وتزعـــم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العـالم الأكبر

وقد لاحظ هذا الفرق كثير من الباحثين في العلوم الإنسانية .

يقول الدكتور « أليكسيس كاريل » : « إننا لا نفهم الإنسان ككل : إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة ، وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة » . ثم يقول : « وواقع الأمر أن جهلنا

(١) الملك / ١٥ .
(٢) الإسراء / ٨٥ .

مطبق . فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشرى تظل بلا جواب ، لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنة ، ما زالت غير معروفة ، فنحن لا نعرف حتى الآن الإجابة على أسئلة كثيرة ... إننا لا نعرف كيف يمكن أن يزداد الإحساس الأدبي وقوة الحكم والجرأة ... ولا ماهي الأهمية للنشاط العقلي والأدبي ... كذلك النشاط الديني .. ؟ أى شكل من أشكال النشاط مسئول عن تبادل الشعور والخواطر ؟ إننا لا نعرف أى البيئات أكثر صلاحية لإنشاء الرجل المتمدن وتقدمه . وهل في الإمكان كبت روح الكفاح والمجهود ، وما قد نحس به من عناء بسبب تكويننا الفسيولوجي والروحي ؟ .

كيف نستطيع أن نحول دون تدهور الإنسان وانحطاطه في المدنية العصرية وهناك أسئلة أخرى لاعد لها ، يمكن أن تلقى في موضوعات تعتبر في غاية الأهمية بالنسبة لنا ، ولكنها ستظل جميعها بلا جواب .. فمن الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان غير كاف ، وأن معرفتنا بأنفسنا ما زالت بدائية في الغالب ... » [1] .

ولكن للأسف قد أخطأ الفكر الغربي هذه الناحية واختلطت عنده الأوراق وتاهت منه الحقيقة وادعى أنه كل شيء وأصابه الغرور القاتل فنتج عن هذا انتكاسة إنسانية عاتية وانقلب سيد الأرض عبدا لشهواته وانحرافاته وأهلك نفسه بجهله وبغى على خالقه بسفهه واتسعت زاوية انحرافاته حتى أحاطت بكل جوانب حياته المعاشة فكانت كما يلى :

١ ـــ انحرافات في تصور الحقيقة الإلهية وعلاقتها بالإنسان .
٢ ـــ انحرافات في التصور للكون وعلاقته بالله وعلاقة الإنسان به .
٣ ـــ انحرافات في تصور الحياة وارتباطاتها وأهدافها .
٤ ـــ انحراف في تصور النفس البشرية وارتباطات الإنسان بالإنسان فردا أو جماعة .

نتج عن هذا تصورات فكرية منحرفة ، وسعار نحو عبادة المادة وحب السيطرة والغلبة فظهرت مذاهب فكرية متعددة روجت لها شياطين الضياع والاستعباد والقهر والحقد على الإنسانية فأفرزت أمراضا عدة منها :

---

(١) الإسلام ومشكلات الحضارة ص ١٣ ، ١٥ .

١ ـــ التفسير المادى للتاريخ .
٢ ـــ التفسير الجنسي للسلوك .
٣ ـــ التفسير الجسماني للمشاعر .
٤ ـــ التفسير الوجودى للإنسان .
٥ ـــ التفسير الفوضوى للحياة .

• **أما عن التفسير المادى للتاريخ :** فزعيمه « ماركس » الذى يفسر الحياة الإنسانية كلها من خلال الحيوانية الإنسانية ، فتاريخ البشر كله وعوامل اضطرابه واستقامته ، وسعادته أو شقاؤه يتلخص كله في البحث عن لقمة الخبز ، فالإنتاج المادى هو الذى يتحكم في مشاعر الإنسان وأحاسيسه وقيمة وأخلاقه . فالقيم التي درج عليها الإنسان أعراض متطورة ، لاتثبت على حال فالحق والعدل والشرف والفضيلة كلها قيم متغيرة على الدوام ، فما يكون اليوم حق أو عدل يكون في يوم آخر ظلم وبغي ، وما يكون غدا فضيلة قد يصبح بعد غد رذيلة ، وليس هذا من قبيل الفروض وإنما هي حقيقة حتمية تظهر بشكل منظم .

فالتدين مثلا فضيلة في الطور الإقطاعي ، أما في الطور الصناعي يصبح التدين تأخرا وجمودا ورجعية ويكون حين ذاك الإلحاد هو الفضيلة وهو التقدم ، والعفة تكون فضيلة في المجتمع الإقطاعي وتكون رذيلة في المجتمع الصناعي المتطور ، بل تصبح سخرية وأضحوكة لأن المرأة قد أصبحت مستقلة تكسب قوتها كالرجل ولم تعد في حاجة إليه كي ينفق عليها ويحميها وتقصر لذلك نفسها عليه .

وبهذا اهتزت كيانات الأفراد والأمم لاهتزازات القيم والأشياء المقدسة والثوابت التي تشكل عنصر الاستقرار النفسي والحياتي في المجتمعات ، وأصبح احترام الناس للقيم والقوانين موضع شك ، بل موضع احتقار في بعض الأحيان ، وسوغ لكل منحرف أن يفلسف أخطاءه ، ويبرر انحرافاته ، وهذا مما يخلق جوا من العداوات ، وعدم الاستقرار في الحقوق والواجبات ، ويجعل تحقيق العدالة أو العدل مستحيلاً ، بل يجعلها شيئا نسبيا ومشكوكا فيه ، وهذا ينتج من اضطراب أصحاب هذه المذاهب وسيطرة موجات من الحقد أو الرواسب النفسية والتاريخية عليهم وبدلا من أن يعالج أمثال هؤلاء وأن تضمهم مصحات ، خرجوا على الناس بفكر يعتنقه الناس ويطلب منهم احترامه وتعظيم أصحابه والاقتداء بهم

وتخليد ذكرهم ليصدق عليهم المثل القائل : « خذوا الحكمة من أفواه المجانين » .

● **التفسير الجنسي** : وبطله « فرويد » :

يصور الإنسان بصورة يتقزز منها الحيوانات وينفر منها العجماوات ، وتستنكرها البهائم فهو لا يكتفي بجعل الإنسان حيواناً يأكل بلـذة الأكل ويشرب بلـذة الشرب ، ويجرى بلذة الجرى ويمارس الجنس بلذة الجنس ، ولكنه يصور الإنسان حيوانا ممسوخا محتقرا مرذولا ، فيجعل الجنس هو قوام حياته صغيرا وشابا وكهلا .

فهو طفل يرضع بلذة الجنس ، ويبول ويتبرز بلذة الجنس ، ثم هو شاب وكهل تكون تصرفاته كلها مبنية على الجنس بل كيانه المعنوى يسيره الجنس . فأخلاقه وتقاليده ودياناته واعتقاداته كلها تسيرها وتتحكم فيها لذة الجنس . وكأنه لا شيء في الحياة سوى سعار الجنس .

والواضح من تلك الأفكار أنه يريد أن يحول الجنس البشرى كله إلى حيوانات منحطة ويجعله يسير في طريق الدمار حسب خطه مرسومة حتى يفقد الإنسان قيمته كإنسان فتستطيع قوى معينة جره بسلاسل العبودية والقهر حيث تريد .

● **التفسير الجسماني للمشاعر** : وبطله التجريبيون وعلى رأسهم « وليم جيمس » :

وهؤلاء يرجعون كل قيمة وكل اعتدال مزاج أو انحطاطه وكل مشاعر أو أفكار إلى الأنشطة العضوية لجسم الإنسان :

فغدد الجنس تصنع مشاعر الجنس وميوله .
وغدد الأمومة وهرموناتها تصنع الحنان .
وغدد الكظر تصنع الشجاعة أو الجبن .
والغدد الدرقية تصنع المزاج عصبيا كان أو غيره .

وهكذا فالإنسان جسم حيواني يشكله الطعام ويخلق فيه مشاعر وقيم وأحاسيس معينة تسيره وتتحكم فيه عواطفه ، يقـول « وليم جيـمس » في كتابـه « نظريـة العاطفـة » : « إن الفكـرة التـي تتخذهـا العواطـف عادة هي أن الإدراك العـقلي لشيء ما يستـثير الحالـة الوجدانية التي نسميها العاطفة وأن هذه الحالة العاطفية الأخيرة هي التـي يتولـد عنها التعـبير

الجسدى ولكن نظريتي على العكس من ذلك وهي أن التغيرات الجسيمة تأتي لاحقة مباشرة لإدراك المؤثر . وأن الإحساس الذى نشعر به نتيجة لهذه التبغيرات « الجسيمة » هو العاطفة ، فمن الجسم إذن تنبع النفس . وليست النفس أصلا جوهريا في كيان الإنسان » [1] .

وهكذا نجد أن كل هذه التفسيرات تجنح إلى جعل الإنسان حيوانا فتكلمه عن مشاعره الحيوانية وعن بطنه وعن شهوته وعن أعضائه وغدده ، ثم تهمل بقية ملكاته وأفكاره ، وتتناسى الجانب الروحي والإنساني الذى هو قوام الإنسان ، والذى هو به إنسان يتميز به عن سائر المخلوقات .

---

(١) جاهلية القرن العشرين ص ٩٨ ، ٩٩ .

الفصل الثالث
الانحراف وعلاجه

المبحث الأول
انحراف الاتجاه العلمي

لا شك أن خيالات الاكتشافات العلمية وتأثيراتها والخلفية الحضارية للمجتمعات الغربية والعالمية لها دخل كبير جدا في تشكيل الفكر العلمي لتلك المجتمعات .

ونستطيع أن نُلمح إلى شيء من هذه النتائج لتلك الانحرافات فيما يلي :

١ ـــ الافتتان الهائج بالمادة والجهل التام بالنفس الإنسانية وتحول الجهود والأفكار والحواس والغرائز لخدمتها .

٢ ـــ استعمال العلم في إشباع الغرائز الحيوانية والضغط على القيم الروحية ومحاولة إزهاقها والسخرية منها أو وضعها في المتاحف ، فانفصل العلم بذلك عن القيم والأحاسيس والمشاعر الإنسانية .

٣ ـــ توجيه العلم نحو الهلاك واستعباد الإنسان وقهره لحساب شهوات الأقوياء .

٤ ـــ سير الاتجاه العلمي بدون هدف ولا غاية ولا عطاء ، فهو إذن كالمارد الذى انطلق من عقاله يدمر في طريقه كل شيء ويقضي على السعادة والاستقرار الإنساني باسم المدنية والحضارة .

٥ ـــ أسلم العلم قياده للشيطان يمسك بزمام الأمور ويوجه المنهج العلمي ، فليس لدى العالم اليوم دساتير ربانية أو قوى إيمانية تمسك بزمام هذا التقدم العلمي والفكرى .

ولقد أحس بهذا الانحراف وقدر أخطاره على البشرية ثلة من الباحثين والمفكرين الغربيين . فرفعوا أصواتهم منذرين محذرين من هذا الخطر الزاحف .

يقول « ألكسيس كاريل » في كتابه « الإنسان ذلك المجهول » (1) : « يجب أن يكـون الإنسان مقياسا لكل شيء ولكن الواقع عكس ذلك فهو غريب في العالم الذى ابتدعه إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه لأنه لا يملك معرفة علمية بطبيعته ، ومن ثم فإن التقدم الهائل الذى أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة ، هو إحدى الكوارث التي عانت منها الإنسانية ، فالبيئة التي ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة لقوامنا ولا بالنسبة لهيئتنا . إننا قوم تعساء لأننا ننحط أخلاقيا وعقليا ...... إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هي على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة في الضعف . والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها ، ولكنها لا تدرك ذلك . إذ ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية التي شيدها العالم حولها . وحقيقة الأمر أن مدنيتنا مثل المدنيات ــ التي سبقتها ــ أوجدت أحوالا معينة للحياة . من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحيلة وذلك لأسباب لا تزال غامضة » .

ثم يقول الدكتور « كاريل » : « إن الحضارة العصريـة تجد نفسهـا في موقـف صعب لأنها لا تلائمنا فقد أنشئت دون معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية ، وشهوات الناس وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم ، وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا .... »(2) .

ثم يبين الدكتور « كاريل » ضرر هذه الحضارة على الإنسان ويتكلم عن المآسي والكـوارث التي فعلها الإنسان بنفسه وتسبب فيها بفعله فيقول : « ومن العجيب أن الأمراض العقلية ــ في تلك المجتمعات المتحضرة ــ أكثر عددا من جميع الأمراض الأخرى مجتمعة ، ولهذا فإن مستشفيات المجاذيب تعج بنزلائها وتعجز عن استقبال جميع الذين يجب حجزهـم .... وفي الولايات المتحدة عناية لعدد من ضعاف العقول يعادل أكثر من ثمانية أمثال المصدورين ، ففي كل عام يدخل مصحات الأمراض العقلية وما يماثلها من المؤسسات حوالي ستة وثمانين ألف حالة جديدة . فإذا استمر عدد المجانين في السير على هذا المعـدل ، فإن حوالي مليونـا من الأطفـال والشبـان الذيـن يذهبـــون الآن إلى المدارس والكليات سوف يدخلون إلى المصحات عاجلا أو آجلا .

---

(1) ص ٤٣ ــ ٤٤ . ط دار المعارف ببيروت .

(2) مرجع سابق ص ٣٨ .

ففي عام ١٩٣٢ كان عدد المجانين المودعين بالمستشفيات الحكومية ... ٣٤٠ر مجنون كما كان عدد ضعاف العقول والمصروعين المحجوزين في المصحات الخاصة ٥٨٠ ر٨١ وكان عدد مطلقي السراح بشرط كفالة أو كلمة شرف من ضعاف العقول ٩٣٠ ر١٠ ولا تشتمل هذه الإحصاءات الحالات العقلية التي تعالج في المستشفيات الخاصة ، وعلاوة على المجانين يوجد في البلاد كلها ٠٠٠ ر٥٠٠ شخص ضعاف عقول ولقد كشف الفحص الذى تولته اللجنة الوطنية للصحة العقلية بعناية ، عن أن ٠٠٠ ر٤٠٠ طفل على الأقل على مستوى منخفض من الذكاء إلى درجة أنهم لا يستطيعون الاستمرار في المدارس العامة ، والإفادة مما يتلقون من علم .. وحقيقة الأمر أن عدد الأفراد الذين انحطوا عقليا أكثر من ذلك بكثير . ويقدر أن عدة مئات من الألوف لم تشملهم الإحصاءات الرسمية مصابون باضطرابات نفسية ، وتدل هذه الإحصاءات والأرقام على مدى استعداد الرجل المتحضر للعطب ، وكيف أن مشكلة الصحة العقلية تعتبر من أهم المشاكل التي يواجهها المجتمع العصرى : فإن أمراض العقل خطر داهم : إنها أكثر خطورة من السل والسرطان وأمراض القلب والكلى . بل والتيفود والطاعون والكوليرا . فيجب أن يحسب للأمراض العقلية حسابها ، لا لأنها تزيد عدد المجرمين فحسب ، بل لأنها ستضعف حتما التفوق الذى يتمتع به الأجناس البيضاء حاليا . ولا شك أن كثرة عدد مرضى الأعصاب والنفوس دليل حاسم على النقص الخطر الذى تعاني منه المدنية العصرية ، وعلى أن عادات الحياة الجديدة لم تؤد مطلقا تحسين صحتنا العقلية »[1] .

ثم يأتي دور الانحلال والشذوذ الجنسي وضياع الرجولة والشرف وفقدان معاني القيم وعدم القدرة على تحمل المسئولية : فنرى في ذلك مايلي :

قرر « كينـدي » في تصريحه الخطير سنة ١٩٦٢ أن مستقبل أمريكا في خطر لأن شبابها منحل غارق في الشهوات ، لا يقدر المسئولية الملقاة على عاتقه ، وأنه من بين كل سبعة شبان يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين ، لأن الشهوات التي غرقوا فيها أفسدت لياقتهم الطبية والنفسية .

وحدث ماهو أخطر وأبشع من ذلك ، اضطرت وزارة الخارجية الأمريكية إلى فصل ٣٣ موظفا من موظفيها لأنهم مصابون بالشذوذ الجنسي ولأنهم ـــ بهذه الصفة ـــ غير

---

(١) مرجع سابق ص ١٨٧ ، ١٨٨ .

مؤتمنين على أسرار الدولة .

ثم يأتي دور إنجلترا .. وقضية « بروفيمو » .. وتعريض أسرار الدولة العسكرية للخطر لقاء لذة فاجرة يقضيها وزير الحرب مع إحدى العاهرات ..

ثم يأتي دور روسيا :

ـــ فيصرح « خروشوف » سنة ١٩٦٢ ـــ كما صرح « كينـدي » ـــ بأن مستقبـل روسيـا في خطـر وأن شبـاب روسيـا لا يؤتمن على مستقبلهـا لأنـه مائـــع منحـــل غارق في الشهوات .

ثم يأتي دور العالم كله ودور الشباب الشارد الذى يدخن الحشيش والأفيون وينفق طاقاته الحية في هذا الخبل والجنون والعصابات التي تتألف للخطف والقتل والاغتصاب الجنسي .... تقلق أمن الدولة وتقلق علماء الاجتماع[1] .

وهل هناك خطـر أفظع من ذلك وأشد وأمر على الجنس البشرى وعلى من يدعون الحضارة والمدنية ، من هذه الأمراض الفتاكة التي أخذت تحصد الناس بغير رحمة ولا شفقة . حيث يسرى في هذا الزمان مرض الإيدز والهربس والسرطان وغيرها من الأمراض المعدية والفتاكة . فبعد أن تأكد المتحضرون في البلدان الغربية بما لا يدع مجالا للشك بأن مرض الإيـدز القاتـل إنما هو الثمـرة القبيحـة السامـة للانغمـاس في الرذائـل باسم الحضارة والرقي ، أخذوا يشنون حملات ضد الشذوذ والبغاء .

مجتمعات الرذيلة تدعو إلى الشرف:

أخذ الغرب المنغمس في الرذيلة يدعو إلى الفضيلة ويشن حملة شعواء على الرذيلة كأفضل حل للخروج من دائرةُ الـفساد الحاليـة التـي توصل إلى الإيـدز وغيره من الأمـراض القبيحة ، وقد أصبح ممارسو الشذوذ يقاطعون من قبل الآخرين . على أساس أنهم أصل البلاء الذى يفتك بآلاف الناس في مناطق العالم وبشكل رئيسي في العالم الذى يدعي الحضارة .

الحضارة الزائفة هي السبب :

يقول العلماء من الأطباء : الشيء المذهل هو أن إساءة استخدام التقدم الحضارى ،

(١) جاهلية القرن العشرين ص ١٩٧ ، ١٩٨.

بل بعبارة أوضح الانغماس في الرذائل باسم الحضارة الغربي أدى إلى خلق مصائب وويلات لا للإنسان الذى يعيش في تلك المناطق الحضارية فقط وإنما لغيره من بني البشر في شتى بقاع المعمورة .

فقد دفعت الحضارة الزائفة الكثير من الغربيين إلى الإباحية والانغماس في ممارسة الرذيلة من بغاء ولواط من قمة الرأس حتى أخمص القدم مع اعتبار أن هذا المنهج ليس إلا دربا من دروب الحضارة والتقدم على حد زعمهم . وقد أتى هذا الانفتاح الحضارى القبيح أكله الخبيثة التي تمثلت في ظهور ما وصف من قبل الأوساط الصحية الأمريكية والغربية بأنه أسوأ كارثة بشرية تواجه الإنسان ألا وهو مرض الإيدز وغيره من الأمراض الفتاكة التي لايوجد لها علاج : وهذا معناه أن ذلك هو حصيلة الممارسات الحضارية الزائفة ، والثمرة الخبيثة لها ونتيجة لضربهم بالفضيلة والمثل والأخلاق عرض الحائط واستبدالها بلباس السوء والرذيلة البهيمية تحت ستار التحرر الحضارى الخادع .

وفجأة انقلبت الأمور رأساً على عقب ، وتحولت ثمرة الرذيلة إلى سهام قاتلة توجه إلى قلوب المنغمسين في بحرها لتمزقها لا محالة ، وتذيقهم مرارة ممارستهم الشاذة التي أوصلتهم إلى الدرك الأسفل من الانحطاط .

أقوال الغربيين في هذا الفساد :

ـــ يقول الدكتور « وولتر داودل » : « يجب علينا أن نعلم بأن الوضع يحتم علينا تغيير طريقة حياتنا » .

يقول الدكتور « وارد كيتس » الذى يعمل في مكافحة مرض الإيدز بأمريكا : « أسوأ ما عرفته الإنسانية وهو دليل على عنفوان التحول في المنهج الخلقي » .

ـــ يقول السيد « فخرى أسعد » مدير دائرة الأمراض السارية بمنظمة الصحة العالمية : « الناس قد أخذوا في تغيير حياتهم الجنسية إلى الأطهر بسبب هذه الأوبئة » .

ـــ يقول الدكتور « بروس وايت » السكرتير العام لفريق العمل الحكومي لمكافحة الإيدز باستراليا : « إن الاستراليين الذين أصيبوا بالمرض طردوا من منازلهم ووظائفهم وهذا يعكس مدى نقمة الناس عليهم ونفورهم منهم » .

ـــ ويقول البروفسور الفرنسي « جورج ماتيه » : « إن الحرية هي السبب في

الإصابة بالإيدز والهربس والسرطان ... » ثم يقول : « إننا نتعرض لموجة من التقدمية الفاجعة » ثم يقول : « إنها هي عقوبة السماء لنا على تمردنا وتحللنا على العلاقات الشرعية خارج عقود الزواج أو خارج مؤسساته »

إلى العلاج من هذا الوباء :

يقدم البروفسور الفرنسي « جورج ماتيه » العلاج لهذه المشاكل الماحقة فيقول : « لقد قمت ببحوث عدة وتجارب مختلفة أظهرت كلها بغير شك أو تردد أن الإصابة بالهربس عائدة إلى الاتصال الجنسي غير الشرعي ، لأن الهربس عائلة تتشكل من ثلاث أنواع من الفيروس . إن تعدد الاتصال : امرأة بأكثر من رجل ـــ أو رجل بأكثر من امرأة ـــ تتردد على الرجال يسمح باكتمال هذه العائلة وبالتالي تظهر الإصابة . لقد قمت لأجل أبحاثي بزيارة لليابان والولايات المتحدة ولدول حوض البحر المتوسط فرأيت أن البلدان التى تتشبث بتقاليد الزواج كسبيل للاتصال الجنسي القويم هي البلدان النظيفة . أما البلدان المتمتعة بالحرية الجنسية فقد اكتشفت تقدم الإصابات بشكل مخيف .

ثم أقول : بعد كل أبحاثي اتضح أن الحرية الجنسية التي تعصف بأوساط المراهقين في المجتمعات الغربية هي سبب الكارثة وأساس كل هذا التناسى الرهيب للأمراض القاتلة .

وأنه لابد من العودة إلى الأصول أى إلى جعل الزواج هو المؤسسة الوحيدة التي يمكن بواسطتها ضمان علاقات جنسية نظيفة ومثمرة بلا أمراض .. » .

ثم قال : « لابد من ترك الفجور : لأن هذه الأمراض المستعصية التي أصبحت تفتك بالحياة وبالكثيرين على وجه الأرض من البشر ، تداهم البلدان الصناعية التي تنتشر فيها المخدرات والخمرّ الذى هو رأس الكبائر ، والشذوذ الجنسي الذى يعتبر في مقدمة الأسباب التي تؤدى إلى الإصابة بأمراض فقدان المناعة » [1] .

وهذه بلا شك انتكاسة مروعة للحضارة الزائفة وسقوط هائل لتلك الأمم التي تأخذ بها اليوم ، وهذا مما لفت الأنظار وقرع نواقيس الخطر وأطلق ألسنة العلماء بالتحذير والتخويف من هذا الانهيار وهذا التولي .

---

(١) انظر : جريدة السياسة الكويتية لملحق السبت ٢٥ / ١ / ١٩٨٦ م ، الأنباء الملحق ١٣ / ١١ / ١٩٨٥ م والأنباء الكويتية ٢ / ١٢ / ١٩٨٥ م والرأى العام الكويتية ٢١ / ٢ / ١٩٨٦ م .

ـــ الفيلسوف الإنجليزى المعاصر « برتراند رسل » : « لقد انتهى دور الرجل الأبيض وبقاء تلك السيادة إلى الأبد ليس قانونا من قوانين الطبيعة ، واعتقد أن الرجل الأبيض لن يلقى أياما رضية كتلك التي لقيها خلال أربعة قرون »[1] .

ـــ ويقول « مستر دلاس » وزير خارجية الولايات المتحدة : يحذر العالم الغربي من المادة ومن المذاهب المادية والشيوعية ، في كتابه « حرب أم سلام » في فصل بعنوان « حاجاتنا الروحية » يقول : « إن هناك شيئا ما يسير بشكل خاطيء في أمتنا وإلا ما أصبحنا في هذا الحرج وفي هذه الحالة النفسية .. إنه لايجدر بنا أن نأخذ موقفا دفاعيا . وأن يتملكنا الذعر .. إن ذلك أمر جديد في تاريخنا ، إن الأمر لايتعلق بالماديات فلدينا أعظم إنتاج عالمي في الأشياء المادية ، إن ما ينقصنا هو إيمان صحيح قوى . فبدونه يكون كل ما لدينا قليلا . وهذا النقص لا يعوضه السياسيون مهما بلغت قدرتهم أو الدبلوماسيون مهما كانت فطنتهم ، أو العلماء مهما كثرت اختراعاتهم ، أو القنابل مهما بلغت قوتها .

فمتى شعر الإنسان بالحاجة إلى الاعتماد على الأشياء المادية فإن النتائج السيئة تصبح أمرا حتميا وفي بلادنا لا تجتذب نظمنا الإخلاص الروحي اللازم للدفاع عنها وهناك حيرة في عقول الناس ، وتآكل لأرواحهم يجعل أمتنا معرضة للتغلغل المعادى ـــ كما كشف عنه نشاط الجواسيس الذين تم كشفهم حتى الآن . ولن تستطيع أى إدارة لمكافحة التجسس أن تقوم بحمايتنا في هذه الظروف » . ثم يقول : « كذلك فإن لدينا نماذج معروفة : فالرجال الذين ليس لديهم إحساس بالواجب إزاء كائن أعلى يجاهدون لتحقيق إرادته لأن إيمانهم يمنحهم القوة والفضيلة والحكمة المبسطة ... إنهم لايبنون ليومهم فقط بل للغد ، وليس لأنفسهم وحدهم ، وإنما للجنس البشرى . ومجتمع هذا أساسه ستكون نتائجه الثروة والرفاهية للكثيرين إذا ساعدتهم الأحوال ...

وعندما تأتي هذه المنتجات الفرعية فإنها تكون طيبة إلى درجة أنها تشجع على الاعتقاد بأنها النهاية المرتقبة وبذا سيبتعد الناس عن بذل الجهود الإنشائية للأجل الطويل ، ويبدأ الصراع من أجل الحصول على الأشياء المادية » .

ثم يقول : « إن علينا أن نغير كل ذلك . إننا نستطيع ـــ بل يجب ـــ أن نرفض كلية النظرية الماركسية القائلة : إن الأشياء المادية لها الأولوية والروحية تابعة لها . إن العبودية

---

(١) المستقبل لهذا الدين ص ٥٥ .

والاستبداد لايمكن أن يكونا صوابا ، حتى ولو بصفة استثنائية . ويجب ألا نخشى وضع الإيمان في مرتبة الصدارة بالنسبة لحرية الإنسانية والتحرر ، وأن نتمسك بالرأى الدينى القائل : إن الله خلق الإنسان ليكون أكثر من منتج مادى ، وإن غايته النهائية شيء آخر غير الأمن الجسماني . يجب أن نؤمن بأنه يجب تحرير الناس في كل مكان من التضييق الروحي والعقلي والاقتصادى المتزايد ، بحجة أن ذلك سينمي الرفاهية الاقتصادية للمجتمع الذى ينتمون إليه » .

ثم يقول : « إن القوة المادية الكبيرة خطرة في عصر المادية فقط ، وليس في عصر روحي ، والمعرفة العلمية الجديدة خطرة اليوم لأنها حدثت في وقت قد أخفقت فيه الزعامة الروحية أن توضح الصلة بين العقيدة والعمل . ولعله يكون أكثر أهمية لو أن العبادة الروحية تطورت بدلا من محاولة وقف التقدم العلمي أو الرجوع به القهقرى » .

ـ هذا ولقد كتب الرئيس « ولسن » قبل وفاته بأسابيع قليلة مقالا استعرض فيه تهديد المبادىء الثورية وأعمال الشيوعية ، وختمه بقوله : « إن اختصار المسألة بأسرها هو مايلى : إن حضارتنا لاتستطيع الاستمرار في البقاء من الناحية المادية إلا إذا استردت روحانياتها ...

هذا هو التحدى النهائي لكنائسنا ومنظماتنا السياسية وللرأسماليين عندنا ولكل فرد يخاف الله ، أو يحب بلده »[1] .

لقد أدرك الغرور العقل البشرى اليوم في الحضارة الحديثة فوهم كثيرا وذهب به الوهم بعيدا جدا ، فظن وهو يبتدع الطائرات والصواريخ ويحطم الذرة ويخترع القنبلة الأيدروجينية ويطور الآلات ويصنع السيارات ، أنه يستطيع أن يضع نظاما للحياة البشرية وقواعد التصور والاعتقاد وأسس الأخلاق والسلوك ، ناسيا أو متناسيا أنه حين يعمل في عالم المادة فإنه يعمل في عالم سخره الله له وأطلعه على سره وأمره بالبحث فيه وكشف أسراره التى يسرها الله له ، أما حين يعمل فى عالم الإنسان فهو يعمل في مجال لا علم له به ولم ييسر له لأنه صنعة الله سبحانه . فهو مأمور بأخذه عن ربه سبحانه : ﴿ **فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة**

(١) انظر فى ذلك المستقبل لهذا الدين صـ ٨٢ ومابعدها .

ضنكا ﴾[1] .

الروحانية العلمية :

لقد أدرك « برتراند راسل » والدكتور « كاريل » ، والمستر « دالاس » ، والرئيس « ولسن » وغيرهم أن المادية بدون الروحانية دمار وخراب ولا بقاء لها . ولكنهم يعرفون خلفياتهم الدينية المحرفة أن الدين والعلم الحديث أعداء ، فهم قد قرؤوا عن المسيحية وصراعها الطويل مع العلم والعلماء ، ويريدون أن تطور الكنيسة من نظرتها العلمية ، ليعيش العلم في كنف الروح وهذا في الحقيقة وهم كنسى في الدين المحرف جاء الإسلام وأظهر عواره وفتح العيون وأطلق الأفكار فكانت النهضة العارمة التي عرفها العالم .

والحقيقة التي لا مراء فيها : أن الأمر في المنهج الإلهي الصحيح ليس على هذا النظام الكنسي المحرف ، فالدين ليس بديلا من العلم والحضارة ولا عدوا للعلم والحضارة ، وإنما إطار للعلم والحضارة ، ومحور لهما ومنهج يسار عليه حتى لا ينحرف العلم أو تفسد الحضارة ويشقى الإنسان ويحتار كما نلاحظ في هذه الشقوة الآن .

والإسلام بالذات ـــ هو الإعلان الشامل لحرية العقل البشرى تجاه الكون المادى ، وقوانينه وقواه ، ومدخراته وصدق الله : ﴿ **هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور** ﴾[2] .

والإسلام اليوم هو المرشح لهذا المنصب ، منصب القيم على الحضارة والفكر والحياة . فهل من مجيب وصدق الله : ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾[3] . وحين يعلم العالم ذلك ، سيتضح شناعة الجريمة التي يرتكبها اليوم كل من يوجهون الضربات الوحشية إليه وإلى رجاله ، ويجندون قواهم المسعورة لتشويه معالمه وتعاليمه ومواراته عن أعين الناس المتشوقة إلى الإنقاذ والاستقرار .

الحل أو الخروج من الأزمة :

لاشك أن الدمار الروحي والنفسي سيؤدى في النهاية إلى إهلاك القوى الفاعلة وشل القدرات العقلية المستقيمة أو المبدعة .

ولاشك كذلك أن المضاربات الذهنية والعقائدية التي أنتجها العقل البشرى المريض

---

(١) طه / ١٢٣ ـــ ١٢٤ .   (٢) الملك / ١٥ .   (٣) فصلت / ٥٣ .

هي أخطر ماقدمه العقل البشرى للإنسان في القرن العشرين .

ويضاعف من هذا الخطر تكنولوجيا العصر وقدراتها على التأثير والنشر والبلاغ ، مما يتطلب للوقاية من هذه السموم قدرات فكرية خارقة وحصانة عقائدية ونفسية وعلمية هائلة حتى تستطيع الثبات أمام هذه الأعاصير التدميرية الهوجاء وإلا كان الدمار الذى لا دمار بعده ، أو الرفض والتمرد .

ولا جدال في أن الأزمان القادمة والأجيال اللاحقة ستشهد كثيرا من هذه الصراعات المختلفة .

البداية وليست النهاية :

إن عوامل الخداع وبرمجة الأهواء ومذهبيتها التي يقوم بها الغرب اليوم ومن يدور في فلكه ليست مجدية ولا تؤدى في النهاية إلى مطاف سليم أو غاية حميدة لأنهم يضاربون على شيء لا يملكونه بالتأكيد ، فالطبيعة الإنسانية لا شك براء من هذا كله وهي تتنافر معه ولاتجدى في جرها إليه خيوط العنكبوت وقد بدأت بوادر هذا الهروب وبشائر هذا التفلت .

ونسمع مايقوله أحد العلماء الأجلاء مؤيدا كلامه بالوقائع الملموسة :

« لا شك أن هناك عقولا كثيرة ــ في الغرب الرافض ــ متمردة ثائرة ــ خلاقة مبتكرة ، وهي أيضا حائرة تبحث عن الإنقاذ .. وهي إما أن تنفجر أو تتجه إلى منقذ ، وبعبارة أخرى ، إما تنهض بمأساة أو بإنقاذ « عارودى » .

مأساة « والتوسير » :

« والتوسير » هذا هو أحد عمالقة الفلسفة المادية فتل زوجته وهي نائمة إلى جنبه ضجرا ويأسا وإفلاسا .

أما « جارودي » الفيلسوف الفرنسي المعروف الذى أسلم : فكان على علم بخلقيات الحضارة الغربية وشعر بالعد التنازلي والانكسار لها فوجد في الإسلام الإنقاذ للعقل الحائر .

ونحن نراها لكثيرين من الغاوورديات ، أو العقول المتمردة في السنوات القادمة .

هذه حقيقة ولذلك فإن الإسلام سيكون سلوكا كونيا .. ليس لقطيع من الخراف . وإنما لعقول متمردة ، عقول تبحث عن المصداقية . ومن هنا سيكون له دور خطير في المستقبل وهو ــ كما أكرر دائما ــ لن يتصدر في الكون في القرن الحادى والعشرين ولن

يدخل إلى الساحة العالمية كقدرة تطور جديدة يملي مزيدا من التطور في التكنولوجيا والصواريخ والأقمار الصناعية والقنابل النووية وغير ذلك فحسب وإنما سيدخل قدرة خلاقة قادرة على الإنقاذ [1] .

نهاية « سارتر » وإفلاسه :

ولا شك كذلك أن الروحانية وأن فطرة التدين هي أساس متين لراحة الملكات والنفوس .

يقول « دور كايم » الفيلسوف الملحد : « إن وراء كل فلسفة دينا ، ولا يمكن تصور فلسفة لا ترتكز على دين ـــ فالدين هو الذى دفع إلى التأمل وأيقظ الحكماء وأشعل الرؤية الفلسفية في القلوب » .

وعلى هذا فالذين اقتحموا الساحات بدون نفوس قوية ما لبثوا أن فقدوا توازنهم النفسي .

فهناك كثير من العقول الكبيرة ، التي حاولت أن تقحم نفسها في بعض الساحات مدعية أن لها القدرة على كشف المجهول وتطويع الإنسانية إلى ظنون وفنون من المذاهب المصطنعة ، قد آبت بعد طول طواف وكثير من الجهد وعميق من الجراح ، وعادت بخفي حنين ولتسمع ما يقوله « جان بول سارتر » عند موته في كلمة قالها وهو يحتضر نشرتها صحف « الأكسبرس » و « الأبزرفاتور » باللغة الفرنسية : عندما قال له محرر الأكسبرس « أراك حزينا أين نحن من فلسفة التمرد والعبث والغثيان ؟ » فرد عليه قائلا : « قادتني فلسفتي في النهاية إلى الهزيمة النكراء ، ائتوني بقس » [2] .

ويذكرني ذلك بقولة الدكتور طه حسين قبل وفاته عن سؤاله عن الشيء الذى يحب أن يقرأ فيه ويكون له أنيسا ؟ قال : « القرآن الكريم » .

ويذكرني ذلك بقول الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله :

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا قيل وقالوا

---

(١) الدكتور رشدى فكار ـــ مجلة الأمة القطرية العدد ٦٧ ص ٤٢ رجب ١٤٠٦ هـ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٤ .

وكم قد رأينا رجالا ودولة　　　فبادوا جميعا مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها　　　رجال فزالوا والجبال جبال[1]

وهكذا ، فمهما شرد العقل الإنساني وحاول أن يأخذ مسارا آخر لا بد وأن يعود ، ولهذا نرى القرآن الكريم بعد أن يقول : ﴿ **علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ يقول : ﴿ **كلا إن الإنسان ليطغى** ﴾ فيرجعه سريعا إلى الحقيقة التي لا بد أن ينتبه إليها : ﴿ **إن إلى ربك الرجعى** ﴾ [2] وهنا لابد من إدراك الحقيقة .

---

(١) مقدمة تفسير الفخر الرازى الجزء الأول ط دار الكتب العلمية .

(٢) العلق / ٥ ، ٦ ، ٨ على الترتيب .

الباب الثانى

عطاء المسلمين للبشرية

الفصل الأول : الهوية الإنسانية .

الفصل الثانى : المنهج الصحيح للحياة الدنيا والحياة الآخرة .

الفصل الثالث : الأدوية للعلل البشرية .

الفصل الرابع : الغايات والأشواق الصحيحة للبشرية .

الفصل الأول

الهوية الإنسانية

أما عن إعطاء الإسلام للإنسان هويته فنجده في قوله تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾[1] . ﴿ **ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾[2] . ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾[3] .

فليس هذا الإنسان عبدا مهينا وليس إلهاً حكيما أو ربا رحيما أو معبوداً عظيما ، أو جبارا عنيدا ، وإنما هو من خلق الله في هذا الكون المترامي ، وفي هذا الزمان السحيق ، كرمه الله على كثير من خلقه وشرفه بالعقل والنطق وحمل الأمانة ، وجعل الناس كلهم إخوة ، ولهذا برز المجتمع المسلم من أول يوم خاليا من الاستعباد ، لا فرق بين صهيب الرومي وبين عمر بن الخطاب القرشي ، ولا بين بلال الحبشي وسعد بن معاذ الأنصاري ، وظهر التواضع المطلق ، وظهرت العبودية لله سبحانه ، في حين نبذ المسلم كل شكل من أشكال الذل والمسكنة للعبيد ، واعتز اعتزازا كبيرا بذاته المتصلة بالله سبحانه وتعالى ، ولم تحكمه أى قيمة أرضية أو تتعالى عليه أى حقيقة مادية فهو سيد هذه الحقائق والمتصرف حسب منهج ربه ، أما غيره فهو عبد دائما لشهوته أو لمنفعته .

ــ يقول « جون جيينتز » : « إن الإنجليز يعبدون بنك إنجلترا ستة أيام في الأسبوع

---

(١) المؤمنون / ١٢ ــ ١٤ .
(٢) الإسراء / ٧٠ .
(٣) الحجرات / ١٣ .

ويتوجهون في اليوم السابع إلى الكنيسة » . ثم يقول : « إنه لا يزال سائدا في عقلية إنجلترا منذ قرون شره المال والتملك »(١) .

ــ ويرى « هيمون » : « أن الحرية هي سيطرة الإنسان على نفسه ، وهذا يكون بعمل العقل المفكر والإرادة ضد الشهوة والهوى .

ــ ويقول « أبيكتتوس » الفيلسوف الرواقي المعروف : « إن على من يريد أن يكون حرا ألا يخاف أو يرجو شيئا يملكه غيره ، وإلا فلن يكون حتما إلا رقيقا »(٢) .

وإذا أراد المسلم أن يرى مصدر هذه الأقوال فلينظر إلى قول الرسول ﷺ : « ليس الغنى كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس »(٣) . وقال ﷺ: « لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه »(٤) . وقال ﷺ : « اليد العليا خير من اليد السفلى »(٥) . وقال ﷺ : « من يكفل لي أن لا يسأل الناس شيئا وأتكفل له الجنة » فقال ثوبان : أنا ، فكان لا يسأل أحدا شيئا(٦) .

إذن فالإنسان المسلم يحارب العبودية في نفسه وفي مجتمعه ، ويحارب كذلك الطغيان النفسي والعلني في الذات وفي الغير . فيكون بما حمله الله من أمانة في جانب الحق فارسا مدافعاً ولهذا كان للفروسية عند المسلمين شروط إنسانية لا شيطانية .

يقول « جوستاف لوبون » في حضارة العرب : « كان للفروسية الإسلامية عشرة شروط : الصلاح ، والكرامة ، ورقة الشمائل ، والقريحة الشعرية ، والفصاحة ، والقوة والمهارة في ركوب الخيل ، والقدرة على استعمال السيف والرمح والنشاب » ، ثم يواصل « غوستاف » تأييد كلامه بالحجة فيقول : « ونرى تاريخ المسلمين في إسبانيا حافلا بالأنباء الدالة على ذلك ، وعلى كثرة انتشار تلك الخصال ، ومن ذلك أن والي قرطبة لما حاصر في سنة ١٣١٩ مدينة طليطلة التي كانت في يد النصارى أرسلت إليه الملكة

---

(١) شبهات التغريب . أنور الجندى ص ٢١٢ .

(٢) الإسلام وحاجة الإنسانية إليه . الدكتور يوسف موسى ص ٤٥ .

(٣) مسلم ٣ / ١٠٠ ، والمختصر رقم ٥٦٣ ورواه البخاري ١١ / ٣٣١ ، ٣٣٢ .

(٤) البخاري ومسلم والترمذي ، البخارى ٣ / ٢٦٥ ، ومسلم رقم ١٠٤٢ .

(٥) أخرجه البخارى .

(٦) أخرجه أبو داود رقم ١٦٤٣ ، والنسائي ٥ / ٩٦ .

(بيرانجير) التي كانت فيها رسولا ، أبلغه أنه ليس من المروءة والكرم أن يحاصر فارس بطل امرأة فارتد الفارس المسلم من فوره مجيبا الملكة .

وكان الأمر مختلفا بالنسبة للنصارى . فلم يكن ذلك البطل الشهير الذى تغنى به الشعراء كثيرا (رود ياك الفيفارى) سوى رئيس عصابة ، تارة يبيع نفسه من العرب ، وتارة يبيعها من النصارى ، لما دخل مدينة (بلنسية) صلحا إذ به يعذب أهلها بالنار ولم يعف حاكمها الهرم الذى وضعه على النار حتى يكرهه على كشف مايظن وجوده في القصر من كنوز . ولهذا يقول فيه المسيو (فياردو) : إن ذلك الفارس الشهير الذى يدعون له البطولة لم يكن سوى رئيس عصابة من المرتزقة قاسيا جشعا حقودا شديدا في قوله وعمله جلفا ، مستخفا بالعدالة والإنصاف قاطع طريق لايتمتع بشيء من الخلق ، ولا يعرف العهود والمواثيق حتى إنه أطعم الكلاب بعض الأسرى الذين صدقوه واستسلموا له ، لا يعرف الرحمة حتى أنه كان يتآمر على إخوته ، ويحرق بالنار ويمزق الأجساد » .

ثم يقول : « يقولون إن الدين يهذب الطبائع ولم نر في الحقيقة أثرا لهذا الأمر بل شاهدنا العكس ، حتى جاء المسلمون بتعاليم عملية أدت إلى إصلاح الطبائع أكثر من كل التعاليم الدينية والإنسانية التي كانت حبرا على ورق أو ترانيم عقيمة »[1] .

وإذا تركنا ذلك ويممنا وجهنا نحو أى من شعوب الأرض المتقدمة قبل الإسلام وجدنا امتهانا عجيبا لإنسانية الإنسان ، وتجبرا فريدا وتألها مقيتا جعل الدنيا كأنها مسبعة في غابة مظلمة في ليلة حالكة .

لما غلبت الفرس الروم ، وجه كسرى ملك فارس خطابا إلى ملك الروم قال فيه : « من لدن كسرى الذى هو أكبر الآلهة وملك الأرض كلها إلى عبده اللئيم الغافل هرقل ، إنك تقول إنك تثق في إلهك فلماذا لاينقذك من يدى » ثم وضع كسرى شروطا مهينة للصلح جاء فيها :

« أن يدفع ملك الروم ألف ثالنت من الذهب الخالص والثالنت ٢٦ كيلو ، وألف ثالنت من الفضة وألف ثوب حرير ، وألف جواد ، وألف فتاة عذراء .

ودخل الفرس رغم ذلك البلاد فدمروا الأخضر واليابس ، ودمروا الكنائس

---

(١) حضارة العرب جوستاف لوبون ص ٣٤٤ .

وقتلوا ....ر..١ من العزل ، وأقاموا بيوت النار في كل مكان وأرغموا الناس على عبادة الشمس والنار ، واغتصبوا الصليب المقدس ، وساموا الناس الذل والهوان حتى لايمكن قياس الذل والاستعباد الذى حل بالروم من هذا الظلم وهذا التجبر والاستعباد »[١] .

ولهذا نرى أن الحياة بغير الإسلام كانت تفقد إنسانية الإنسان وكرامته وأخوته ورحمته ، حتى جاء الإسلام فكان رحمة للعالمين ، وصدق الله : ﴿ **وماأرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾[٢] ولهذا رأى الناس النور والهداية فسارعوا إليها .

يقول « جوستاف لوبون » : « أتم العرب المسلمون فتح إسبانيا بسرعة مدهشة فقد سارعت المدن الكبيرة إلى فتح أبوابها للغزاة عن ضجر بالظلم الذى كانوا فيه ، وحبا لعدل العرب والعيش في جوارهم ، وأحسن العرب سياسة سكان إسبانيا ، فتركوا لهم أموالهم وكنائسهم وقوانينهم ، ولم يفرضوا إلا جزية على كل شريف دينارا وعن المملوك نصف دينار ، واستعملوا ذلك في خدمة أهل البلاد ، فرضي الناس فرحين من غير مقاومة . فلم يبق أمام العرب إلا أن يقاتلوا الطبقة الأرستقراطية الظالمة ، فعم العدل والرخاء ، ولو وفق موسى بن نصير في استكمال فتح أوروبا لكان العالم إسلاميا ، ولحقق للأمم المتمدنة وحدتها الدينية ، ولأنقذت أوروبا من دور القرون الوسطى المظلم الذى لم تعرفه إسبانيا بفضل العرب المسلمين » .

---

(١) الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية للمؤلف ص ٥٨٩ .

(٢)الأنبياء / ١٠٧ .

الفصل الثانى

المنهج الصحيح للحياة الدنيا والآخرة

حدثنا ربنا سبحانه وتعالى أنه أرسل رسولا يحمل الهدى والنور والرشاد ، من سار عليه في الحياة هدى إلى صراط مستقيم ، كما حدثنا سبحانه أنه أنزل إلينا كتابا عزيزا لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وصدق الله : ﴿ **وإنه لكتاب عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾[1] .

وقد أبان لنا القرآن ذلك في كثير من آياته لينبه الأذهان إلى هذا المنهج المبثوث في جنباته ، والذى يكمن فيه سعادة البشرية بعد شقاء ، وهدايتها بعد ضلال ، وتبصيرها بعد عماية . فقال تعالى : ﴿ **يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا** ﴾ [2] . وقال تعالى : ﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم** ﴾[3] . ﴿ **قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها** ﴾[4] ﴿ **هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾[5] . ﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾ [6] . ﴿ **وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا** ﴾ [7] .

إذن فقد أخبرنا ربنا سبحانه بأنه قد جاءنا نور وبرهان ومنهج في كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فيه الهداية وفيه الرحمة وفيه خلاص الإنسانية من الأدران والبهتان والشقاء والضلال المبين .

---

(١) فصلت / ٤١ ــ ٤٢ .
(٢) النساء / ١٧٤ .
(٣) المائدة / ١٥ ــ ١٦ .
(٤) الأنعام / ١٠٤ .
(٥) الأعراف / ٢٠٣ .
(٦) التوبة / ٣٣ .
(٧) الإسراء / ٨١ .

فالمؤمن يعرف صدق هذا ونفعه ؛ لأنه إخبار ربه ودستور خالقه ، وعلم المتفضل عليه بالنعم ، كما يلمس في الواقع وفي تغير الأحوال وكر الليالي وصدق الأحداث . وصدق الله : ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم إذْ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها** ﴾[1] .

فالإسلام ليس مدنية من بين المدنيات الأخرى ، وليس نتاجا بسيطا لآراء البشر وجهودهم في الميادين المختلفة ، بل هو شرع سنه الله لتعمل به الشعوب في كل مكان وزمان . ولهذا فهو يعمل عمله كالشمس والقمر وسائر العوالم في خدمة الإنسانية إلى يوم الدين .

وفي هذا يقول ليوبولد فايس « محمد أسد » : « ليس ثمة علامة ظاهرة تدل على أن الإنسانية ــ مع نموها الحاضر استطاعت أن تشب عن الإسلام ، بل إنها لم تستطع أن تخلق نظاما خلقيا أحسن من ذلك الذى جاء به الإسلام . إنها لم تستطع أن تبني فكرة الإخاء الإنساني على أساس عمل ما ، كما استطاع الإسلام أن يفعل حينما أتى بفكرة القومية العليا (الأمة) . إنها لم تستطع أن تشيد صرحا اجتماعيا يتضاءل التصادم والاحتكاك بين أهله فعلا على مثال ماتم في النظام الاجتماعي في الإسلام ، إنها لم تستطع أن ترفع قدر الإنسان ، ولا أن تزيد في شعوره بالأمن ولا في رجائه الروحي ولا سعادته .

ففي جميع هذه الأمور نرى الجنس البشري في كل ماوصل إليه مقصرا كثيرا عما تضمنه المنهج الإسلامي . فأين مايبرر القول إذن بأن الإسلام قد ذهبت أيامه ، أذلك لأن أسسه دينية خالصة والاتجاه الديني زى غير شائع اليوم ولكن إذا رأينا أن نظاما بني على الدين قد استطاع أن يقدم منهاجا للحياة أتم وأمتن وأصلح للمزاج النفساني في الإنسان من كل شيء آخر يمكن للعقل البشرى أن يقدمه ، أو أن يأتي به من طريق الإصلاح والاقتراح ، أفلا يكون هذا نفسه حجة بالغة في ميزان الاستشراق الديني ؟

لقد تأيد الإسلام ــ ولدينا جميع الأدلة على ذلك ــ بما وصل إليه الإنسان من أنواع الإنتاج الإنساني ، لأن الإسلام كشف عنها وأشار إليها على أنها مستحبة قبل أن يصل إليها الناس بزمن طويل .

ولقد تأيد أيضا على السواء بما وقع أثناء التطور الإنساني عن قصور وأخطاء

---

(١) آل عمران / ١٠٣ .

وعثرات ؛ لأنه كان قد رفع الصوت عاليا واضحا بالتحذير منها قبل أن تتحقق البشرية أن هذه أخطاء . وإذا صرفنا النظر عن الاعتقاد الديني نجد من وجهة نظر عقلية محضة كل تشويق إلى أن نتبع الهدى الإسلامي بصورة عملية وبثقة تامة »[1] .

ولهذا نسمع كثيرا من علماء الحضارة الغربية يحذرون العالم من الكارثة ، التي ستنزل به ، جزاء انحرافه عن الطريق المستقيم .

فنسمع مثلا الدكتور « ألكسيس كاريل » : « إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب لانها لاتلائمنا . لقد نشأت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، إنها تولدت من خيالات الناس وأوهامهم وشهواتهم ونظرياتهم ورغباتهم العفنة » ، ثم يقول : « يجب أن يكون الإنسان مقياسا لكل شيء ، ولكن الواقع هو عكس ذلك فهو غريب في العالم الذى ابتدعه ، إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه ، ومن ثم فإن التقدم الهائل الذى أحرزته علوم الجماد على علوم الإنسان هي إحدى الكوارث التي عانت منها الإنسانية . فالبيئة التي ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة لنا ولا لقومنا . إننا قوم تعساء لأننا ننحط أخلاقيا واجتماعيا . إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هي على وجه الدقة الجماعات الآخذة في الضعف ، والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها ، ولكنها لاتدرك ذلك »[2] . وصدق الله إذ يقول : ﴿ **واتل عليهم نبأ الذى أتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون** ﴾[3].

إن الإنسان الآن يحارب نفسه ويهلك نفسه ، ولا يحتاج إلى عدو من خارجه ، إن هذه الانفلاته المدمرة من قوانين الأخلاق والفضيلة ومن الإحساس بتأنيب الضمير ، وبروز أخلاق السباع وحيوانية الوحوش ، وإعداد أسلحة الدمار لتخريب كل شيء ، وإهلاك الحرث والنسل شيء مخيف مرعب ، يجب أن يقف له الجميع على أهبة الاستعداد ومنعه والتصدى له . يقول « سولجستين » : « إن المعركة من أجل بقاء كوكب الأرض قد بدأت

(١) الإسلام على مفترق الطرق : ص ١١٢ ، ١١٣ ، ط دار العلم للملايين .

(٢) الإنسان ذلك المجهول ـــ ترجمة شفيق أسعد ص ٣٨ ، ٤٤ ط المعارف بيروت .

(٣) الأعراف / ١٧٥ ـــ ١٧٧ .

فعلا . إن قوى الشر قد بدأت هجومها فعلا . وتستطيع أن تحس ضغطها في كل مكان ، ورغم ذلك فإن شاشات التلفاز في الغرب والصحف حافلة بالابتسامات والكؤوس المترعة المرفوعة لتبادل الأنخاب . لقد وضعنا كل آمالنا في الغرب على نظريات الإصلاح الاجتماعي والسياسي واكتشفنا بعد ذلك أننا مخدوعون »(١) .

الرجوع إلى المنهج الصحيح :

رغم كل هذا ورغم البعد الشاسع عن الطريق الصحيح إلا أن هناك عقولا لابد وأنها ستفتح أعينها يوما لتبحث عن الحقيقة وتفتش عن الصواب وتنقب عن الضوء . ولاتجد في بحثها غير الإسلام ولا تعثر إلا على تعاليمه المشرقة ، التي تستطيع أن تقود مركب الحياة التائهة في أمواج الفتن العاصفة .

ــ يقول « ليوبولد فايس » الذى قاده الله إلى الإسلام : « كنت كلما زدت فهما لتعاليم الإسلام من ناحيتها الذاتية وعظم ناحيتها العملية ازددت رغبة في التساؤل عما دفع المسلمين إلى هجر تطبيقها تطبيقا تاما على الحياة الحقيقية .

لقد ناقشت هذه المشكلة مع كثير من المسلمين المفكرين في جميع البلاد ، مابين طرابلس الغرب إلى هضبة البامير (في الهند) ، ومن البوسفور إلى بحر العرب ، فأصبح ذلك تقريبا شجى في نفسي طغى في النهاية على سائر أوجه اهتمامي بالعالم الإسلامي من الناحية الثقافية ، ثم زادت رغبتي في ذلك شدة حتى أني وأنا غير مسلم ــ أصبحت أتكلم إلى المسلمين أنفسهم مشفقا على الإسلام من إهمال المسلمين وتراخيهم ، لم يكن هذا التطور بينا في نفسي إلى أن كان يوم ــ وذلك في خريف عام ١٩٢٥ ــ وأنا يومذاك في جبال الأفغان ، فقد تلقاني حاكم إدارى شاب بقوله : (ولكنك مسلم غير أنك لاتعرف ذلك من نفسك) . لقد أثرت في هذه الكلمات غير أني بقيت صامتا ، ولكن لما عدت إلى أوروبا مرة ثانية في عام ١٩٢٦ وجدت أن النتيجة المنطقية لميلي هذا أن أعتنق الإسلام »
ثم يقول : « ومنذ ذلك الحين وهذا السؤال يلقى على مرة بعد مرة ، لماذا اعتنقت الإسلام ، وما الذى جذبك منه خاصة ؟ وهنا يجب أن أعترف بأنني لا أعرف جوابا شافيا لم يكن الذى جذبني تعليما خاصا من التعاليم بل ذلك البناء المجموع العجيب ، والمتراص بما لا نستطيع له تفسيرا من تلك التعاليم الأخلاقية ، بالإضافة إلى مناهج الحياة

---

(١) المد الإسلامي في مطلع القرن الخامس عشر ــ ص ١٥٥ ، أنور الجندى .

العملية ، ولا أستطيع اليوم أن أقول أى النواحي استهوتني أكثر من غيرها ، فإن الإسلام على مايبدو لي بناء تام الصنعة ، وكل أجزائه قد صيغت ليتمم بعضها بعضا ويشد بعضها بعضا ، فليس هنالك شيء لا حاجة إليه وليس هنالك نقص في شيء ، فنتج عن ذلك كله ائتلاف متزن مرصوص ، ولعل هذا الشعور من أن جميع مافي الإسلام من تعاليم وفرائض (قد وضعت موضعها) هو الذى كان له أقوى الأثر في نفسي » .

ثم يقول بعد الدراسة والتمحيص : « هذه الدراسات والمقارنات خلقت فيَّ العقيدة الراسخة بأن الإسلام من وجهته الروحية والاجتماعية لايزال بالرغم من جميع العقبات التي خلقها تأخر المسلمين أعظم قوة نهاضة بالهمم عرفها البشر ، وهكذا تجمعت رغباتي كلها منذ ذلك الحين حول مسألة بعثه من جديد »[١] .

نعم فالإسلام ليس مدنية من بين مدنيات البشر ، وليس نتاجا بسيطا لآرائهم وجهودهم بل هو شرع الله سنه لتعمل به الإنسانية في كل مكان وزمان ، فهو أعظم المدنيات ، وأسمى من كل نظام في الحياة ؛ لأنه من عند الله سبحانه الذى يعلم دخائل النفوس وأحوالها وخطراتها وملكاتها . وما زال هذا الإكسير محفوظا في مصادره ومنابعه الأصلية من كتاب وسنة .

ـــ يقول « باول شمتز » : « سيعيد التاريخ نفسه مبتدئا من الشرق عودا على بدء في المنطقة التي قامت منها القوة العالمية الإسلامية في الصدر الأول للإسلام ، وستظل هذه القوة التي تكمن في تماسك الإسلام ووحدته الفكرية ، وستثبت هذه القوة وجودها إذا ما أدرك المسلمون كيفية استخراجها والاستفادة منها ، وستقلب موازين القوى لأنها قائمة على أسس لا تتوافر في غيرها من تيارات القوى العالمية » .

ـــ وقد كتب في هذا المعنى المفكر البريطاني « جورج برناردشو » فقال : « لايساورني أدنى شك في أن الحضارة التي ترتبط أجزاؤها برباط متين وتتماسك أطرافها تماسكا قويا وتحمل في طياتها عقيدة مثل الإسلام لا ينتظرها مستقبل باهر فحسب ، بل ستكون أيضا خطرا على أعدائه من الممكن أن يعارض المرء هذا الرأى بأن الإسلام فقد سطوته على بعض الأشياء المادية ، وخاصة مايتصل بالحرب ، فهو لم يلحق بالتقدم التكنولوجي الحديث ، ولا أستطيع أن أدرك لماذا لم يعوض الشرق الإسلامى مافاته في هذا

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص ١٤ ـــ ١٦ .

الميدان ؟ فلا تحتاج علوم الهندسة الحديثة إلى طبيعة عقلية خاصة ، بل يتطلب الإلمام بها والتفوق فيها إلى الخبرة وتوجيه الخبراء ومن الأمور المؤكدة أنه غالبا مايحدث أن تكون حضارة أخرى ذات منزلة عاليه في التقدم التكنولوجى أقل درجة من حضارة لم يبلغ بعد تطورها في هذا المجال مابلغته الأولى .

إذن هناك احتمال كبير أن يصبح شعب أظهر حتى الآن مواهبه في الناحية التكنولوجية ضعيفة ــ في المستقبل سيدا على شعب آخر استولت التكنولوجيا على حواسه ومشاعره فلم ينقذه أحد ، وتحكمت في سلوكه النظريات التي تسلب الإنسان الإحساس بالطبيعة . لماذا لا يتعلم العالم الإسلامي ما تعلمناه في مجال التكنولوجيا ، وفي مقابل هذا سوف يكون من الصعب علينا استعادة التعاليم الروحية ، وهي من العوامل الأساسية لوحدة أوروبا والتي فقدتها المسيحية بينما لم يزل الإسلام يحافظ عليها » (١) .

ــ وفي حديث آخر للدكتور « برنارد فيرشل » الفيلسوف الألماني يقول : « لابد للحركة الحيوية الإسلامية من أن تبعث في الأمة الإسلامية وفي الغالم عاجلا أو آجلا شريطة أن يبقى القرآن قوة حية في حياة الأمة الإسلامية بكاملها ، إن الإسلام اليوم يسيطر على كثير من عقول الغرب المخلصين ، وإن اهتمامهم الكبير بالإسلام قادهم إلى أن يصبحوا علماء فيه ، ولم يبق بينهم وبين الانتقال إليه إلا بعض من رواسب الماضي السحيق »(٢) .

وهؤلاء العلماء الذين يتكلمون عن قوة الإسلام وعظمته في إعطاء البشرية المنهج الصحيح لا يقولون هذا تخمينا أو جزافا ، وإنما يقولون ذلك بعد دارسة وتجربة ونظر في الأحداث واستقراء للتاريخ القديم والحديث .

ــ يقول « جوتشالك » ، مؤلف كتاب « الإسلام قوة عالمية متحركة » : لا ينبغى للإنسان أن ينسى أن الإسلام استولى على تراث العصر الكلاسيكي فهضمه بأسرع مايمكن ثم طوره ومزجه بتعاليمه الخاصة ــ بحيث لم يستحسنها المتدينون فحسب . بل مال إليها كثير من العلمانيين ــ وضاع ذلك التراث الكلاسيكي ، وأخذ صورة إسلامية بحتة ، بحيث أصبح تعبيرا عن ذاتية إسلامية لها صفة الدوام والاستمرار ، ولم تبل قوته الروحية ولا تأثيره الشامل على غرائز الإنسانية ، ولا سلطته المهيمنة على أتباعه ، لم يبل كل هذا على مدى تاريخه الطويل كما هو الحال في الأديان الأخرى ، بل احتفظت تعاليمه بفاعليتها

---

(١) الإسلام في الفكر الأوربي ص ٢٠ ، ٢١ .

(٢) الحضارة الإسلامية للمؤلف ص ٥٦٩ .

حتى في أثناء قرون الانتكاسة التاريخية لشعوبه ، ونجد اليوم الغرب مهددا بانهيار أخلاقي ، والإسلام يقف شامخا بين هذه التيارات الهدامة والمتصارعة وله ماضي مشرق في إنقاذ المجتمعات من الانحدار في أودية الهلاك .

لهذا فنحن نخشى أن تحل تعاليمه محل دين الكنيسة في المجتمعات الغربية » [1] .

إن من يقرآ التاريخ يعتريه الذهول والاستغراب ، لأن الموات البشرى الذى أحياه الإسلام في الأرض كان معجزة فغرت أفواه الباحثين والمتأملين والمراقبين ، وما زالت تحير الألباب إلى اليوم ، ولا يوجد لها تعليل واحد ، إلا أن ذلك إعجاز لم تعرفه الأمم بتراثها وحضارتها . نعم إعجاز لأن كتاب الإسلام معجز ومتحدى به على مر العصور لأنه وحي الله . الذى أحيا العالم بنوره وتعاليمه وهداه ، وصدق الله : ﴿ **أوَمَنْ كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها** ﴾[2] .

ونجد التساؤل عن ماهية هذه المعجزة عند كثير من الباحثين الغربيين ، فتقول « زغريد هونكة » صاحبة كتاب « شمس العرب تسطع على الغرب » : « والآن وبعد أن عرف العالم من هم أرباب الحضارة الحقة ومن هم أساتذة العالم ، يطرح علينا بسؤال يطلب إجابة شافية . ماهي المقومات التي احتاجها هذا الشعب لِيُبعث مثل هذا البعث ؟ وما هي العوامل التاريخية والاجتماعية والروحية والفكرية التي كان لابد لها أن تجتمع لتخلق هذه المعجزة التي حققها المسلمون العرب ؟ » .

ثم تقول : « ولقد كان لمسلكهم العظيم أطيب الأثر في الأمم ، مما أتاح للحضارة الإسلامية أن تتغلغل بين تلك الشعوب المتباينة بنجاح لم تحظ به الحضارة الإغريقية ببريقها الزائف ، ولا الحضارة الرومانية بعنفها في فرض إرادتها بالقوة »[3] .

اعتراف بالمنهج والرسالة:

لايستطيع باحث منصف أو مفكر مدقق حين يتصل بالإسلام رغم رواسب الماضي ورغم الحقد الذى ألقي في روعه ألا يعترف بعظمة الرسالة وسمو المنهج وقدسية التعاليم .

ـــ تقول الدكتورة « هونكة » بعد أن درست بعضا من كتب الإسلام وشيئا من

---

(١) الإسلام في الفكر الأوربي ص ٢١ ، ٢٢ .

(٢) الأنعام / ١٢٢ .

(٣) شمس العرب . زغريد هونكة ص ٣٥٥ .

تعاليمه : « يبدو أن الأوان قد حان بالنسبة للغرب لكي يتحدث بكل صدق وإخلاص عن العرب ، هذا الشعب الذى أثر بكل عمق في مجرى الأحداث العالمية ، والذى يدين له الغرب والإنسانية جمعاء بالشيء الكثير ، ولعل التعصب هو الذى حمل الغرب دائما على تشويه منجزات العرب العظيمة ، وطمس مساهمتهم الأساسية في الحضارة الأوروبية ، وإن طبيعة العلاقات بين الغرب والعالم العربي منذ ظهور الإسلام إلى يومنا الحاضر لتبين كيف يمكن للعواطف والأهواء أن تملي التاريخ بصورة معينة .. أى بصورة مشوهة وأبعد ماتكون عن الصدق ، ولكن هذه النظرة التي كانت سائدة في العصر الوسيط لم يعد يمكن القول بها في الوقت الراهن »[1] .

ــ ويقول « ليون روسن » في كتابه « ٣٠ عاما في الإسلام » : « ولقد وجدت في الإسلام حل المسألتين الاجتماعيتين اللتين تشغلان العالم طرا .

الأولى : في قول القرآن : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ فهذا أجمل مبادئ الاشتراكية .

الثانية : فرض الزكاة على كل ذى مال وتخويل الفقراء حق أخذها غصبا إذا امتنع الأغنياء عن دفعها » .

ــ ويقول « توينبي » : « إن الإسلام قد قضى على النزعة العنصرية والصراع الطبقي بتقرير مبدأ الإخاء الإسلامي ، والمساواة المطلقة بين المسلمين ، وعلى الغرب أن يأخذ بهذا المبدأ الإسلامي لتنجو المدنية الحالية مما يدب فيها اليوم من عناصر العداء » .

ــ ويقول اللورد « هدلي » : « لو ندبت لجنة من الإنجليز الأكفاء لفحص الدين الصالح ليتدين به العالم كله لأجمعوا على اختيار الإسلام » .

ــ ويقول « رينان » : « وما يدرينا أن يعود العقل الإسلامي ، الولود والكثير المواهب إلى إبداع مدنية أرقى من زميلتها المندثرة . إن فترات الازدهار والانحطاط مرت على رأس جميع الأمم بما فيها أوروبا المتعجرفة » .

ــ ويقول « هورتن الألماني » : « لانجد في الإسلام سدا يمنع من نفوذ الثقافة الغربية بل نرى أن له استعدادا لقبول الثقافة لاحد له » . ويقول أيضا : « إن العرب هم أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين » . وقد صور هذا المعنى الفيلسوف « سبنسر » في حديثه مع الشيخ محمد عبده حيث قال : « محي الحق وطمست معالمه من عقول أهل أوروبا واستحوذت عليهم الأفكار المادية . فذهبت الفضيلة . وهذه الأفكار

---

(١) مرجع سابق ص ٣٠٩ .

ظهرت في اللاتين أولا ، وأفسدت الأخلاق وأضعفت الفضيلة ، ثم سرت عدواها منهم إلى الإنجليز ، وقال : إنني أتهم المدنية الغربية بأنها قصرت عن القيام بالمهمة التي تزعم أنها ألقيت على عاتقها في الأجيال الأخيرة »[1] .

إن الحضارة الغربية اليوم مزهوة بقوتها وتقدمها العلمي ، حيث تمثل اليوم أرقى ماوصل إليه الإنسان من حياة مادية .

ولكن هل هذا وحده يمكن أن يقدم السعادة للجنس البشرى المتناحر اليوم ، الواقع يكذب ذلك ، والعقل يكذب ، فليس الإنسان حيوانا خاليا من الشعور والملكات العقلية ، والنوازع النفسية حتى يقاد من بطنه ، فلابد إذن لاستقرار هذا الإنسان من حضارة جديدة تتابع هذا الرقي المادى وتستمر فيه ، وتأخذ الناس إلى حياة روحية راقية تواكب فطرتهم ولا تصادم ملكاتهم بجانب هذا الرقي المادى حتى تحفظ على الإنسان توازنه الفطرى ، فلا تسمح بطغيان جانب من جوانبه الروحية أو المادية على الجانب الآخر . ولهذا يقول العلماء : « إن العالم الغربي اليوم لايمكن أن يقوم بالدور المرتقب ، فهو الآن في أوج حضارته وقوته المادية وافتتانه بها ، وحين ينهار فسيكون فاقدا كل المؤهلات التي تؤهله لقيادة هذا العالم نحو الأمل المنشود والحياة الكريمة المبتغاة .

والعالم الشيوعي لا يمكن بالأحرى أن يقوم بذلك لأنه أشد إغراقا في المادية وحربا للروح والقيم الدينية والأخلاقية ، وسيساهم مع الغربيين في ازدياد شقاء العالم واضطرابه حتى تنهار هذه الحضارة فوق رؤوس أصحابها من غربيين وشرقيين .

والعالم الشرقي ذو الديانات الوثنية الروحية لايمكن أن يقوم بهذا الدور ، لأن الحضارة تقوم على العلم والتفكير الصحيح والتجرد من الخرافات والأوهام ، والوثنية في حد ذاتها نقيض ذلك كله ، ولأن الروحانية التى يحتاج إليها العالم في حضارته المرتقبة هي الروحانية الإيجابية البناءة التي تساهم في رقي الإنسان واطراد تقدمه ، والروحانية الشرقية الوثنية هي روحانية سلبية تفر من الحياة وتنهزم من أداء الواجب وتعتبر رقي الإنسان المادى رجسا يجب أن يتطهر منه وتشن الحرب عليه ..

إذن فليس هناك من يستطيع القيام بالدور الحضارى المرتقب إلا أمة واحدة ورسالة واحدة هي أمة الإسلام ورسالته ، وذلك للأسباب التالية :

---

(١) انظر : آفاق جديدة في الدعوة الإسلامية في عالم الغرب لأنور الجندى ص ١٨١ . ط الرسالة .

أولا : لأنها تحمل عقيدة من أرقى العقائد ، التي تساهم في بناء الحضارات ، فهي عقيدة توحيد من أصفى أنواع التوحيد وأكثره إشراقا وسموا وكمالا ، وهي عقيدة علم تخدم العقل وتدفعه دفعا حثيثا وراء المجهول ليصبح معلوما ، كما أنها عقيدة خلق إنساني تعرف العدالة والرحمة والواجب .

ثانيا: لأنها تملك روحانية إيجابية بناءة ، روحانية إلهية تلازم الجندى في حربه ، والعامل في مصنعه ، والعالم في درسه ، والقاضي في محكمته ، والرئيس في رئاسته ، تلازم كل إنسان في جده وهزله ، في حركته وسكونه ، في ليله ونهاره ، ويسره وعسره ، وصحته ومرضه ، تذكره بالله ومراقبته وحسابه ونعمه .

ثالثًا: لأنها أثبتت في الماضي قدرتها على إنشاء مثل هذه الحضارة المرتقبة ، فإن أحدا من المنصفين لايستطيع أن ينكر أن الإسلام استطاع أن ينشيء خير أمة وأفضل حضارة ، تمتعت بالرحمة وسمو الخلق وعدالة الحكم وإشراقة الروح . كما لا يستطيع منصف أن ينكر أن الإسلام وتعاليمه مازالت تحمل نفس القوة والقدرة على إرجاع تلك الحضارة الزاهرة ، وخلق مجتمع فريد مستقر تغمره الأخوة والسعادة» [1] .

إن الإسلام نظام كامل وحضارة تامة وتشريع فريد ، لأنه وحي من الله سبحانه ولأنه منة الله ونعمته على البشرية والإنسانية ، وصدق الله : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾ [2] . ﴿ **وإنه لكتاب عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾[3] .

— يقول« هملتون جب » : « ليس الإسلام دينا بالمعنى المجرد الخاص بل هو مجتمع بالغ التمام والكمال ، يقوم على أساس ديني ، ويشتمل كل مظاهر الحياة الإنسانية ؛ لأن ظروفه في أول الأمر أدت إلى ربط السياسة بالدين ، وقد أكد هذه النزعة الأصيلة ما تلا ذلك من صوغ القانون الإسلامي والنظام الاجتماعي . والحق أن الإسلام ليس مجرد نظام عقائدي إنه أعظم من ذلك كثيرا فهو مدنية كاملة »[4] .

— ونرى « توماس كاريل » يتحدث عن معجزة الإسلام فيقول : « **خرجت جيوش**

---

(١) انظر : من روائع حضارتنا للدكتور مصطفى السباعي ص ١٨ ، ١٩ .

(٢) المائدة / ٣ .

(٣) فصلت / ٤١ — ٤٢ .

(٤) شبهات التغريب — أنور الجندى ص ٣٠٢ .

رعاة الأمس تقتحم الأرض شرقا وغربا وتفتح باسم الدين الجديد ، وفي خلال قرن واحد من الزمان قضت على القوى العظمى وملكت الأرض من تحت أقدامهم ، إنها معجزة ولولا أنها حقيقة تاريخية لقلت إنها خرافة أو خيال . لقد كانت صيحة محمد أشبه ماتكون بشرارة ملتهبة وقعت لا على كثبان كسولة من رمال الصحراء، ولكن على جبال من البارود الذى تفجر مرة واحدة فعم نوره الآفاق من هضاب الهند حتى سهول الأندلس»[1] .

لقد أيقظ الإسلام الشعوب المغلوبة ونبه العقول الراكدة والأفهام الخاملة . يقول المستشرق الألماني « رودى بارت » في كتابه « محمد والقرآن » ص ٧١ : « لقد كان هدف محمد هو إيقاظ الناس مما كانوا فيه من فراغ فكرى ، واعتداد ساذج بالذات ، وهدايتهم إلى اتجاه ديني حقا وجديدا تماما . وقد ظل محمد وفيا لهدفه الديني الخالص ، فلم يغب ذهنه عن هذا الهدف لا في البداية البسيطة ولا في الانتصارات الحاسمة »[2]

ولقد تم هذا الإيقاظ بالرحمة والشفقة والمعاملة الحسنة ، وصدق الله العظيم : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة** ﴾ [3] . وتم بيان الهدى بالحب والأخوة والصبر والحجة : ﴿ **ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين . ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم . ومايلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم** ﴾ [4] .

ـــ يقول « اللورد هدلي » : لا أظن أبدا أن المسلمين اجتهدوا في حين من الأحيان أن يحشروا أفكارهم ومعتقداتهم الدينية في حلوق الناس وصدورهم بالقوة أو الفظاعة أو التعذيب ، ولم يشهر محمد السلاح إلا حين الحاجة القصوى لحماية البشرية ، وإن أعداء الإسلام لأعجز من أن يأتوا بدليل أو مثل من الأمثلة التي أثرت فيها الحرب على هداية قبيلة واحدة أو شخص واحد »[5] .

ـــ ويقول « هنرى دى شاميون » : « إن انتصار (كارل مارتل) على تقدم الإسلام

---

(١) الدعوة إلى الله للمؤلف ط الفلاح ص ١٤١ .
(٢) الإسلام في الفكر الغربي د. زقزوق ص ٨٨ .
(٣) النحل / ١٢٥ .
(٤) فصلت / ٣٣ ـــ ٣٥ .
(٥) المنار م ٢٩ جـ ٥ عن مجلة إسلاميك رفيو ، وآفاق جديدة للدعوة ص ١٧٦ .

في فرنسا أخر سير المدنية ثمانية قرون ، وإنه هو الذى أوقع أوربا في ظلمات القرون الوسطى ، ومكابدة المذابح الأهلية الناشئة عن التعصب الديني والمذهبي » [1] .

لقد كان انتصار الإسلام في المعمورة انتصارا على الظلم والبغي والفساد ، بخلاف أى انتصار لأى مذهب أو نحلة أو حضارة .

ـ تقول الكاتبة الفرنسية « مدام سنت بوانت » : « أتهم المدنية الغربية بأنها قصرت عن القيام بالمهمة التي تزعم أنها ألقيت على عاتقها في الأجيال الأخيرة ، أعني المهمة التي ترمي إلى نشر تعاليم الإنسانية وتعميمها على وجه الأرض ، وتؤدى إلى الاتحاد . لقد أراد الغرب أن يوحد العالم ، ولكن تحت سلطانه ولمصلحته . والعالم لا يساس إلا بالعدل والحب والإخاء ، وبرد الحقوق إلى أهلها ، ولكن الغرب لجأ إلى القوة الغاشمة ، وعبث بالشرائع الدينية وخالف تعاليم المسيح عيسى الذي أمر بمحبة الناس أجمعين »[2] .

---

(١) المرجع السابق ص ١٧٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨٠ .

الفصل الثالث

ماأعطاه الإسلام من الأدوية للعلل البشرية

جاء الإسلام بعد ما طم الفساد في العالم وعم ، وأخذت البشرية تذوق وبال أهوائها المتعددة ، وتعيش حمأة شهواتها المتلاطمة .

جاء الإسلام بهداه الرباني وشفائه الإلهي ، فأضاء العقول وطهر الضمائر ، وأرشد الحيران ورسم الطريق المستقيم . وقد بين ذلك ربنا سبحانه وتعالى في كثير من آيات الكتاب الكريم : فكان بصائر وكان هداية . وصدق الله : ﴿ **هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾[1] . ﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لايعلمون . إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا . وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين . هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون** ﴾[2] .

وكان شفاء للصدور والنفوس : ﴿ **ياأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين . قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون** ﴾[3] . ﴿ **وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا. وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا** ﴾[4] . ﴿ **ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لايؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمىً أولئك ينادون من مكان بعيد** ﴾[5] .

وكان أفضل هدى وأصفى بيان جاء لرحمة البشرية من عناء وإرهاق أليم ، وصدق الله : ﴿ **فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى** ﴾[6] ﴿ **ومن**

---

(١) الأعراف / ٢٠٣ . (٢) الجاثية / ١٨ ــ ٢٠ . (٣) يونس / ٥٧ ــ ٥٨ .

(٤) الإسراء / ٨١ ــ ٨٢ . فصلت ٤٤ (٦) طه ١٢٣ .

أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ [1] ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد ﴾ [2]

ولقد رجعت الإنسانية إلى شقائها الأول ، لقد تقدم العالم اليوم بالفعل تقدما تكنولوجيا هائلا استطاع به أن يقهر بعض المجالات المادية ، ولكن هل استطاع أن يحل مشكلاته النفسية والروحية والخلقية ، هل استطاع أن يعيش سعيدا بغير عقد ولا قلق ولا ظلم ولا وحشية ! هل ظهرت معالم الحق واختفت مظاهر العبودية وعاش الناس في أمن وسلام وحب واطمئنان ! هل عرفت الحضارة الحديثة المعبود الحق ، أم عبدت أهواءها وشهواتها ، فالعبادة ليست محصورة في شعائر التعبد من صلاة أو نسك أو تقديم قرابين كما يتبادر إلى ذهن كثير من الناس ، فالعبادة بهذا المعنى إنما هي جزء أو جانب واحد من جوانب العبادة ، وإنما العبادة في جوهرها هي الطاعة والاتباع مع الإيمان بأن المطاع واجب الطاعة لذاته .

فهل الغرب أطاع الإله بهذا المعنى ، واتبع تعاليمه ونفذ شرائعه وارتضاها أسلوب عمل ومنهج حياة .

لقد عرف هذا الانحراف كثير من الباحثين الغربيين ، وشخص هذه العلل كثير من العلماء الدارسين ، وعرفوا كذلك أن الإسلام قادر على تقويم هذا الانحراف . فمثلا يرى « توينبي » أن الإسلام قادر على حل مشكلة العنصرية . ومشكلة الخمر مع أنها من أعتى المشكلات التي يواجهها العالم المعاصر وأعصاها على الحل ، وكذلك يستطيع الإسلام أن يدلي بدلوه في حل مشكلة الفوضى الجنسية التي تجتاح العالم اليوم ، أو مشكلة تفكك الأسرة ، أو مشكلة الجنوح بين الأحداث ، أو مشكلة شعور الشباب بالقلق والضياع .

كما أن الإسلام يستطيع أن يحل الازدواجية التي وقع فيها الإنسان المعاصر .

ــ يقول صاحب كتاب « الإسلام قوة الغد العالمية » :« ليس في الإسلام ثنائية ، ولا تفكير ثنائي مثل التفكير الأوربي ، فإن الدين الإسلامي هو الدنيا ، والدنيا هي الدين »[3] .

---

(١) القصص / ٥٠ . (٢) سبأ / ٦ .

(٣) الإسلام قوة الغد العالمية ص ١٧١ ، ١٧٢ .

ولقد شفى الإسلام البشرية من الجهل والخرافة والسحر والشعوذة ، وفتح الباب للبحث وتتبع الحقيقة والانتفاع بما أودع الله تعالى في الأشياء من أسرار وخواص ، فمثلا فتح الإسلام المجال للطب الطبيعي على مصراعيه لأنه أبطل المداواة بالسحر والشعوذة ، ولم يحدث في مكان الكهانة طبقة جديدة تتولى العلاج باسم الدين ، بل سمح النبي ﷺ باستشارة الأطباء ولو من غير المسلمين ، فلما مرض سعد بن أبي وقاص في حجة الوداع عاده النبي وقال له : « إني لأرجو أن يشفيك الله حتى يضر قوم وينتفع آخرون » . ثم قال للحارث بن كلدة : « عالج سعدا مما به » . والحارث على غير الإسلام ، ونبغ الأطباء من بين نصارى المشرق في ظل الإسلام في الوقت الذى كانت فيه الكنيسة الغربية تحرم صناعة الطب ؛ لأن المرض عقاب من الله لاينبغي للإنسان أن يصرفه عمن استحقه ، وظل الطب محجورا عليه بهذه الحجة إلى مابعد انقضاء العهد المسمى بعهد الإيمان ، عند استهلال القرن الثاني عشر للميلاد ، وهو إبان الحضارة الأندلسية .

وحرر الإسلام العقول من المتاهات الغيبية والتعقيدات العبادية والتسلطات الكهنوتية .

ـــ يقول « هـ . ج . ولز » : « إن الإسلام مملوء بروح الرفق والسماحة والأخوة ، وإنه عقيدة سهلة يسيرة الفهم ، وإن محمدا عليه السلام قد أوصل مبادىء الإسلام الجذابة إلى سويداء قلوب البشرية دون أى فرية مبهمة ، ودون أن يقيم للهياكل أى أهمية ولقد أدخل الإسلام في أعمال الخلق أوسع فكرة سياسية وأحيا فكرة سياسية عرفها الإنسان ، ومد إلى البشرية يد المعونة »[1] .

ـــ يقول القس « إسحق بتلر » رئيس الكنيسة الإنجليزية : « إن الإسلام ينشر المدنية التي تعلم الإنسان مالا يعلم ، والتي تقول بالاحتشام في الملبس ، وتأمر بالنظافة والاستقامة ، فمنافع الإسلام لاريب فيها ، وفوائده من أعظم أركان المدنية ومبانيها »[2] .

ـــ ويقول « أنشتين » : « إن عظمة الإسلام تتركز في عوامل ثلاث : أنه أحدث الأديان ، وأنه لم يخاصم العلم ، وأنه يستطيع أن يعالج أزمات العالم »[3] .

---

(١) كتاب معالم التاريخ الإنسانية لولز ، انظر : آفاق جديدة للدعوة ص ٦٩

(٢) المنار ـــ م ٣ ـــ ١٩٠٢م.

(٣) آفاق جديدة للدعوة ص ٧٢ .

ولقد حرر الإسلام العقول من التعصب الأعمى ومن الأحقاد الدينية والعنصرية وجعل الناس إخوة في الإنسانية : ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾[1] .

وعلم الإنسان سعة الأفق والحجة وحثه على التعامل بالمنطق والحكمة، وجعله لا يضيق ذرعا بعد النصح والإرشاد بالمذاهب المتعددة والأديان السابقة والنحل المختلفة . وقد قرر أن الأنبياء أخوة نؤمن بهم جميعا : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾[2] . وأفهم الدنيا أن العقيدة لا يمكن الإكراه عليها بل لابد فيها من الإقناع والرضا قال تعالى : ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾ [3] . ﴿ لو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾[4] .

أماكن العبادة محترمة ومصانة لكل أصحاب الأديان ، وكذلك أعراضهم وأموالهم ﴿ لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾[5] .

فاختلاف الناس في الدين لايبيح البذاءة مع المخالفين : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴾ [6] ولا يحل سب عقائدهم وأديانهم : ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ﴾[7] .

أما من اعتدى وحارب فله شأن آخر في الإسلام وهو رد اعتدائه . ومع هذا لا يجوز إجبارهم على ترك دينهم أو اضطهادهم في عقائدهم ، وإنما من واجب الدولة المسلمة أن تحمي أماكن عبادتهم وتسويتهم بالمسلمين في الحقوق والواجبات العامة ، وأن تصون كرامتهم وحياتهم ومستقبلهم كالمسلمين .

لما جاء وفد نصارى نجران أنزلهم الرسول ﷺ في المسجد وسمح لهم بإقامة صلاتهم

---

(١) النساء / ١ .
(٢) البقرة / ١٣٦ .
(٣) البقرة / ٢٥٦ .
(٤) يونس / ٩٩ .
(٥) الممتحنة / ٨ .
(٦) العنكبوت / ٤٦ .
(٧) الأنعام / ١٠٨ .

فيه ، فكانوا يصلون في جانب منه ، ورسول الله والمسلمون يصلون في جانب آخر . ولما أرادوا أن يناقشوا الرسول في الدفاع عن دينهم استمع إليهم وجادلهم بالحسنى وسماحة خلق ، وقبل الرسول ، ﷺ ، من المقوقس هديته .

وقد أجاب عمر بن الخطاب المسيحيين في بيت المقدس إلى ماطلبوا وأبى أن يصلي في كنيستهم حتى لايتخذها المسلمون من بعده ذريعة للمطالبة بها واتخاذها مسجدا .

ونجده رضي الله عنه وقد شكت إليه امرأة مسيحية من سكان مصر ، أن عمرو بن العاص قد أدخل دارها في المسجد كرها عنها ، يسأل عمرو عن ذلك فيخبره أن المسلمين كثروا وأصبح المسجد يضيق بهم وفي جواره دار هذه المرأة ، وقد عرض عليها عمرو ثمن دارها وبالغ في الثمن فلم ترض ، مما اضطر عمرو إلى هدم دارها وإدخالها في المسجد ووضع قيمة الدار في بيت المال تأخذه متى شاءت . ومع أن هذا مما تبيحه قوانيننا الحاضرة وهي حالة يعذر فيها عمرو على ماصنع ، فإن عمر لم يرض ذلك ، وأمر عمرا أن يهدم البناء الجديد من المسجد ويعيد إلى المرأة المسيحية دارها كما كانت[1] .

هذه دروس في العدل والكرامة والإحسان إلى الإنسانية وإسعادها تنبع تلك الدروس من رسالة ربانية حانية ، ومن عقيدة إيمانية منزهة عن الأحقاد والأدران .

وهذا هو ماأظهر الفرق واضحا بين عدل الإسلام وجور غيره ، وبين إنسانيته ووحشية سواه ، وجعل أفواج المظلومين والمقهورين يدخلون في دين الله أفواجا هربا من فتك المفترسين ومصاصي الدماء .

ـــ يتحدث بطريرك أنطاكية « ميخائيل » الأكبر » وقد عاش في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ـــ بعد أن خضعت الكنائس الشرقية للحكم الإسلامى خمسة قرون ـــ عن تسامح المسلمين واضطهاد الروم للكنائس الشرقية : « هذا هو السبب في أن إلٰه الانتقام الذى تفرد بالقوة والجبروت والذى يدير دولة البشر كما يشاء فيؤتيها من يشاء ويرفع الوضيع ، لما رأى شرور الروم الذين لجأوا إلى القوة فنهبوا كنائسنا وسلبوا أديارنا في كافة ممتلكاتهم ، وأنزلوا العقاب في غير رحمة ولا شفقة ، أرسل أبناء إسماعيل (العرب) من الجنوب (الجزيرة العربية) ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم ، وفي الحق أننا إذا كنا قد

---

(١) انظر في ذلك : روائع حضارتنا للسباعي ص ٧٩ ط الإرشاد .

تحملنا شيئا من الخسارة بسبب انتزاع الكنائس الكاثوليكية منا وإعطائها لأهل خلق ونية ، فقد استمرت هذه الكنائس في حوزتهم ولما أسلمت المدن للعرب خصص هؤلاء لكل طائفة الكنائس التي وجدت في حوزتها ــ وفي ذلك الوقت كانت قد انتزعت منا كنيسة حمص الكبرى وكنيسة حوران ــ ومع ذلك لم يكن كسبا هينا أن نتخلص من قسوة الروم وأذاهم وحنقهم وتحمسهم العنيف ضدنا وأن نجد أنفسنا في أمن وسلام » ، ويؤيد هذا « جستاف لوبون » حيث يقول : « **إن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ، ولا دينا سمحا مثل دينهم ، هو إنصاف للحق قبل أن يكون إنصافا للمسلمين** »[1] .

الوفاء للحق وليس البغي والعدوان:

الوفاء للحق لا يعني في عرف المسلمين البغي والعدوان على المخالفين أو أصحاب المذاهب الباطلة ، فحارس الحق في عرفهم ناصح ومرشد وليس متسلطا جبارا ، أو قاهرا فظا أو غليظا قاسيا فهم أول من علم الدنيا الوفاء للمبدأ ، والدفاع عن الحق والقيام بأمر الهداية وتبليغ الرشاد ، وليس تسامحهم وهم أهل الحق ناشئا عن تسيب أو فقدان للغاية أو ضياع للهدف ، وإنما عن عطف وشفقة وفتح لمغاليق القلوب وإظهار للطيب من الخبيث في القول والفعل ، وفي الحياة اليومية والاجتماعية . وصدق رسول الله ــ ﷺ ــ حينما دعا لكفار قريش فقال : « اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » ﴿ **فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر** ﴾ [2] . وصدق الله : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾ [3] .

الوفاء للحق :

والحقيقة أن المسلمين قد أعطوا الدنيا درسا عميقا في الوفاء للحق والإخلاص للمبدأ وليس الوفاء والانقياد للعصبية أو القرابة أو الأهل والولد . أو الشهوة والمصالح الشخصية أو القومية ، على حساب الحق والعدل والمعروف ، وقد ضرب المسلمون في ذلك الأمثلة العملية الرائعة بنفوس قوية قادرة وعزائم صلدة سامقة ، وأرواح رضية سعيدة فتآخوا عليه وتناصروا به وكانوا لهم نصرة ونسبا وصهرا . فهم إذن أول من خلص البشرية من ضغط المادة ورفعها عن طينتها وأهوائها إلى أفقها السامي الكريم وإنسانيتها العظيمة وقيمها العالية الرفيعة ،

---

(١) حضارة العرب .　(٢) الغاشية / ٢١ ــ ٢٢ .　(٣) النحل / ١٢٥ .

وجعلوا هذا واقعا معاشا وحياة مستقرة ، ومجتمعا يقتدى به ، وأمة تضرب الأمثلة عليه وتدعو الناس بالقدوة الحسنة والمثل الحي إلى أخوة عامة في ظل عقيدة حية وحق ورسالة وهداية ربانية حانية .

﴿ إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ﴾(1) .

والمجتمع المسلم بهذا يكون قد رد البشرية إلى فطرتها وإلى هديها الأول وإلى قانونها الإلهي الذى استبدلته بشهواتها وأهوائها وانحرافها عن الطريق المستقيم ، فقد حكى الله للأمة المسلمة في قرآنها وضرب لها الأمثال بالرهط الكريم من الأنبياء الذين سبقوهم في موكب الإيمان الضارب في عمق الزمن ، فقال تعالى : **﴿ وإذا ابتلى إبراهيم ربُّهُ بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدى الظالمين ﴾**(2) **﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾**(3) .

وقال تعالى في نوح عليه السلام وولده : **﴿ ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين. قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ماليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين . قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ماليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين ﴾**(4) .

والمسلمون وعوا الدرس جيدا وفقهوا الرسالة على خير وجه . روى ابن جرير بسنده عن عبد الله بن زياد قال : دعا رسول الله ـــ ﷺ ـــ عبد الله بن عبد الله بن أبي قال : « ألا ترى ما يقول أبوك ؟ » قال : ما يقول أبي ؟ ـــ بأبي أنت وأمي ، قال : يقول : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » فقال : فقد صدق والله يارسول الله ، أنت والله الأعز وهو الأذل ، أما والله لقد قدمت المدينة يارسول الله وإن أهل يثرب ليعلمون مابها أحد أبر بوالده مني ، ولئن كان يرضى الله ورسوله أن آتيهما برأسه لأتيتهما به . فقال رسول الله

---

(1) الأنفال / 72 .

(2) البقرة / 124 .

(3) الممتحنة / 4 .

(4) هود / 45 ـــ 47 .

ﷺ : « لا » فلما قدموا المدينة قام عبد الله بن عبد الله بن أبي على بابها بالسيف لأبيه قال : أنت القائل : لأن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ؟ أما والله لا يأويك ظلها أبدا إلا بإذن من الله ورسوله فقال : يا للخزرج ، ابني يمنعني بيتي ، يا للخزرج ابني يمنعني بيتي ، فقال : والله لا يأويه أبدا إلا بإذن منه ، فاجتمع إليه رجال فكلموه فقال : والله لا يدخل إلا بإذن من الله ورسوله فأتوا النبي — ﷺ — فأخبروه فقال : « اذهبوا إليه فقولوا له : خله ومسكنه » . فأتوه فقال : أما إذا جاء أمر النبي — ﷺ — فنعم(1) .

وقد علم الله ذلك الإيمان في قلوبهم فقال سبحانه : ﴿ **لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه** ﴾(2) .

نعم ، أراد الله أن يكون ولاء المؤمنين له وحده ولتعاليمه الحقة ولرسالته وهديه ، وأن تكون طاعتهم لعقيدتهم وإيمانهم لا لأشخاص أو رموز أو شعارات أو أباطيل وصدق الله : ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين** ﴾(3) .

وقد ذكر أبو بكر المسلمون بهذه الآية عند موت رسول الله — ﷺ — فقال : أيها الناس : من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لايموت ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ **ومامحمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم....** ﴾(4) .

فهذا رسول الله — ﷺ — قد مات وهم ماعبدوا الرسول وإنما عبدوا الله الباقي الحي المطلع على القلوب وخفايا الضمائر . وطالما أقر محمد — ﷺ — هذا المعنى في صدورهم ، وأعلمهم أنه حياةً ومماةً عبدٌ لله وملك له سبحانه : ﴿ **قل إن صلاتي ونسكي**

---

(1) السيرة لابن هشام ط / 292 ، وتفسير ابن كثير في الآية 4 / 370 ط المعرفة ولم يخرجه إلا بن إسحاق ، انظر سيرة ابن كثير تحقيق وافي 3 / 361 ط عيسى الحلبي ، وانظر تاريخ الطبرى جـ 2 ص 608 ط دار المعارف ، وانظر تفسيره في الآية .

(2) المجادلة / 22 .   (3) آل عمران / 144 .

(4) أخرجه البخارى 7 / 22 ، 23 في فضائل أصحاب النبى ﷺ، وفي الجنائز باب الدخول على الميت . وأخرجه ابن كثير في السيرة تحقيق وافي 4 / 480 . ، الآية 144 / آل عمران .

ومحياى ومماتي لله رب العالمين . لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾[1] .

وهتف بهذا الصحب الأول حتى قال أحدهم :

ولست أبالي حين أقتل مسلما　　على أى جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإلـه وإن يشأن　　يبـارك على أوصال شلـو ممزع

أول من نادوا بالعالمية :

المسلمون هم أول من نادى بالعالمية ، وعلموا الدنيا كيف يكون الحب الذى يطهر الجراثيم الشيطانية التي تفتك بالقلوب والأفئدة والضمائر ، وأول من نزع الحقد والغل من الصدور ، وأزال قتامة الأنانية وظلام الجهل ، وكشف عن شمس الهداية الربانية الغامرة حتى صارت مثل نعم الله الطوافة في هذا الكوكب الأرضي كالشمس والقمر والهواء والماء .

ولهذا نادى الإسلام الناس كلهم فقال سبحانه : **﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾**[2] . وأرسل رسول الإسلام رحمة عامة للجميع فقال تعالى : **﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ﴾**[3] .

ولهذا ناداهم رسولهم خاتم الأنبياء والمرسلين بقوله : **﴿ يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾**[4] . فكان بحق كما أخبرنا ربه سبحانه رحمة للعالمين : **﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾**[5] وكما قال عن نفسه ﷺ « إنما أنا رحمة مهداة » وفي رواية لمسلم : « إني إنما بعثت رحمة »[6] .

وقد كان الأنبياء قبل رسول الله ــ ﷺ ــ يبعثون إلى أقوامهم خاصة كما أخبرنا الحق سبحانه وتعالى بذلك فقال : **﴿ لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله ﴾**[7]. **﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله ﴾**[8]. **﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله ﴾**[9] . **﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا**

---

(1) الأنعام / ١٦٢ ، ١٦٣ .　(2) النساء / ١ .　(3) سبأ / ٢٨ .

(4) البقرة / ٢٠٨ .　(5) الأنبياء / ١٠٧ .　(6) رواه مسلم برقم ٢٥٩٩ في البر .

(7) الأعراف / ٥٩ .　(8) الأعراف / ٦٥ .　(9) الأعراف / ٧٣ .

الله ﴾[1] .

وقد وضح هذا رسول الله ـ ﷺ ـ حيث قال : « وكان الرسول يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » وفي رواية لمسلم : « وأرسلت إلى الخلق كافة »[2] .

ـ قال تعالى : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ [3] .

ـ وقال تعالى : ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا** ﴾[4] .

ـ وقال تعالى : ﴿ **قل ياأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا** ﴾[5] .

ـ وقال تعالى : ﴿ **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا** ﴾[6] .

ـ وقال قتادة : « أرسل الله تعالى محمدا ﷺ إلى العرب والعجم فأكرمهم على الله تبارك وتعالى أطوعهم لله عز وجل »[7] .

ولهذا كان محمد عالميا ، وكانت دعوته عالمية ونادى بالأخوة العالمية تحت تعاليم ربانية إنسانية واحدة ، ليكون الدين كله لله ، ولتكون كلمة الله هي العليا ، ولينتفي التباغض والتظالم والتحاسد .

فحق لمحمد ﷺ بصدق أن يكون ميراثا للإنسانية وصدق الله : ﴿ **ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما** ﴾[8] .

الطهارة :

ولقد علم المسلمون الدنيا الطهارة النفسية والبدنية ، فأما عن الطهارة النفسية فهي في نقاء الضمير وبياض السريرة وصدق الكلمة : « فالأعمال بالنيات ولكل امرىء مانوى » [9] . ﴿ **مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا**

---

(١) الأعراف / ٨٥ .

(٢) أخرجه البخارى ١ / ٣٦٩ ، ٣٧٠ فى باب التيمم وفى الجهاد . ومسلم رقم ٥٢١ فى المساجد ، والنسائى ١ / ٢١٠ ، ٢١١ .

(٣) الأنبياء / ١٠٧ .

(٤) سبأ / ٢٨ .

(٥) الأعراف / ١٥٨ .

(٦) الفرقان / ١ .

(٧) ابن كثير ٣ / ٥٣٨ ط المعرفة .

(٨) الأحزاب / ٤٠ .

(٩) المرجع السابق ص ٨٧ ، ٨٨ .

أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ماكانوا ﴾[1]. ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾[2].

وأما عن طهارة الأبدان . فالمسلم عبادته تبنى على الطهارة ، وزاده يقوم على الطهارة ، فطهارة جسده وثيابه وفراشه وطعامه وشرابه واجبه الديني ، وهذا كان شيئا لا تعرفه الدنيا التي كانت تتمرغ في الأوحال . ويكفي أن نشير إلى تلك المقارنة التي أجرتها « زغريد هونكة » المستشرقة الألمانية : بين المسلمين وبين غيرهم ، تقص علينا رحلة عالم من علماء المسلمين زار الغرب في فترة ازدهار الحضارة الإسلامية وكتب ما رأى ، تقول : « يقول (الطرطوشي) أحد علماء المسلمين خلال تجواله في بلاد الفرنجة : صادفت أشياء اقشعر منها شعر بدني : رأيت أناسا لن ترى أبدا أكثر منهم قذارة ، إنهم لاينظفون أنفسهم ولا يستحمون إلا مرة أو مرتين في السنة بالماء البارد ، وأما ثيابهم فإنهم لا يغسلونها بعد أن يرتدوها حتى تصبح خرقا بالية مهلهلة » . ثم تعلق « زغريد هونكة » على ذلك بقولها : « ذلك أنه علم أن أساتذة العفة والطهارة والحرمان . كيف لا يخجلون وكيف لا يجدون ويرون في الجسم العارى جرثومة الشر والغواية ، وأساس الجشع والرذيلة ، أصبح الاستحمام والنظافة بل وتعرية الجسم في ظلام الغرفة الصغيرة الخاصة ، أصبح كل هذا يحمل طابع المعصية بنفس الدرجة التي أصبحت فيها العفة تقاس بدرجة القذارة » .

ثم تقول : « لقد كان هذا الأمر شيئا لا مجال لأن يفهمه عربي مسلم متأنق ، أو يحتمله وهو الذى لم تكن نظافة الجسم وطهارته بالنسبة إليه واجبا دينيا فحسب ، وإنما أيضا حاجة ماسة تحت وطأة الجو الحار ذاك إذ كان يعلمه ذلك دينه حتى يكون كالشامة البيضاء » .

ثم تقول : « وبفضل التقليد العربي فقط عادت النظافة الضائعة وعاد الاعتناء بالصحة إلى بلاد الغرب عن طريق الصليبيين والمسافرين القادمين من أسبانيا وصقلية على الرغم من ضغط السلطة الشديد وتزمت الكنيسة .

وهكذا خرق الحصار الذى فرضته أوروبا المسيحية ضد الإسلام مرات عديدة ، وأصبح سكان أوروبا هذه الكثيرون ، بطريقة الإقناع الخاص سجناء معجبين بل قل تلامذة

---

(١) المجادلة / ٧ .　　(٢) غافر / ١٩ .

الحضارة العربية الإسلامية» [1] .

والواقع أن العالم لا يستطيع أن ينكر تلك الشمس التي طلعت على الدنيا فأنارتها وطهرتها وأدفأتها وأسعدتها ، وأنبتت لها الرياحين والورود والأزهار في كل درب وصقع ، وكل عقل وفكر ، وكل أمة وشعب إنها شمس الإسلام وصبح الهداية الربانية الغامرة .

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب ص ٥٤

الفصل الرابع

الغايات والأشواق الصحيحة للبشرية

نستطيع أن نقول كما يقول كل منصف أن الغايات والأشواق التي كانت سائدة قبل الإسلام في جميع بلاد الدنيا وأقطارها . كانت غايات وأشواق حيوانية طينية سافلة ولم تكن أكثر من ذلك في كل جوانبها وزواياها ، ولهذا فيستطيع كل منصف أن يقول إن الإنسانية قد ماتت ودفنت ورمت في عقول البشر وأفكارهم وأفعالهم ، وكان بعث هذا الموات يحتاج إلى منهج فريد وتعاليم مضيئة وهداية قدسية كما يحتاج إلى دعاة وهداة ورعاة على مستوى هذه الهداية وتلك التعاليم بأساليب وطرائق وفنون سامية من البيان والإيضاح ، وعزائم متمرسة على الصبر والكفاح والجلاد ، وقلوب عامرة بالإيمان مضيئة بالتقوى عبقة بالفضيلة . حتى تستطيع بعث هذا الخمود وذلك الموات الذى خيم على هذه العصور المظلمة .

فكان الإسلام وكان دعاته ، الإسلام بمنهجه الرباني الصافي ، وتعاليمه الإلهية القدسية السامية وكانت لبناته الصدق ورجاله الغر الميامين ، وجنده الربانيون المجاهدون الذين ما وهنوا وما ضعفوا وما استكانوا ، الذين أيقظوا هذا الكم الهائل من الحطام البشرى المسحوق ، وصدق الله : **﴿ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾** [(١)] .

نعم هم الذين ردوا إلى البشرية روحها الحية بعدما فقدتها وصارت تتخبط في دياجير الضلال والبهتان ، وتتقاذفها أمواج الفتن وعواصف البغي والعدوان ، والروح بالنسبة إلى الإنسان كالماء بالنسبة إلى الأرض . هذه تحيي موات الأجساد ، وتلك تحيي موات التراب والطين ، والمقصود بالروح الحية هنا هو حياة الحركة والنفع والهمة وشرف الغاية ، فهذه هي الحياة الإنسانية الحقة التي تميز الإنسان عن الحيوان وعن الجماد . أما الحياة الحيوانية

(١) الأنعام / ١٢٢ .

الجامدة أو الحياة الحيوانية الفاسدة المدمرة فهذه ليست حياة بل هي موات في بعض الحالات ، وفي بعضها الآخر أشر من الموات .

ولنسمع القرآن يعامل الخاملين ويصفهم بأى صفة حيث يقول : ﴿ **ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون . فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولو مدبرين . وما أنت بهاد العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون** ﴾(1) .

﴿ **والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون . أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون** ﴾(2) .

أما من هم شر من الأموات فالذين يقلبون نعمة الله كفرا ، ويحولون الطاقات البشرية والأرضية إلى الإهلاك والإذلال والبغى والعدوان . ﴿ **ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار . جهنم يصلونها وبئس القرار** ﴾(3) .

﴿ **يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون** ﴾ (4) .
﴿ **ومن يبدل نعمة الله من بعدما جاءته فإن الله شديد العقاب** ﴾ (5) .
﴿ **أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون** ﴾ (6) .

نعم كان الإنسان الذى أكرمه الله سبحانه وتعالى ضائعا في الأرض ينحدر في صفاته الإنسانية وفي تصوره للقيم البشرية .

فإذا رأيناه مقاداً للآلهة من الأصنام أو الطغاة والمتسلطين ، أو تابعا ذليلا من توابع هذه الهيمنة الفاسدة .

وإذا رأيناه ينحط في تصوره وذكائه وفطنته فيعتبر البغي شجاعة والظلم إقداما والاستعباد سيادة .

وإذا رأيناه يهبط في علاقته الجنسية إلى أدنأ من درك البهيمة ، ويعيش لبطنه وشهوته بغير غاية أو هدف .

---

(1) الروم / 51 — 53 . (2) النحل / 20 — 21 . (3) إبراهيم / 28 ، 29 .
(4) النحل / 83 . (5) البقرة / 211 . (6) العنكبوت / 67 .

وإذا رأينا الإنسانية تتعامل وتتفاضل بالألوان والأحساب والأعراق والمناصب والقوة ؛ ولا مكان عندها لمكرمة أو لعمل شريف يرفع الرأس ويعلي الهمة ، أدركنا بحق مقدار الخواء والضياع والانحدار الذى كان يسود العالم قبل أن يدركه الله بالإسلام .

إن بريق العروش ووهج الدول العظمى في ذلك الوقت لم يكن نورا يضيء لأحد ، وإنما كان نارا تنضج على لهيبها أجساد البشر للآكلين من المتسلطين ، وقد أحسن شوقي في تصوير تلك الفترة حيث قال :

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم	إلا على صنم قد هام في صنم
والأرض مملوءة جورا مسخرة	لكل طاغية في الخلق محتكم
مسيطر الفرس يبغي في رعيته	وقيصر الروم من كبر أصم عم
يعذبان عباد الله في شبه	ويذبحان كما ضحيت بالغنم
والخلق يفتك أقواهم بأضعفهم	كالليث بالبهم أو كالحوت بالبلم[1]

أشواق نحو الحياة:

أطلق الإسلام الطاقات الفاضلة ووصلها بخير الله في الكون ودعاها إلى الاستمتاع به والشكر عليه ، فانطلقت النفوس قوية مشوقة إلى الاستفادة والتحصيل والاستمتاع بما خلق الله سبحانه .

ولنسمع ما يقوله « ليبولد فايس » : « محمد أسد » : « من بين سائر الأديان نجد الإسلام وحده يتيح للإنسان أن يتمتع بحياته الدنيا إلى أقصى حد من غير أن يضيع اتجاهه الروحي دقيقة واحدة ، وهذا يختلف كثيرا من وجهة النظر النصرانية أن الإنسان — حسب العقيدة النصرانية — يتعثر في الخطيئة الموروثة التي ارتكبها آدم وحواء ، وعلى هذا تعتبر الحياة كلها في نظر العقيدة على الأقل — واديا مظلما للأحزان .

إنه الميدان الذى تعترك فيه قوتان : الشر : المتمثل في الشيطان ، والخير : المتمثل في المسيح ، إن الشيطان يحاول بواسطة التجارب الجسدية أن يسد طريق النفس الإنسانية نحو النور الأزلي » ثم يقول : « إن عالم المادة شيطاني في أساسه بينما عالم الروح إلهي خير ، وإن كل مافي الطبيعة الإنسانية من المادة — أى الجسد كما يؤثر اللاهوت النصراني أو يدعوه —

(١) انظر ديوان شوقي قصيدة نهج البردة ١ / ٢٣٨ . ط الاستقامة .

فإنما هو نتيجة مباشرة لزلة آدم حينما سمع نصيحة الأمير الجهنمي للظلمة والمادة ، يعني إبليس ، من أجل ذلك كان حتما على الإنسان عندهم إذا شاء النجاة أن يلفت قلبه عن عالم اللحم إلى عالم الروح المقبل .

أما الإسلام فإننا لم نعلم فيه شيئا عن خطيئة أصلية موروثة من أجل ذلك ليس ثمة أيضا غفران شامل للإنسانية فيه ، وإنما المغفرة والغضب أمران شخصيان . إن كل مسلم رهينة بما كسب فهو يحمل في نفسه جميع وجوه الإمكان للنجاة الروحية وللخيبة الروحية . كما عبر عن ذلك القرآن ﴿ **كل نفس بما كسبت رهينة** ﴾ »[1] .

ثم يقول في مكان آخر : « لقد بقي الروح الأوروبي قرونا طويلة يرزح تحت عبء نظام ديني يطوى في نفسه احتقار الحياة واحتكار الطبيعة ... ومن الجلي أن مثل هذا النظام لا يحث على نشاط الجهود المتعلقة بالمعارف الدنيوية ولا بتحسين أحوال الحياة على الأرض »[2] .

كان هذا وهما ساذجا سيطر على الحياة ، وخيالا مضحكا ملك الأفكار والمشاعر وشل الطاقات والجهود الخلاقة في الإنسانية ، تلك المقولة التي ترسخ في النفس أن هيمنة المنهج الإيمانى على الحياة من شأنه طرد العلوم المادية ونتائجها الحضارية في الحياة ، ولقد شل هذا الفهم أشواق الإنسان للحياة والكد والكفاح والعمل ، كيف يتصور أن هذه الأكوان وتلك النعم خلقت لتعارك الإنسان وتنازله وتزرع الحسرة في نفسه .

لقد جاء الإسلام لا ليكون بديلا للعلم والحضارة ولا عدوا لهما ، وإنما جاء باعثا للعقل ومنبها للفكر وموجها للشهوة ومعدلا للسلوك والاعتقاد ، جاء إطارا ومحورا للعلم والحضارة فى سياج منهج متكامل فطري شامل لحرية العقل البشرى تجاه القوانين المادية وتجاه الكون المادي وقواه ومدخراته .

ومن ثم ازدهرت في ظل الإسلام حضارة كاملة بكل مقوماتها الإبداعية الحقة من الشمول والواقعية والهيمنة ، أتعبت الباطل ولوت أعناق العقائد الفاسدة ، وأتعبت الصهيونية العالمية من زمان بعيد ، وأتعبت كذلك الصليبية العالمية والاستعمار بكل صوره وأشكاله

---

(١) انظر في ذلك : الإسلام على مفترق الطرق ص ٢٨ . الآية رقم ٣٨ المدثر .

(٢) نفس المرجع ص ٤٠ .

أشواق الحرية :

لقد أعطت الرسالة الإسلامية أشواق الحرية للعالم المهضوم المظلوم ، الذى كان متاعا مباحا لطائفة من السفاحين المستغلين الذين استباحوا أعراض الناس وأموالهم ودماءهم .

يقول صاحب « قصة الحضارة » : « ولقد كان من المألوف أن يكون طعام الوحوش لحم الآدميين في الدولة الرومانية ، إن لم يكن هذا اللحم سبيلا للتسلية أو سببا للتلهي » [1] .

ثم يقول أيضا معبرا عن هذا الشره إلى القتل والاستمتاع به ، يضرب الأمثلة بالحفلات التى كانت تقام للقتال بالرماح والسيوف لإظهار الفروسية حتى يتمتع السادة الرؤساء بسيل من الدماء وذلك النزيف العارم من تلك الأجساد المباحة » . يقول : « لم يكن من المستغرب والمستنكر أن يكون جنود هذا المجتلد وأبطاله الأناس الذين يسوقهم سادتهم للنزال ، أو الأبطال الذين كان يغريهم بالمخاطر ما سينالونه من شهوة وعشق للنساء وتغني للشعراء ، وكانوا يعدون لتلك المجزرة بوافر المطعوم والمأكول وينزلون المجتلد في حلل فاخرة بعد أن يودع الواحد منهم زوجته وأولاده بالسيوف أو الرماح والدروع وواقيات الأكتاف بعد أن يصنفوا أسلحتهم » . ثم يقول : « وإذا حدث وجرح أحد المتبارزين جرحا شديدا في مبارزة فردية طلب من أقام المباراة إلى النظارة أن يدلوا برأيهم في البائس الصريع . فإذا رفعوا إبهامهم أو لوحوا بمناديلهم كان ذلك دليلا على أنهم يريدون الرحمة بالجريح . وإذا أخفضوا إبهامهم عرف أنهم يطالبون إلى الفائز أن يقتل المغلوب من فوره .

وإذا أظهر أحد المقاتلين أنه لا يحب أن يموت أثار بذلك غضب النظارة وأثيرت حميته وشجاعته بوخزه بالحديد المحمى ، وإذا أريد مجازر أكبر من ذلك هيئت لها معارك جماعية يتقاتل فيها الآلاف من الرجال بوحشية البائسين . وقد حدث أن أقام أغسطس من ذلك النوع ثمانية اشترك فيها عشرة آلاف مقاتل اقتتلوا فيها مجتمعين . ومن يسقط في المعركة ينخس بأسنان العصي الحادة ليعرفوا هل مات حقا أو أنه يتصنع الموت . فإذا ما وجد المحكم أن المتصارع يتصنع الموت كان عليه أن يقتله بضربات المطارق على رأسه ،

---

(١) قصة الحضارة ١٠ / ٣٤٧ .

وليتلقفه رجال آخرون بخطاطيف حادة ليخلوا منه الساحة ، ويقوم العبيد المغاربة بعد ذلك بجمع التراب المبلل بالدماء في مجارف ثم يعدون الساحة برمل نظيف لاستقبال من عليه الدور في الهوان »(١) .

ومن عجيب أن تلك المجازر كانت تقام بحضور المسيحيين رسل المحبة ودعاة السلام يتمتعون ويتلهون ويطعمون طعام المحبة قبل الصراع ، وكان القوم يدافعون عن تلك الوحشية(٢) .

وأما في فارس فقد كان الأمر يسير على نفس هذا الغرار ، فقد كان على الرعية أن تبذل حياتها طاعة للأكاسرة ، فكان الفلاح يؤدى ثلث ناتج أرضه وكان الصانع عليه أن يبذل من الضرائب ما يفوق جهده . حتى ترك الناس الفلاحة والصنعة لأنها لا تعيشهم . وفروا إلى الأديرة وكان الأكاسرة يستحلون كل شيء من الأعراض والأنفس والأموال ، ولقد تزوج « كسرى أبرويز » ثلاثة آلاف زوجة عدا العشيقات والإماء اللائى أحصاهن « ابن خلدون » المؤرخ العربي وغيره باثنتى عشرة ألفا ، وكان له خمسون ألف دابة وألف فيل ، وكان الملك يجلس على عرش من ذهب مطعما بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ . وكان تاجه الموشى بالفضة والمطعم بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ معلقا بسلسلة من ذهب وكان يزن واحدا وتسعون كيلوا جراماً (٣) .

وكان لكسرى وأعوانه الحق في فعل ما يشاءون . فكانوا يقتلون كل من يخشونه على ملكهم ، ولقد غضب « كسرى أبرويز » على « النعمان بن المنذر » ملك الحيرة فطرحه للفيلة ، وبلغ من عتوه أن أمر بقتل المقيدين في السجون . وكانوا ستة وثلاثين ألفا ، وأمر « شابور » عام ٣٤١ بذبح جميع المسيحيين الساكنين في الإمبراطورية فذبح على هذا الأمر ستة عشر ألفا من المسيحيين ، ولما غلب على أنطاكية أحرق جميع مبانيها ، ولما غزا « كسرى أبرويز » الرها وحلب ودمشق قتلت جيوشه تسعين ألفا من المسيحيين وأحرقت كثيرا من كنائسهم وكان مما يتسلى به « هرمز » قتل الأشراف والعلماء ، وسمى نفسه على هذا العادل(٤) .

---

(١) المرجع السابق ص ٥٥ .

(٢) انظر هذا الدين ص ٦٧

(٣) انظر مع الرسول ﷺ في سيرته وسيره .

(٤) مرجع سابق .

وشاء الله أن تتحرك البشرية المغلوبة على أمرها وتتململ الشعوب من هذا الظلم الصارخ وذلك بفضل شعاع الإسلام الذى سرى في أوصال الدنيا فأيقظها . فحركة الإصلاح الديني ، التي قام بها « مارتن لوثر » و « كالفن » في أوربا وحركة الإحياء التي تقتات منها أوروبا حتى اليوم ، وحركة تحطيم النظام الإقطاعي في أوروبا ، والانطلاق من حكم الأشراف ، وحركة المساواة وإعلان حقوق الإنسان التي تجلت في الماجنا كارتا في إنجلترا ، والثورة الفرنسية في فرنسا ، وحركة المذهب التجريبي التي قام عليها مجد أوروبا العلمي ، وانبعثت منها الفتوحات الهائلة في العصر الحديث ، وأمثالها من الحركات الكبرى التي يحسبها الناس أصولا في التطور التاريخي .... كلها قد استحدثت من ذلك المد الإسلامى الكبير وتأثرت به تأثيرا أساسيا عميقا(١) .

جاء فى « ضحى الإسلام » للدكتور « أحمد أمين » : « ظهرت بين النصارى نزعات يظهر فيها أثر الإسلام ، من ذلك أنه في القرن الثامن الميلادي ــ أى في القرن الثاني والثالث من القرن الهجرى ظهرت في سبتمانيا حركة تدعو إلى إنكار الاعتراف أمام القسيس وأن ليس للقسيس حق في ذلك ، وأن يضرع الإنسان إلى الله وحده في غفران ما ارتكب من إثم . والإسلام ليس له قسيسون ورهبان وأحبار فطبيعي ألا يكون فيه اعتراف » .

« وكذلك قامت حركة تدعو إلى تحطيم الصور والتماثيل الدينية ، وكان ذلك في القرن الثامن والتاسع للميلاد ــ أى في القرن الثالث والرابع الهجرى ــ ظهر مذهب نصراني يرفض تقديس الصور والتماثيل . فقد أصدر الإمبراطور الروماني « ليو » الثالث أمرا سنة ٧٢٦ يحرم فيه تقديس الصور والتماثيل ، وأمرا آخر في سنة ٧٣٠ يعد الإتيان بها وثنية . وكذلك كان « قسطنطين الخامس » و « ليو الرابع » . على حين كان البابا « جريجورى الثاني والثالث » و « جرمانيوس » بطريرك القسطنطينية والإمبراطورة « إيريني » من مؤيدى عبادة الصور . وجرى بين الطائفتين نزاع شديد لا محل لتفصيله وكل مانريد أن نذكره أن بعض المؤرخين يذكرون أن الدعوة إلى نبذ الصور والتماثيل كانت متأثرة بالإسلام . ويقولون : إن « كلوديوس » أسقف تورين الذى عين سنة ٨٢٨ م ، وحوالى ٢١٣ هـ ، والذى كان يحرق الصور والصلبان وينهى عن عبادتها في أسقفيته ولد وربى في الأندلس الإسلامية ...

كذلك وجدت طائفة من النصارى ، شرحت عقيدة التثليث بما يقرب من

---

(١) المصدر السابق ص ٥٥ .

الوحدانية وأنكرت ألوهية المسيح(١)» .

يقول « بريفولت » مؤلف كتاب « بناء الإنسانية » : (إن « ردجر بيكون » درس اللغة العربية والعلم العربي في مدرسة « أكسفورد » على خلفاء معلمية العرب في الأندلس ، وليس لـ « ردجر بيكون » ولا لسميه « فرنسيس بيكون » الذى جاء بعده الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي . فلم يكن « ردجر بيكون » إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوروبا المسيحية ، وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه اللغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة . والمناقشة التي دارت حول واضعي المنهج التجريبي هي طرف من التحريف الهائل لأصل الحضارة الأوروبية ، وقد كان منهج العرب في عصر « بيكون » قد انتشر انتشارا واسعا ، وانكب الناس في لهف على تحصيله في ربوع أوروبا ، من أين استقى « ردجر بيكون » ما حصله من علوم ؟ من الجامعات الإسلامية في الأندلس . والقسم الخامس من كتابه ـــ . cepus majus الذى خصصه للبحث في البصريات هو في الحقيقة ونفس الأمر نسخة من كتاب « المناظر لابن الهيثم »)(٢) .

ويقول « دريبر » الأستاذ بجامعة نيويورك في كتابه « النزاع بين العلم والدين » : « تحقق علماء المسلمين من أن الأسلوب العقلى والنظرى لا يؤدى إلى التقدم ، وأن الأمل في وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقودا بمشاهدة الحوادث ذاتها ، ومن هنا كان شعارهم في أبحاثهم ، الأسلوب التجريبي والدستور العملي الحي »(٣) .

والحقيقة أن الناظر المحقق في تاريخ البشرية يحس الواقع المؤثر للمنهج الإسلامي في ذلك التاريخ ، وفي الحركة العالمية الكبرى التي أيقظت العالم الحديث ، وأعطته قيمة علمية وإنسانية ، ولكنه يخيل إلينا في غفوة من الزمن أنه لا نصيب لنا في هذه النهضة الفكرية الراهنة ، ولا أثر لنا في إيقاظ هذا التيار المتدفق ، ولكن شمس الحقيقة لا يمكن أن تتوارى طويلا ، وقد سطعت لكل ذى عينين وظهر نورها للقاصي والداني ، وشعر المسلمون بدفئها الحاني وبإشعاعها المضيء فتنادوا على ضوئها ليأخذوا دروهم فى ركب الحياة تادة كراما كما كانوا .

---

(١) المصدر السابق عن ضحى الإسلام ص ١٦٤ ـــ ١٦٥ .

(٢) عن كتاب تجديد التفكير الديني في الإسلام تأليف الفيلسوف محمد إقبال ـــ ترجمة عباس العقاد ص ١٤٨

(٣) هذا الدين ص ٧٢ .

الحرية العقائدية والعقلية :

منح الإسلام للأفراد والشعوب حرية عقلية وعقائدية منقطعة النظير ، استطاعت الشعوب بتلك الحرية أن تنطلق في آفاق شتى وأن تطوف في كون الله الواسع لاكتشاف آلائه والاستفادة من نعمه ، وجاء ذلك على شوق الشعوب بعد أن طال ليلها الحالك ، وتحكمت فيها الديانات المحرفة ، تقول المستشرقة الألمانية « زغريد هونكة » عن حال الشعوب الأوروبية قبل الإسلام : « لقد أصبح استخدام العقل للبحث في الطبيعة وعجائبها ، بدلا من الاهتمام بتعاليم الديانة الجديدة (تعني المسيحية) ينظر إليه على أنه إساءة لاستخدام القوى التي منحنا إياها الله » .

ويدعم الأب « لاكتانيوس » هذا الرأى قائلا : « لو كان هناك احتمال للوصول إلى الحقيقة عن طريق البحث والدراسة ، لكنا قد توصلنا إليها من زمن بعيد ، وبما أنه لم يتوصل إليها ، برغم ما ضاع في سبيل ذلك من وقت وجهد ، فمن الواضح الجلي إذن أن الحكمة والحقيقة لا وجود لهما » .

وكما شاد المسيحيون الكنائس من أعمدة الآثار القديمة ، ومراجعها ، فقد اتخذوا كذلك مما تبقى من الفلسفة والعلم مادة لخدمة الديانة وأهدافها التي لا تقبل العقل . فالطريق الوحيد لتطهير العقل والروح هو طريقها إلى الله ، والضلال هو البحث عن الحقيقة في غير الكتاب المقدس والتفكير والتمحيص في أمور دنيوية ، وكان أكبر دليل مؤلم على هذا التفكير الغريب أعمدة الدخان وألسنة اللهب التي اندلعت فوق الإسكندرية ، كنز المعرفة الإغريقية على مر العصور ، والتي أصبحت حينذاك مركزا للكنيسة المسيحية إلى جانب روما . احمرت السماء بنيرانها فوق دلتا النيل وحرق نفائس ثمينة لا تعوض من الشعر والأدب والفلسفة والتاريخ والعلم والثقافة الإغريقية . حرقتها وأبادتها جموع من المسيحيين المتعصبين .

لقد ذهب جزء هام من المكتبة قبل ذلك عام ٤٨ ق . م . طعمة للنيران أثناء حصار « يوليوس قيصر » ... وفي عام ٣٨١ م استصدر البطريرك « ثيوفيلس » من القيصر « تيودور سيوس » إذنا بتخريب الرابيون أكبر ما تبقى من الأكاديميات وآخرها ، وإشعال النيران في مكتبته الثمينة ، وبهذه الطريقة فقدت البشرية جزءا هاما من ثقافتها لايمكن تعويضه . ولم تنته أعمال المتعصبين من المسيحيين عند هذا الحد بل ظهرت نزوات

الشباب الطائش في كل وقت . فإن صديقا لبطريرك أنطاكية « سيفروس » ، أعلن دون خجل ، أنهما في صدر شبابهما كأعضاء في رابطة مسيحية في الإسكندرية في القرن الخامس قد كافحا المتعلمين من الكفرة ، وهاجما مراكز عبادتهم محطما صور آلهتهم وبعثروا أثاثها وما كان عندهم . وهكذا اختفت مراكز الحضارة الإغريقية واحدا واحدا ، وأقفلت آخر مدرسة للفلسفة في أثينا عام ٥٢٩ م ، وأحرقت روما عام ٦٠٠ م مكتبة البلاتين ، وهدم ما تبقى من آثار أبنية القدماء .

وعندما دخل العرب المسلمون الإسكندرية عام ٦٤٢ لم يكن هناك منذ زمن طويل مكتبات عامة كبيرة ، وأما ما اتهم به بعضهم عمرو بن العاص من إحراقه لمكتبة الإسكندرية ، والذى يعبر به حتى اليوم عن صورة مفزعة للبربرية والوحشية ، فقد ثبت في أكثر من مناسبة وبعد أبحاث مستفيضة أنه مجرد اختلاق لا أساس له من الصحة . إن عمرو فاتح الإسكندرية ، هو نفسه عمرو الذى ضرب المثل في التسامح طوال فتوحاته ، وحرم النهب والسلب والتخريب على جنوده ، وعمل ما كان غريبا على فهم الشرقيين القدماء والمسيحيين على السواء . لقد ضمن صراحة للمغلوبين حرية ممارسة شعائرهم الدينية المتوارثة . وإليك نص عقد الصلح مع الشعوب المنهزمة على تلك المعاني : هذا الاتفاق يشمل كل الرعايا المسيحيين كهنة ورهبانا وراهبات ، وهو يضمن لهم الحماية والأمن أينما كانوا حسب مشيئتهم ، وبالمثل يحمي كنائسهم ومساكنهم ، وأماكنهم المقدسة ، وكذلك يحمي من يزور تلك الأماكن من جورجيا أو الحبشة ، يَعَاقِبةً كانوا أم نساطرة ، ويحمي كل من يؤمن بالنبي عيسى كل هؤلاء يجب مراعاتهم لأن الرسول ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ قد كرمهم في وثيقة تحمل خاتمه ، نبهنا فيها أن نكون معهم رحماء وأن نضمن لهم أمنهم .

هذه صورة حية لتسامح المسلمين وسماحة عمرو ، وهي ليست بالوعود الجوفاء ، فقد احترمها المسلمون نصا وروحا . لقد كان منهج المنتصرين الذين يعلمون الشعوب كيف تكون الإنسانية والحرية ﴿ **لا إكراه فى الدين** ﴾[1]هذا ما أمر به القرآن الكريم ، وبناء على ذلك فإن العرب المسلمين لم يفرضوا على الشعوب المغلوبة الدخول في **الإسلام** ، فالمسيحيون والزرادشتية واليهود الذين لاقوا قبل الإسلام أبشع أمثلة للتعصب الديني وأفظعها ، سمح لهم جميعا دون أى عائق يمنعهم ، بممارسة شعائر دينهم . وترك المسلمون

---

(١) البقرة / ٢٥٦ .

لهم بيوت عبادتهم وأديرتهم وكهنتهم وأحبارهم دون أن يمسوهم بأى أذى . أو ليس هذا منتهى التسامح ؟ أين روى التاريخ مثل تلك الأعمال ومتى ومن ذا الذى لم يتنفس الصعداء بعد الاضطهاد البيزنطي الصارخ وبعد فظائع الأسبان واضطهادات اليهود ؟ .

ثم استطردت تقول : « الأديرة المسيحية في سورية كادت أن تنمحي في عصر الحكم المسيحي بينما وصلت إلى ذروتها وعظمتها في الدولة الإسلامية أو ليس هذا بغريب ، والحضارة الفارسية لم تكن لتخرج للوجود على يد الرازى وابن سينا مثلا ، لو لم تمنحها الحضارة الإسلامية طاقات جديدة ممتازة .

وتماما كما اجتمعت كتب المسلمين والمسيحيين واليهود على رفوف مكتبات العرب متحابة تخدم الجميع على اختلاف معارفهم وعقائدهم في بناء النهضة العلمية ، وبروح التسامح نفسه لم يخجل العرب أن يدخلوا مدارس غير المسلمين وأن ينهلوا من منابع المعارف الهندية أو الإغريقية الشيء الكثير وهم في عملهم هذا لا يخالفون تعاليم الرسول أبدا .

الإسلام دين بعث وحياة :

إعادة الثقافات وإعادة الأمم شيء عسير ومستبعد خاصة إذا كانت تلك الثقافات وهذه الأمم لا تقوم على منهج سليم ، أو على أساس عقائدي مستقيم يساير العقل ولا يصادمه ، وجل الحضارات وعامة الثقافات القديمة الناظر فيها اليوم يجد أن الزمن قد تخطاها ، والبشرية قد تجاوزتها إدراكا وعلما وحياة وثقافة ، ولهذا لم تعد مقبولة ، وليس لها مكان في العصر الحاضر وفي المستقبل ، اللهم إلا من حيث الاستفادة من الدروس والعبر التي دائما ما تؤخذ من التاريخ .

فإذا أردنا مثلا أن نقول هل يمكن إعادة حضارة فارس ، أى الدولة الفارسية ؟ وهل تكون مقبولة بمعبوداتها وعقائدها وسيطرتها ونظامها الأسرى والاجتماعي والطبقي والرياسي ! هل يمكن أن يرجع كسرى مستبيح الدماء ومستحل الأعراض ، ومصادر الأموال وجامع الثروات ، وهل يتوافق ذلك مع العقل في القرن العشرين فضلا عما يستقبل من القرون ؟

وهل يمكن إعادة الدولة الرومانية بمنطقها القديم واستعبادها وقهرها وظلمها ، وأمراضها وعللها التي استطاعت الشعوب أن تتخطاها وتقفز عليها . وهل يمكن إعادة الفرعونية الطاغية وتسلطها على الناس وعلى البشرية كما حكي ذلك القرآن الكريم في قوله

تعالى : ﴿ **إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبنائهم ويستحي نساءهم** ﴾ (١) .

هل يمكن ذلك وهل يمكن أن ترى البشرية اليوم ويتحمل ضميرها حاكما متسلطا يقتل رجال أمته وأبناءها ، ويستحي بناتها دون اعتراض ولا إزعاج ولا احتجاج من الأمم ، ومن الضمير العالمي على ضعفه ووهنه ؟ .

ولكننا نستطيع أن نقول وبغير ميل أو تجني : يستطيع الإسلام بحضارته وخلقه ونظامه أن يعود ويجد البشرية في شوق إليه وفي لهفة إلى تعاليمه ومثله .

بل إن البشرية اليوم لم تستطع أن تتطاول إليه فضلا عن تجاوزه أو التسابق معه . ولهذا نستطيع أن نعلل وببساطة ، توجس الباطل من ظهور الإسلام وخروجه إلى الحياة ، وبناء لبناته وبزوغ ضوئه . وتستطيع أن تعلل الحرب الدائرة الآن الباردة وغير الباردة على تعاليمه ومعتنقيه والمنادين به ، وتستطيع أن تعلل أرق أعداء الحق وسهدهم ، ورصدهم الأموال لمن يأتي به حيا أو ميتا . لأن الحق إذا ظهرت شمسه ورفرفت أعلامه توارى الباطل وتنكست راياته ، يوضح هذا القانون قوله تعالى : ﴿ **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون** ﴾(٢) ﴿ **قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب . قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد** ﴾(٣) ﴿ **وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا** ﴾ (٤) .

وقد تجد كثيرا من الغربيين اليوم يصرح بهذا ويعلنه تقديرا أو ترهيبا ، ترغيبا أو تخويفا ، تبشيرا أو تحذيرا .

يقول العلامة « رينيه ميليه » : « لقد أفل نجم المدنية الإسلامية بعدما أثمرت وأينعت فترة طويلة من الزمن ، ويكفي هذه المدنية نفخة من نسيم الحياة الجديدة لتسترجع جمالها وعظمتها وجدتها . إن تلك الصبغة العامة اللينة التي اتصفت بها مبادئ الإسلام هي التي جعلته يقبل ضروب المدنية ، ولا ينافيها بل يقابلها بصدر رحب ، ويقول : إن العلم مهما اتسعت آفاقه ، فلا يزال أمامه عالم غامض ، وإنه لا يمكن للعلم أن يمحو سلطان الأديان

---

(١) القصص / ٤ .
(٢) الأنبياء / ١٨ .
(٣) سبأ / ٤٨ ، ٤٩ .
(٤) الإسراء / ٨١ .

على النفوس ، وعلى ذلك فلا أرى حدا لبقاء الإسلام . ذلك الدين الذى أتى بأحسن العقائد ملاءمة للفطرة ، والذى سعد حظه بأن امتد ظله على ضفاف البحر الأبيض تحت سماء صافية الأديم لم تتلبد بالغيوم ، فظل نوره متلألئا في تلك البلاد الواسعة الأطراف ، ولم تستطع الأحداث أن تطفىء ذلك النور الرباني الساطع . إن مبدأ التفريق بين عالم المادة وما وراء المادة قد تنبه المسلمون إليه ، فهم يقبلون على علومهم وعلى علومنا ، ولا يرون فيها ما يناقض دينهم المشهور بالتسامح »[1] .

ويقول « فونتيه » الأستاذ بكلية جنيف عند عرضه لحاضر العالم الإسلامى ومستقبله في محاضرته : « إن الإسلام ينتشر في أفريقيا بنفسه بواسطة المسلمين أنفسهم »[2] .

نعم ، الإسلام ينتشر بنفسه لقوة مبادئه ولمخاطبته الفطرة الإنسانية السليمة ولصبغته الإنسانية العالمية ، ولإشراقه الثقافي العقلي الذى يطلق طاقات الإنسان الحيوية ، ولضبطه للغرائز الحيوانية في الإنسان من غير أن يضيع أشواقه في الحياة .

وقد تحدث بصراحة عن طبيعة الإسلام وحيويته « جورج برنارد شو » في بحث له بعنوان « الإسلام بعد مائة عام » يقول : « إن المستقبل العاجل عندما يريد الرجال المفكرون أن يلجأوا إلى دين يحمي الفضيلة ، ويقي المجتمع ويكون سببا للحياة السعيدة في البشر ، فسيجدون الإسلام هو الدين الوحيد الذى يضمن لهم التقدم والنجاح ، وأول البراهين على ذلك ، أن الإسلام لا يمنع أى تقدم سواء كان النهضة الفلسفية أو الكيماوية . فالإسلام هو الدين الذى نجد فيه حسنات الأديان كلها . ولا تُحدُّ حسناته . والإسلام دين حرية لا استعباد . وقد قرر أخوة الإسلام منذ ألف وثلثمائة وخمسين سنة ، وهو المبدأ الذى لم يعرف عند الروم والسابقين ، ولا عند الأوروبيين والأمريكيين الحاضرين .

وإذا سألت العربي أو الهندي أو الفارسي أو الأفغاني ، من أنت ؟ يجيبك : أنا مسلم . أما الغربي إذا سألته من أنت ؟ قال : أنا إنجليزى أو طلياني أو فرنساوى .

فالقرآن يوحد بين أهل العقيدة المشتركة ، دون أن يجعل أى فرق بينهم بسبب

---

(١) آفاق جديدة للدعوة الإسلامية ص ٢٠٢ .

(٢) مجلة المقتبس م ٦ ص ٣٧١ ، والمرجع السابق ص ٩٧ .

أوطانهم أو جنسياتهم . لقد نصب الإسلام شابا أسود البشرة أميرا على جيوش المسلمين ، وفيها كبراؤهم ، فالحكومة الديمقراطية لم تعرف إلا في الإسلام منذ ١٣٥٠ عاما ، ولكن الغرب بقي بجهله إلى هذه الساعة . والإسلام حرم الربا وجعل من المستحيل انحصار الثروة عند أقلية من الناس .

هذه حقائق تجبرنا على الاعتقاد بأن الدنيا بأكملها ، وإنجلترا على الأخص ستقبل الإسلام وإن هي لم تقبله باسمه الصريح فستقبله باسم مستعار » [1] .

وفي هذا المعنى يقول اللورد « هدلي » : « إنه لو ندبت لجنة من الإنجليز الأكفاء لفحص الدين الصالح لأن يتدين به العالم كله لأجمعوا على اختيارهم الإسلام » .

لقد تميز الإسلام بعقيدته السهلة الفطرية الملائمة لطبيعة الإنسان ، وتميز كذلك بإحاطته وشموله ، فأعطى الحياة الدنيا قسطها من الاعتبار ، فترقت العلوم والفنون والآداب باجتهاد المعتنقين له ، في حين عجزت المسيحية والأديان الأخرى التي عاصرته عن إعطاء الإنسان ما يحب ويصبو إليه بل التفتت إلى الأحقاد والفتن والتقاطع والتدابر وظلم الآخرين واضطهادهم ، فتعفنت الضمائر وتأسنت الأرواح واختلت القيم والموازين والمقاييس ، وساد الظلام والعبودية في حين نعمت طبقات مترفة استباحت كل شيء هذا كله على مسمع ومرأى من الديانات السماوية التي كانت قد أدركها التجريف وسرى فيها الضعف ، وفقدت سيطرتها على النفوس واستحالت جامدة لا حياة فيها ولا روح تبعث همة ، أو تنهض عزيمة أو توقد فكرا .

في حين أن الإسلام جاء عقيدة استعلاء من أخص خصائصها أنها تبعث في روح المؤمن بها إحساس العزة من غير كبر ، وروح اليقظة في غير تهور ، وشعور الاطمئنان في غير تواكل ، فطهر الحياة وخلص الأرواح من الأوهام والخرافة ، ومن العبودية والرق ومن الفساد والتعفن ، ومن القذارة والانحلال ومن الظلم والطغيان ومن التفكك والانهيار ، ومن فوارق الطبقات واستبداد الحكام واستذلال الكهان .

وأخذ دوره في العالم فبناه على أساس من العفة والنظافة والإيجابية والحرية والجدة ، ومن المعرفة واليقين بالله والعدالة والكرامة ، ومن العمل الدائب لتنمية الحياة ، وإعطاء كل

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٢ .

ذى حق حقه في الحياة .

هذه المبادىء وهذا الدور السامق المتميز تخلت عنه البشرية بسبب انحطاط المسلمين وتخليهم عن القيادة التي يفرضها عليهم منهجهم ، وتنحيهم عن الوصاية التي يكلفهم بها ربهم . وتركهم للتبعات التي ينيطهم بها مبدأهم .

واليوم يحس العالم بمدى حاجة البشرية الملحة إلى تغيير مناهج الإنسانية ، وردها إلى الهدى الذى انبثق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن الجاهلية إلى المعرفة الحقة النافعة ، كما يشعر العالم بمدى الخسارة التي حلت بالإنسانية جمعاء لا بالمسلمين وحدهم بسبب فقدهم لهذا المنهج السامي والوحيد .

وهذه هي بشائر البعث الإسلامي الذي مازالت تعاليمه حية محفوظة . وما زال التطلع إليه كمنقذ وكمخلص تزداد يوما بعد يوم . وصدق الله : ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد** ﴾ (1) .

وبعث الحضارات وإحياء التعاليم تأتي للحاجة إليها . وكأنها من الحياة على قدر ، وهذه سنة الحياة قال تعالى : ﴿ **ثم جئت على قدر يا موسى** ﴾(2) ﴿ **سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا** ﴾(3) .

نعم تأتي على قدر ، وتأتي للحاجة إليها . فقد رجع الناس اليوم ليعكفوا على أصنام الأموال ويتجهوا نحو أوثان منحوتة أو منجورة أو مقبورة أو منصوبة ، ولايزال الهوى يعبد من دون الله ولا يزال السلاطين والزعماء والأحزاب السياسية أربابا من دون الله . وهناك أديان بغير اسم الأديان ، وملل لا تقل في جورها وعدوانها وعبثها بعقول أتباعها ولعبها بأفكارهم عن الأديان القديمة . وهي النظم السياسية والنظريات الاقتصادية التي يؤمن بها الناس كدين ورسالة ، وهناك العصبيات الجنسية والوطنية والديموقراطية والاشتراكية والدكتاتورية والشيوعية التي يعطيها الناس ولاءهم وجهدهم وطاقاتهم ، وهي أقل مسامحة لمن لا يدين بها وأشد قسوة على منافسيها وأقل عطفا على غيرها من الأديان الجاهلية ، والاضطهاد السياسي اليوم أشد فظاعة وعنفا من الاضطهاد الديني في القرون المظلمة .

---

(1) فصلت / 53 . (2) طه / 40 . (3) الأحزاب / 38 .

فالبشرية اليوم تحتاج إلى بعث جديد ، وإلى منهج جديد ينقذها من هذه الوهدة السحيقة . يقول صاحب كتاب « هذا الدين » : « المعرفة بحقائق العالم اليوم ذات أهمية قصوى ، فهي تعطي البشرية أملا قويا في إعادة المحاولة الإسلامية ، وتجعل من واجبها — بل تجعل من حقها — أن تتطلع إلى هذه الصورة الوضيئة الممكنة ، وأن تظل تتطلع ، فهي صورة من شأنها أن تزيد من ثقة البشرية بنفسها ، وبفطرتها وبمقدرتها الكامنة التي يمكن — عندما يوجد المنهج الصالح — أن تبلغ بها ذلك المستوى الإنساني الرفيع ، الذى بلغته مرة في تاريخها ... فهى لم تبلغه بمعجزة خارقة لا تتكرر ، إنما بلغته في ظل منهج من طبيعته أن يتحقق بالجهد البشرى وفي حدود الطاقة البشرية .

ولقد انبثق من هذا المنهج ذلك الجيل الفارع العظيم من قلب الصحراء الفقيرة الموارد ، المحدودة المقدرات الطبيعية والاقتصادية والعلمية ... » ثم يقول : « ولقد ظل هذا المنهج — على ما ألم به على مدى الزمن من انحرافات ومن خصومات ومن همجيات — يبعث بنماذج من الرجال ، فيها من ذلك الجيل الأول الفارع مشابهة وفيها منه آثار وانطباعات .. وظلت هذه النماذج تؤثر فى الحياة البشرية تأثيرات قوية ، وتؤثر في خط سير التاريخ البشرى ، وتترك من حولها ومن ورائها تيارات ودوامات هائلة تطبع الحياة ، وتلون سماتها . وما يزال هذا المنهج قادرا في كل حين ، على أن يبعث بهذه النماذج كلما بذلت محاولات جديدة في تطبيقه وتحكيمه في الحياة . على الرغم من جميع المؤثرات المضادة وعلى الرغم من جميع المعوقات من حوله وفي طريقه .

والسر الكامن فيه هو تعامله المباشر مع الفطرة ، واستمداده المباشر من رصيدها المكنون وهو رصيد هائل ورصيد دائم ، وحيثما التقى مع هذا المنهج تفجرت ينابيعه الثرية وفاض فيضه المكنون » (١) .

نعم ، هذا المنهج هو نفسه الذى حمله المسلمون في فتوحاتهم الأولى التي لخصها أحد رسلهم وهو « ربعي بن عامر » في مجلس « يزدجرد » ملك الفرس بقوله : « إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » .

وهو نفسه الذى يعرفه العالم اليوم وما زالت ترن في أذنه مبادئه وآلاؤه .

---

(١) هذا الدين للأستاذ سيد قطب ص ٤١ .

يقول « جورج سارتون » في كتابه « الشرق الأوسط في مؤلفات الأمريكيين » :

« إن المسلمين يمكن أن يعودوا إلى عظمتهم الماضية وإلى زعامة العالم : السياسية والعلمية ، كما كانوا من قبل ، إذا عادوا إلى فهم حقيقة الحياة في الإسلام ، وإلى العلوم التي حث الإسلام على الأخذ بها . وأن تلك الهزائم التي مني بها الإسلام لم تزعزع ثقة المسلمين بأنفسهم بل على العكس زادت من إيمانهم وأن شعوب الشرق الأوسط قد سبق لها أن قادت العالم مرتين في مرحلتين طويلتين من مراحل التقدم الإنساني طوال ألفي سنة على الأقل . قبل أيام اليونان . ثم في العصور الوسطى مدة أربعة قرون تقريبا ، وليس ثم ما يمنع تلك الشعوب أن تقود العالم ثانية في المستقبل » (١) .

ويقول « هانوتو » وزير خارجية فرنسا سابقا : « لا يوجد مكان على سطح الأرض إلا واجتازه الإسلام واخترق حدوده وانتشر فيه ، فهو الدين الوحيد الذى يميل الناس إلى اعتناقه بشدة تفوق كل دين آخر » (٢) .

والحقيقة التي لا مراء فيها التي تخترق القلوب وتبعث العزائم أن المنهج الإسلامي يقابل في دنيا الناس منهج البشر ، ومنهج الله له طبيعته ونوره وله طلاوته وله عمله في دنيا الخلق كما أن له سطوته وحزمه ، وصدق الله : ﴿ **ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين** ﴾ (٣) .

والحق في طبيعته من الوضوح والظهور ما يكفى للإقناع والإبداع بحيث لا يحتاج إلى بيان طويل أو دعوة مستميتة . إنما يحتاج إلى لفت الناس إليه وكشف الغطاء عنه ، وإفساح المجال لإشعاعه الوهاج ، وإظهار مثله وتربية رجاله ، وإعلان تعاليمه ، فتعاليم الله وهديه كالشموس بالنسبة إلى المصابيح ، وكالكواكب بالنسبة إلى الشموع . هذه نورها دائم محيط شاهق ، وتلك موقوتة زائلة عما قريب ، ضعيفة هزيلة .

وكذلك رجال الإسلام عمالقة بالنسبة إلى غيرهم ، والفرق الوحيد هو الإسلام الذى يعطي الرجال قوة والتعاليم حياة واستمرارية وديمومة لا تزول .

---

(١) آفاق جديدة ص ١٠٤ .

(٢) مجلة المجتمع الكويتية ٢٦ فبراير ١٩٨٥ م . العدد ٧٠٦ ص ٤٩ .

(٣) آل عمران / ١٣٩ .

يقول « ليوبولد فايس » : « محمد أسد » : « لا نستطيع أن نقول إن الثقافة الإسلامية مثل سائر الثقافات خاضعة لمرور الزمن ومقيدة بقوانين الحياة العضوية . ثم إن ما يظهر انحلالا في الإسلام ليس في الحقيقة إلا موتا وخلاء يحلان في قلوبنا ، التي بلغت من خمولها وكسلها أنها لا تستمع إلى الصوت الأزلي ، ثم ليس ثمة علاقة ظاهرة تدل على أن الإنسانية ـــ مع نموها الحاضر ـــ قد استطاعت أن تشب عن الإسلام بل إنها لم تستطع أن تخلق نظاما خلقيا أحسن من ذلك الذى جاء به الإسلام ، إنها لم تستطع أن تبني فكرة الإخاء الإنسانى على أساس عملي كما استطاع الإسلام أن يفعل حينما أتى بفكرة القومية العليا : (الأمة) ، إنها لم تستطع أن تشيد صرحا اجتماعيا يتضاءل التصادم والاحتكاك بين أهله فعلا على مثال ما تم في النظام الاجتماعي في الإسلام . إنها لم تستطع أن ترفع قدر الإنسان ، ولا أن تزيد من شعوره بالأمن ولا في رجائه الروحي ، ولا في سعادته .

ففي جميع هذه الأمور نرى الجنس البشرى في كل ما وصل إليه مقصرا كثيرا عما تضمنه المنهج الإسلامى فأين ما يبرر القول إذن بأن الإسلام قد ذهبت أيامه ؟ أذلك لأن أسسه دينية خالصة والاتجاه الديني زى غير شائع اليوم ؟ ولكن إذا رأينا أن نظاما بني على الدين قد استطاع أن يقدم منهاجا عمليا للحياة أتم وأثمن وأصلح للمزاج النفساني في الإنسان من كل شيء آخر يمكن للعقل البشرى أن يأتي به من طريق الإصلاح والاقتراح ، أفلا يكون هذا نفسه حجة بالغة في ميزان الاستشراف الديني ؟

لقد تأيد الإسلام ـــ ولدينا جميع الأدلة على ذلك ـــ بما وصل إليه الإنسان من أنواع الإنتاج الإنساني لأن الإسلام كشف عنها وأشار إليها على أنها مستحبة قبل أن يصل إليها الناس بزمن طويل .

ولقد تأيد أيضا على السواء بما وقع أثناء التطور الإنساني من قصور وأخطاء وعثرات لأنه كان قد رفع الصوت عاليا واضحا بالتحذير منها قبل أن تتحقق البشرية أن هذه أخطاء . وإذا صرفنا النظر عن الاعتقاد الديني من وجهة نظر عقلية محض وجدنا كل تشويق إلى أن نتبع الهدى الإسلامي بصورة عملية وبثقة تامة » (١) .

إن الإسلام اليوم محجوب عن الفطر السليمة في العالم بأسباب كثيرة ، أولها :

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص ١١٢ ـــ ١١٣ .

كسل المسلمين وتخليهم عن رسالتهم ، وثانيا : الأحقاد الصليبية الجاهلة ، وثالثها: الأحقاد السياسية والأطماع العدوانية ، ورابعها: وهو ذهاب سطوة المسلمين وعدم تحديد هويتهم اليوم ، وهذا السبب جلب التكالب وحرض المغامرين من أهل الباطل على استباحة الساحة الإسلامية شعوبا وتعاليما . يدفع ذلك الأحقاد الصليبية والأطماع السياسية والعدوانية والخوف والوجل من ظهور الحق الإسلامى وصدق الله ﴿ ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ﴾[1] .

الإسلام والقدرة على الإبهار والإعجاب :

من صفات الإسلام القدرة على الإبهار وانتزاع الإعجاب من النفوس ، ولا يعني هذا أنه لا يعادى الباطل أو يعارضه . ولكن تكون معارضته عن أسباب أخرى غير الاحتقار أو الكره الحقيقي المتسبب عن أشياء مهلكة للنفس والطاقات الصالحة ، وقد عارض الإسلام الباطل ونازله في كل ميدان . وتجربة القرآن في الإبهار مع أعتى القلوب وأقسى الأفئدة خير شاهد على ذلك الذى نقول ، روى البيهقي عن كفار قريش مواقف نذكر منها موقفا يدل على انبهار وحيرة قريش في أمر رسول الله ، وفي أمر القرآن الكريم : روى : « أن الوليد بن المغيرة اجتمع ونفر من قريش وكان ذا شأن فيهم ، وقد حضر الموسم (يعني موسم الحج) فقال : إن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ، ويرد قول بعضكم بعضا . فقيل : يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيا نقوم به ــ فقال : بل أنتم فقولوا وأنا أسمع ، فقالوا : نقول : كاهن ، فقال : ما هو بكاهن ، رأيت الكاهن فما هو بزمزمة الكهان ، فقالوا : نقول : مجنون ، فقال : ما هو بمجنون ، ولقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . فقالوا : نقول : شاعر فقال : ما هو بشاعر قد عرفنا الشعر برجزه وهجزه وقريضه ومقبوضه ، ومبسوطه ، فما هو بالشعر . قالوا : فنقول ساحر ، قال : ما هو بساحر قد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثه ولا بعقده . قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجني فما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول أن تقولوا : هذا ساحر ، يفرق بين المرء

---

(١) البقرة / ٢١٧ .

ودينه وبين المرء وأبيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وأخيه وبين المرء وعشيرته» (١) .

نعم ، كان سحر الرسالة وإبهار القرآن هو الذى حير ألبابهم ، وسلب أفئدتهم الصواب . وهو الذى فرق بين الحق والباطل ، وبين النور والظلام ، ولكنه العناد والحسد والبغي .

وروى البيهقي لقاء بين عتبة وبين رسول الله ﷺ فقال : قال عتبة : يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه إياها ويكف عنا ، وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون . فقالوا : بلى يا أبا الوليد فقم إليه وكلمه . فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال : يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من الشرف في العشيرة والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع مني حتى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها .

قال : فقال له رسول الله ﷺ : « يا أبا الوليد أسمع » ، قال : يا بن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يتداوى منه ، أو كما قال له . حتى إذا فرغ عتبة قال له النبي ﷺ « أفرغت يا أبا الوليد ؟ » قال : نعم ، قال : « اسمع مني » قال : أفعل . فقال رسول الله ﷺ : ﴿ **حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون** ﴾ فمضى رسول الله ﷺ يقرأها فلما سمع بها عتبة أنصت لها وألقى بيده خلفه أو خلف ظهره معتمدا عليها ليسمع منه . حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة فسجدها ثم قال : « سمعت يا أبا الوليد ؟ » قال : سمعت ، قال : « فأنت وذاك » . ثم قام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به . فلما جلسوا قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائي أني والله قد سمعت قولا ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا الكهانة ، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي ، خلوا بين الرجل وبين ما هو

---

(١) سيرة ابن كثير ١ / ٤٩٩ ، ٥٠٠ .

فيه واعتزلوه . فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ . فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به . قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه . قال : هذا رأيي لكم فاصنعوا ما بدا لكم .

وروى البيهقي عن الزهرى قال : « حدثت أن أبا جهل وأبا سفيان والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليسمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته فأخذ كل رجل منهم مجلسا ليستمع منه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا أصبحوا وطلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا ، ثم انصرفوا حتى إذا كان الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه . فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا .

فلما كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فقالوا : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا » (١) .

إنه مما يلفت النظر أن الإعجاب بالهداية وبالآيات يغلب الشهوات ويغلب الكبرياء ، ويغلب الأحقاد والأضغان ويقود العقول الغلف ويحير الألباب ويدهش القلوب ، وهذا لطبيعة الرسالة وجلالها ، وفطرتها ونقائها وطلاقتها وسحرها . هذا لأنها تنادى فيها اللحم والدم والبصر والبصيرة والقلب والروح والمظهر والجوهر ، كانت هذه الرسالة تنادى في المشرك شيئا لا يملك كتمانه ، وأمرا لا يمكن مواراته وطبيعة لا يمكن التغلب عليها ، فهو منها في دوى وفي حيرة وفي صراع وفي تمزق ، يظل هكذا حتى يستريح بالإيمان ، أو ينفجر بالكفر ويتمزع بالقلق .

وليس الإبهار والإعجاب بالقرآن وقفا على العرب ، وإنما تعدى ذلك إلى الآفاق في القديم والحديث فاخترق الدول والأمصار ، ودخل القرى والقفار ، وبلغ ما يبلغه الليل والنهار ، فهو الذى قهر الفرس والرومان ولبس الجيوش فكم من أمة غلبت وعادت . وكم من ممالك قهرت ثم قامت ، ولكنها لسحر الإسلام وخواصه وعدله وفطرته وطبيعته دخلت الأمم في دين الله أفواجا كما قال القرآن ، فكان هذا هو النصر وهو الفتح وهو الاستقرار

(١) المرجع السابق ١ / ٥٠٤ ، ٥٠٥ .

وصدق الله : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا** ﴾ (١) .

وكان أن استمر هذا في التاريخ واستقر هذا على الزمان ، واخترق هذا الدهور والعصور ، فعمله اليوم كعمله بالأمس ، وسحره في الحاضر كسحره في الماضي ، فنرى رجلا كا « أرنست رينان » يمدح القرآن في كتابه « تعليقاتي على تاريخ الأديان » فيقول : « إن القرآن هو أساس الإسلام ، وقد احتفظ بكينونته القديمة دون أن يعتريه أقل تبديل أو تحريف ، وعندما تسمع آياته وما فيها من فصاحة وسحر تأخذك رجفة الوله والوجد . وبعد أن تتوغل في دراسة روح التشريع المنطوية عليه بعض تلك الآيات الإلهية لا يسعك إلا أن تعظم هذا الكتاب العلوى وتقدسه » (٢) .

أما العلامة « فيني » الذى كتب مقدمة هذه الترجمة فإن مفاهيمه ربما كانت أكثر عمقا ووضوحا حيث يقول : « إن القرآن ليس بكتاب ديني فقط . بل كتاب علم وآداب نجد فيه بيان الحياة السياسية والاجتماعية ، حتى أنه يرشد الإنسان إلى وظائفه اليومية ، والأحكام السياسية التي إن لم توجد في السنة والتي لا تكون واضحة بالقرآن والسنة توجد في الفقه الذى هو علم الحقوق » (٣) .

وأما المستشرق الألماني « ولفانج لانجرميش » فيقول : « إن القرآن الكريم أكثر الكتب التي تقرأ في العالم ، وهو أيسرها حفظا ، وأشدها أثرا في الحياة اليومية لمن يؤمن به . فليس طويلا كالعهد القديم ، وهو مكتوب بأسلوب رفيع أقرب منه إلى الشعر منه إلى النثر . ومن مزاياه أن القلوب تخشع عند سماعه ، وتزداد إيمان وسموا ، وأوزانه ومقاطعه كثيرا ما قورنت بدقات الطبول وأصداء الطبيعة ، والمسيحي واليهودى الذى يقرأ القرآن لا يجد نفسه غريبا عما جاء في آياته المنزلة ، ولا يعترف القرآن بأن عيسى هو ابن الله أو أنه قتل مصلوبا ولو اعترف المسلمون بأن عيسى هو ابن الله لتناقض ذلك مع وحدانية الله . هذه الوحدانية التي هي أحد أركان الإسلام .

---

(١) سورة النصر .

(٢) آفاق جديدة ص ١٠٧ نقلا عن كتاب الديانات والحضارة لطه مدور بيروت ١٩٥٦ .

(٣) المنار م ٣ جـ ٢ .

ومن الملاحظ أن القرآن يتسم بطابع عملي فيما يتعلق بالمعاملات بين الناس ، وهو فى ذلك يقول : ﴿ **إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه**﴾[1] . وهذا التوفيق بين عبادة الإله الواحد وبين التعاليم العملية . جعل القرآن كتابا فريدا ووحدة متماسكة »[2] .

نعم ، نرى عمل القرآن وعمل الإسلام في القلوب بعد أربعة عشر قرنا من الزمان هو نفسه عمله من أول يوم قوى أخاذ مبهر ، ونرى كذلك عظمة الرسول ـ ﷺ ـ المستمدة من القرآن ملفتة للأبصار والعقول والألباب ، ما زالت تعمل عملها ، تقود وتوجه وتعلم وتتقدم ركب الفتح ورسل الهداية وجند الدعوة .

يقول « لا مارتين » العالم الفرنسي الكبير : « إن حياة مثل حياة محمد وقوة كقوة تأمله وتفكيره ، وجهاده ووثبته على خرافات أمته ، وجاهلية شعبه وبأسه في لقاء ما لقيه من عبدة الأوثان وإيمانه بالظفر وإعلاء كلمته ورباطة جأشه لتثبيت أركان العقيدة الإسلامية . إن كل ذلك أدلة على أنه لم يكن ليضمر لأحد أذى أو يعيش على باطل ، فهو فيلسوف وخطيب ورسول ومشرع ، وهاد للإنسان إلى العقل ، وناشر للعقائد المعقولة الموافقة للذهن واللب ، وهو مؤسس دين لا فرية فيه ولا صورة فيه ومنشىء عشرين دولة في الأرض وفاتح دولة في السماء من ناحية الروح والفؤاد فأى رجل أدرك من العظمة الإنسانية مثلما أدرك ، وأى آفاق بلغ أى إنسان من مراتب الكمال ما بلغ محمد ... »[3] .

وهذا « تولستوى » الروسي قد أعجب بشخصية الرسول ـ ﷺ ـ فقال : « لا ريب أن النبي محمد (عليه السلام) من عظماء الرجال المصلحين الذين خدموا الإنسانية ، وخدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة ، ويكفيه أن هدى أمة برمتها إلى نور الحق ، وجعلها تخضع للسكينة والسلام . وتفضل عيشة الزهد ، ومنعها سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية ، وفتح لها طريق الرقي والمدنية وهو عمل عظيم لا يقوم به إلا شخص أوتي قوة ، ورجل مثل هذا جدير بالاحترام والإكرام » .

وقال « فارس الخورى » المسيحي العربي عن الرسول ـ ﷺ ـ : « إن محمدا

---

(١) البقرة / ٢٨٢ .

(٢) مقال (اخترت الدفاع عن الإسلام) مجلة المختار مجلد ١٩٥٦ ص ٥٧ .

(٣) أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية ، أحمد علي الملا ، ص ١٠٣ .

أعظم عظماء التاريخ في العالم ، ولم يجد الدهر بمثله والدين الذى جاء به أوفى الأديان وأكملها » ثم يقول : « إن محمدا أودع شريعته المطهرة أربعة آلاف مسألة علمية واجتماعية وتشريعية ولم يسع علماء القانون المنصفين إلا الاعتراف بفضل الشريعة التي دعا إليها باسم الله ، وبأنها متفقة مع العلم ، مطابقة لأرقى النظم ، إن محمدا الذى يحتفلون به أعظم عظماء الأرض سابقهم ولاحقهم فقد استطاع توحيد العرب بعد شتاتهم وأنشأ منهم أمة واحدة فتحت العالم المعروف يومئذ ، وجاء لها بأعظم ديانة عينت للناس حقوقهم وواجباتهم وأصول تعاملهم على أساس من أرقى دساتير العالم وأكملها » .

ويقول « برناردشو » : « إن محمدا يجب أن يدعى منقذ الإنسانية ، إنني أعتقد لو تولى رجل مثله زعامة العالم الحديث ، لنجح في حل مشاكله بطريقة تجلب إلى العالم السلام والسعادة . إن محمدا هو أكمل البشرية من الغابرين والحاضرين ولا يتصور وجود مثله في الآتين »[1] .

نعم ، صدقت ، فقد سطعت في فؤادك أنوار الرسالة وعظمة الرسول ، التي تخترق الأفئدة وتنفذ إلى الأعماق وتخرج إلى الأفواه لتسطرها كلمات من نور تحمل صدق الحقيقة وأضواء الواقع . فما كانت عظمة محمد ـ ﷺ ـ إلا من عظمة الرسالة ، وما كانت عظمة الرسالة من صنع بشر أو تأليف خبير أو عمل مجمع من المجامع ، وإنما كانت من وحي الله سبحانه وفضله ومَنّه . وصدق الله : **﴿ ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾**[2] .

﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾[3] ، **﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون ﴾**[4] .

وما كانت أخلاق الرسول ـ ﷺ ـ وتربيته إلا مِنّةً وفضلا من الله سبحانه ، وصدق الله : **﴿ ما ودعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى . ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى . ووجدك عائلا**

---

(١) أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية ص ١٠٤ ، ١٠٥ ، وآفاق جديدة ص ١٢٠ ، ١٢١ . وينظر في ذلك كتاب فضل الحضارة الإسلامية على العالم لزكريا هاشم ص ٣٩٤ . وما بعدها .

(٢) الشورى / ٥٢ .   (٣) ص / ٢٩ .   (٤) الأنعام / ١٥٥ .

فأغنى . فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر . وأما بنعمة ربك فحدث ﴾[1] .
وما كان نطقه وعلمه إلا من الله سبحانه : ﴿ **وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى ﴾**[2] .

وما كان ذلك الجيل العظيم الذى صاحب الرسالة وحمل الأمانة وخطا بها هذه الخطوات الجبارة إلا نتاج ذلك الوحي الصافي ، وصنع هذه العناية الغامرة ، وصدق الله : ﴿ **.. هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين . وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾** [3] . ﴿ **واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾** [4] .

فعظمة الرسالة وسمو التعاليم هو الذى فتح مغاليق القلوب ، وخطف الأبصار وأسر الألباب إليها ، وأضواء الصراط واستقامة الدرب ووضوح الطريق وسلامة الغاية وأشواق الفطرة هو الذى جعل أصحاب العقول السليمة تهرول إلى لقاء الإسلام والانضواء تحت هدايته وعظمته ، وهو الذى جعلها تتذوق طعمه وتحس حلاوته وتتهافت إلى هداه .

يقول « روجيه جارودى » الفيلسوف الفرنسي المعاصر الذى هداه الله إلى الإسلام : « إن الإسلام دين الجمال ، والعقل ، والعمل ، إن انتمائى إلى الإسلام لم يكن مصادفة ، ولكنه جاء من خلال رحلة طويلة مرت بكثير من المنعطفات ، حتى وصلت إلى اليقين ... لقد بقي الإسلام نقيا بلا تحريف . إن أوروبا لم تأخذ من علماء المسلمين إلا العلوم التجريبية ، وتركت ميراثهم الفكرى ، وذلك يجر الحضارة الأوروبية إلى الإفلاس ، لأن السلوك الأوروبي في صنع الحضارة هو فصل الغايات عن أسبابها ، شعارها النمو للنمو ، دون إعطائها أى هدف إنساني حقيقي . إن أعظم إنجازات العلم في أوروبا لم توضع في خدمة الإنسان بينما وفر سباق التسلح ، لكل إنسان على وجه الأرض الآن أربع أطنان من المتفجرات ، لكن الإسلام لايفرق في بحثه بين الأسباب والغايات ، أى لا يكتفي بالسؤال كيف ؟ بل يضم إليه السؤال : لماذا .

---

(١) الضحى / ٣ — ١١ .
(٢) النجم / ٣ — ٥ .
(٣) الأنفال / ٦٢ ، ٦٣ .
(٤) آل عمران / ١٠٣ .

ولذلك فإن الحضارة الأوروبية على وشك أن تموت ، لأنه ليس لها غايات »[1] .

ثم يقول : « جارودى » في محاضرة ألقاها في كل من جامعة الملك عبد العزيز بجدة وجامعة قطر بالدوحة في أوائل يناير سنة ١٩٨٣ م . بعنوان : الإسلام وأزمة الغرب : « إن فى مقدور الإسلام مرة ثانية أن يحيى من جديد الأمل في مجتمعاتنا الغربية التي خطمتها الفردية والانفرادية وأنموذج النمو الكمي الذى يقود العالم إلى الانتحار »[2] .

نعم ، لابد أن يتم الله نوره ، ويعلي كلمته ، ويرى الناس آياته . وصدق الله : ﴿ **فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض** ﴾[3] .

تساؤلات وعلامات استفهام ؟؟

قد يتساءل الإنسان بعفوية مطلقة وبروح بريئة ونفس مخلصة ، مادام الإسلام بهذا السمو ، ومادام بهذه الرفعة ، ومادامت تعاليمه بهذه القوة والصلاحية والرقي ، ومادام هو المرشح الوحيد لترشيد هذه البشرية وشفائها من العلل والأمراض والصراعات المتنوعة ، وما دام الزمان والفكر يتساءل عنه ويتشوق إليهِ . فَلِمَ يعادى هذا العداء ، ويضطهد هذا الاضطهاد ، ويحارب هذه الحرب الباردة والساخنة والمعلنة وغير المعلنة .

ولم يكتم أنفاسه ويحبس عنه الهواء ويسجن هذا السجن المظلم ، ويغلق أمامه الأبواب وتوضع العقبات وتقام السدود .

وَلِمَ يطارد بغير جريرة ويتهم بدون تهمة ، ويكره بدون سبب وينبذ بغير علة ، وَلِمَ يظل شريدا حتى فى وطنه ، وتائها حتى فى بلده ، وغائبا حتى بين أهله ، ومحروما من الحياة ومروعا فى دياره ومطاردا فى الفيافى .

وَلِمَ يعامل رجالـه معاملـة الجنـاة ولا مجنـى عليـه ، والخونـة ولا خيانـة ، والمخربين ولا تخريب والخارجين على القانون ، وليس هناك قانون .

ألأنه غريب فى دنيا الضياع والهوان والشرود والبغى ، وعصور الخسة والنذالة والخور

---

(١) الفيلسوف المسلم جارودى ص ٢٣٥ أحمد أبو المجد حرك وجريدة الأخبار نقلا عن كلمة جارودى في ٢٣ / ٣ / ١٩٨٣ م .

(٢) الاستشراق د . زقزوق ص ١٤٥ .

(٣) الرعد / ١٧ .

والبهتان والإفك ،وغريب فى عبادة الهوى وسعار الشهوات وضياع الأخلاق ،وسيادة الرذيلة وانتحار الفضيلة ،ووأد الأمانة ،وغريب فى هدير الشعارات وسراب الوعود وبروق الأكاذيب ودخان المشعوذين ، وغريب فى وسط المادية القاتلة والغرور القاتل والكبر المتورم والطبول الفارغة والقمامات المهرجة والآثام المزينة اليوم.

أم لأنه يعيش اليوم وسط قصور الرمال ومحالك القردة ووديان الجرزان ومرابع الغربان ومواطن البوم ؟

أم لأنه يعيش ولا مال ، ويقف ولا سواعد ، وينادى ولا ولد ؟

ولا يكشف الغماء إلا ابن مرة : يرى غمرات الموت ثم يزورها(١).

أو كما قال القائل وهو ابن الرومى :

كم من أب قد علا بابن ذرا شرف   كما علا برسول الله عدنان

أو كما قال القائل :

ونار لو نفخت بها أضاءت   ولكن أنت تنضح فى رماد
لقد أسمعت لو ناديت حيا   ولكن لا حياة لمن تنادى(٢)

أم لأنه يعيش بين عشاق العبودية وتجار العمالة وأسواق النخاسة ؟

أم لأنه هو الحق الذى لابد أن يتصدى له الباطل ، والحقيقة التى لابد أن تتصارع مع الأوهام ، والنور الذى لابد أن يجالد الظلام ، والهداية التى لابد أن تقضى على الضلال والبهتان ؟ وصدق الله : ﴿ **كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض** ﴾ (٣) .

أم لأنه لا يطأطىء الرأس أو يحنى الهام ، أو يلين القناه للباطل ، أو يمالىء الأهواء والخرافات ، ويتغاضى عن المظالم . لأنه الإمام والقدوة والمثل ؟ وصدق الله : ﴿ **ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموٰات والأرض** ﴾ (٤) .

---

(١) جعفر بن علية الحارثى . التبيان فى البيان للطيبى ص ١٦٦ .

(٢) المرجع السابق ص ١٩٨ .   (٣) الرعد / ١٧ .   (٤) المؤمنون / ٧١ .

أم لكل ذلك ولكل هذه الأسباب مجتمعة يقف وحده في الميدان يخترق الصفوف ويقارع الكتائب ويشتت الباطل باسم الثغر وضاء الجبين عالى الهمة جهير الصوت ، يقذف أعداءه بالحجج ويحرقهم بالبراهين ويفضحهم بالأدلة .

وصدق الله : ﴿ **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون** ﴾[1] .

وإذا كان الأمر كذلك فأين معتنقو الإسلام الذين ارتضوه شريعة ومنهاجا ،وآمنوا به عقيدة ودعوة ورسالة وهداية ومبدأ وفكرة ، وأين دعاته وحاملو لوائه ، وأين جنده وقادته ، وعسكره وكتائبه ، بل أين المدافعون عن الحق وقصاد الحقيقة ، وأين أصحاب الفكر أرباب الحلوم ؟

أكل ذلك جرفهم التيار القوى للباطل ، وأعماهم الصواعق المحرقة للضلال ، وأصمهم الرعود المهلكة للبهتان ؟

ثم أهى فترة ويصحو النائم ويتنبه الغافل ، ويفيق السكران ، ويهتدى الضال ويرشد الفكر ويرجع التائه ويقوى الضعيف ، ويثبت الجبان ويشتد الساعد ، وينادى الداعية من جديد بذلك الصوت الشجى الثابت القوى الواثق ﴿ **وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا** ﴾ [2] ؟ .

لقد عودنا التاريخ أنه كلما ساد الباطل وارتفعت أعلامه وقويت شوكته ، وانتصر رجاله وعاث جنده وكر على الناس بخيله ورجله ، فذاق الناس مرارته وتجرعوا مصابه ، حينئذ وحين ذاك يرجعون إلى أنفسهم وينظرون فى خطوهم ويتدبرون فى أمرهم ، فتتفتح العيون وتصغى الأسماع وترشد العقول ويتنبه الفكر ، فيهرولون ويتسابقون إليه ، فينزوى الباطل وتكسر شهوته ،وصدق الله : ﴿ **إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾[3] .

﴿ **ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون** ﴾[4] .

---

(١) الأنبياء / ١�٨ .

(٢) الإسراء / ٨١ .

(٣) الرعد / ١١ .

(٤) القصص / ٥ ــ ٦ .

الباب الثالث

أعاصير وشبهات وردود وبراهين

الفصـــل الأول : أعاصير غربية وشبهات وافدة .

الفصل الثـاني : حجج وبراهين .



الفصل الأول

أعاصير غربية وشبهات وافدة

هناك فى بلاد المسلمين اليوم قوم من أصحاب الثقافات الغربية أو الشرقية رضعو ألبان المذاهب المختلفة ، ورشفوا من ينابيعها المتنوعة ، فصادفت هوى فى قلوبهم الخالية ، ومذاقا فى أمزجتهم الهواء ، وكانوا معها كقول القائل :

عرفت هواها قبل أن أعرف الهوى   فصادف قلبا خاليا فتمكنا

اعتادوا مسارا معينا ، وتدربوا على تعاليم غربية ، وتربوا على مناهج مبتدعة ، لم يأخذوها بعقولهم وإنما ألفوها بعادتهم ، ولم يبحثوها بمنطقهم وإنما أشربوها بهواهم ، ولم تتطلبها سعادتهم وإنما سارعت إليها شهواتهم ، ولم يأخذوها بعرقهم وفكرهم وإنما ازدردوها بتقليدهم وغفلتهم ، ولم يستملحوها عن صحة وعافية وإنما عن سقم وعلة ، ولم يجهدوا فيها عن نفع وضر وإنما عن تخدير وإدمان .

ولهذا فهم اليوم لايقبلون إلا فكراً تربوا عليه وزاداً درجوا فى رحابه ، فهم يرفضون كل بصيص من نور وكل شعاع من هداية ، مادام لايؤيد ماذهبوا ، ولا يعضض ما انتماعوا إليه ، ويبيعون فى سبيل حبهم الواهم كل حق وقيمة ، يفخرون بشيء لم يسهموا فيه وبأعمال تتقاصر هممهم عنها ، فهم أبواق راعدة لغيرهم ، ومراكب مذللة لسواهم .

الحق يدعو إلى نفسه :

الإسلام الرباني الكامل ، والمنهج السامق المتفرد ، والتعاليم العظيمة المضيئة ، لايستطيع أحد يحترم عقله ، ويعرف مصلحته ، ويبغى الخير للبشرية أن ينكر سحرها كرسالة عظيمة وعملها وهديها للأفراد والأمم والشعوب ، وقد تأيدت بأدلة لاحصر لها على طول تاريخها الزاهر ، ومازالت تؤيد كل يوم فى هذا العصر المضطرب بأدلة لاحصر لها ولا عد ، أحيت الإنسان ، وحركت العزائم ، وأطلقت الطاقات ، وبنت الأمم ، ورفعت العلم

والعلماء ، وأرست فكرة الإخاء الإنسانى على أساس بديع متين ، ورفعت المظالم ، ونشرت الحضارة الزاهرة فى الموات الخامل والزمال الملتهبة القاحلة ، وأضاءت النجوم الزاهرة فى الليالى الحالكة الكنود ، وأسالت الينابيع العذبة من القلوب الصلدة الجامدة .

وماذاك إلّا لأنها كلمات ربانية وسنة نبوية ، وتراث ضخم لأصحاب المدرسة المحمدية .

حمل هذا المنهج من الخصائص والتعاليم ماألزم الباطل الحجة ، وأزهق الضلال ، وكشف الغمة ، فى كل ميدان ، وضع مناهج البحث ودلل على دروب المعرفة ، وفتح مغاليق القلوب ، وطارد الخرافات والأوهام ، وحارب الكسل والوهن ، وجمع بين الدين والدنيا ، وأثاب على النفع ، وحاسب على الضر ، وحض على أخذ الحكمة من أى وعاء خرجت ، وأعطى ألإنسان حريته واحترم اختياره ، وشكل العقل المبدع وربى الضمير الطاهر ، والقلب النظيف ، والعين الباصرة ، والبصيرة اللماحة ، والعزم الجسور .

تساؤلات :

رغم هذا الإيضاح ، ورغم هذه الحقائق ، نرى أن شعوب العالم الإسلامى اليوم قد انحدر خطهم البيانى ، وانعكس مدهم الحضارى ، فبماذا نفسر هذا الوهن ، ونجيب على هذا الخور ؟ .

أجاب عن هذه التساؤلات كثيرون فى الشرق والغرب ، منهم « الأمير شكيب أرسلان » ، حيث قال : « السبب الذى به نهض المسلمون وفتحوا ، وسادوا وشادوا ، وبلغوا هذه المبالغ كلها من الرقى والمجد ، يجب علينا أن نبحث عنه وننشده ، ونحن فى النشدان أهو باق فى العرب ، وهم قد تأخروا برغم وجوده ، وتأخر معهم تلاميذهم الذين هم سائر المسلمين ، أم قد ارتفع هذا السبب من بينهم ، ولم يبق من الإيمان إلا اسمه ، ومن الإسلام إلا رسمه ، ومن القرآن إلّا الترنم به ، دون العمل بأوامره ونواهيه ، إلى غير ذلك مما كان فى صدر الملة وبمنجهية الشريعة .

إذا فحصنا عن ذلك وجدنا أن السبب الذى به استقام هذا الأمر قد أصبح مفقودا بلا نزاع ، وإن كان بقى منه شىء كباقى الوشم فى ظاهر اليد ، فلو كان الله تعالى وعد المؤمنين بالعزة بمجرد الاسم دون الفعل لكان يحق لنا أن نقول : أين عزة المؤمنين ؟ من قوله

تعالى : ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** ﴾ [1] ، وقوله تعالى : ﴿ **وكان حقا علينا نصر المؤمنين** ﴾[2] .

بمعنى أنه تعالى ينصرهم بدون أدنى مزية فيهم سوى أنهم يعلنون عن كونهم مسلمين ، ولكان ثمة محل للتعجب من هذا الخذلان بعد ذلك الوعد الصريح بالنصر ، ولكن النصوص التى فى القرآن هى غير هذا ، فالله غير مخلف وعده ، والقرآن لم يتغير ، وإنما المسلمون هم الذين تغيروا ، والله تعالى أعلن هذا وأنذر به فقال : ﴿ **إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم** ﴾[3] .

فلما كان المسلمون قد غيروا مابأنفسهم كان من العجب أن لايغير الله مابهم ، وأن لايبدلهم الذل والضعة ، من ذلك العز وتلك الرفعة ، بل كان يعد ذلك منافيا للعدل الالهى والله عز وجل هو العدل المحض

كيف ترى فى أمة ينصرها الله بدون عمل ، ويفيض عليها الخيرات التى كان يفيضها على آبائها ، وهى قد قعدت عن جميع العزائم التى قد كان يقوم بها آباؤهم ؟ وذلك يكون أيضا مخالفا للحكمة الإلهية والله هو العزيز الحكيم .

وما قولك فى عزة بدون استحقاق ، وفى غلة دون حرث ولا زرع ، وفى فوز دون سعى ولاكسب ، وفى تأييد دون أدنى سبب يوجب التأييد ؟ .

لاجرم أن هذا مما يغرى الناس بالكسل ، ويحول بينهم وبين العمل ، بل مما يخالف النواميس التى أقام الله الكون عليها وهو مما يستوى به الحق والباطل ، والضار والنافع ، والموجب والسالب ، وحاشا لله أن يفعل ذلك ، ولو أيد الله مخلوقا دون عمل ، لأيد من دون عمل محمدا رسول الله ولم يحوجه إلى القتال والنزال . والنضال ، واتباع سنن الكون الطبيعية للوصول إلى الغاية »[4] .

ويجيب على هذا ويوضح الحقيقة فيه الأستاذ « سيد قطب » فيقول :

« إن هذا الدين منهج إلهى للحياة البشرية ، يتم تحقيقه فى حياة البشر بجهد البشر أنفسهم فى حدود طاقتهم البشرية ، وفى حدود الواقع المادى للحياة الإنسانية فى كل بيئة ،

---

(1) المنافقون / 8 .
(2) الروم / 47 .
(3) الرعد / 11 .
(4) لماذا تأخر المسلمون ـــ 43 ـــ 44 ط البشير .

ويبدأ العمل من النقطة التى يكون البشر عندها ، حينما يتسلم مقاليدهم ، ويسير بهم إلى نهاية الطريق فى حدود طاقتهم البشرية ، وبقدر مايبذلونه من هذه الطاقة ، ومن ميزته الأساسية : أنه لايغفل لحظة فى أى خطة وفى أى خطوة عن فطرة الإنسان وحدود طاقته ، وواقع حياته المادية أيضا ، وأنه فى الوقت ذاته يبلغ به كما تحقق فعلا فى بعض الفترات ، وكما يمكن أن يتحقق دائما كلما بذلت محاولة جادة إلى مالا يبلغه أى منهج آخر من صنع البشر على الإطلاق . وفى يسر وراحة ، وطمأنينة واعتدال . ولكن الخطأ كله ينشأ من عدم إدراك طبيعة هذا الدين أو من نسيانها ومن انتظار الخوارق المجهولة الأسباب على يديه ... تلك الخوارق التى تبدل فطرة الإنسان ولا تبالى طاقته المحدودة ، ولا تحفل واقعه المادى البيئى !..... » ثم يطرح سؤالا ويجيب عليه فيقول : « أليس هذا هو من عند الله ؟ أليس الله قادرا على كل شىء ؟ لماذا إذن يعمل هذا الدين — فقط — فى حدود الطاقة البشرية المحدودة وتتأثر نتائج عمله بالضعف البشرى ؟ بل لماذا يحتاج أصلا إلى الجهد البشرى ؟ ثم ... لماذا لاينتصر دائما ، ولا ينتصر أصحابه دائما ؟ ولماذا يغلب أهل الباطل على أصحابه — وهم أهل الحق — أحيانا .

وكلها كما ترى — أسئلة وشبهات ، تنبع ابتداء من عدم إدراك الحقيقة الأولية لطبيعة هذا الدين وطريقته أو نسيانها !

إن الله قادر « طبعا » على تبديل فطرة الإنسان ، عن طريق هذا الدين أو عن غير طريقه ، ولكنه سبحانه شاء أن يخلق الإنسان بهذه الفطرة لحكمة يعلمها ، وشاء أن يجعل الهدى ثمرة للجهد والرغبة فى الهدى : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** ﴾(١) ، وشاء أن تعمل فطرة الإنسان دائما ، ولاتمحى ولا تعطل : ﴿ **ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها** ﴾(٢) ، وشاء أن يتم تحقيق منهجه الإلهى للحياة البشرية عن طريق الجهد البشرى ، وفى حدود الطاقة البشرية : ﴿ **إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم** ﴾ (٣) . ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض** ﴾ (٤) وشاء أن يبلغ الإنسان من هذا كله بقدر مايبذله من الجهد ، وماينفقه من الطاقة ، ومايصبر على الابتلاء فى تحقيق هذا المنهج

(١) العنكبوت / ٦٩ .
(٢) الشمس / ٧ — ١٠ .
(٣) الرعد / ١١ .
(٤) البقرة / ٢٥١ .

الإلهى القويم ، وفى دفع الفساد عن نفسه وعن الحياة من حوله : ﴿ **أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين** ﴾[1] »[2] .

إشارات واضحة :

أشار الإسلام إلى منهجه وإلى أسلوب عمله فى الحياة فى محكم آيات القرآن الكريم ونحي عن طريقه الكسل ، والبله ، والعفوية ، والتخاذل ، والشعارات الكاذبة ، فلا القعود ولا التهاون يوصل إلى غاية ﴿ **ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة** ﴾[3] ولا الدعاء والابتهال والعبادة فقط يوصل إلى القوة والسعادة ، ولو كان مجرد الدعاء والعبادة يغنى عن العمل والجهاد فى الحياة لاستغنى به النبى ﷺ وصحابته وسلف هذه الأمة ، فإنهم الطبقة المقربة التقية التى يستحقون أن يسمع الله دعاءهم ، ولو كانت الآمال تبلغ بالأدعية والأذكار لما فرض الجهاد وأمر بالسعى فى الأرض وصدق الله ﴿ **هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور** ﴾[4] ولما رتب الله الجزاء على السعى فى الحياة فى قوله تعالى : ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ماسعى** ﴾[5]

وقد دعا المنهج إلى فتح البصر والبصيرة فى الحياة وأمام الحوادث ، وعاب أقواما أغلقوا عقولهم وأفهامهم وأبصارهم عما أمامهم من ظواهر وأحداث ، فقال تعالى : ﴿ **فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها** ﴾[6] وقال فى الموازنة بين الحضور الذهنى والغياب الفكرى : ﴿ **هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون** ﴾[7] ، وقال فى ذم القلوب الغلف : ﴿ **أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم** ﴾[8] ﴿ **ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لايسمعون** ﴾[9].

ودعا المنهج أيضا إلى السير فى الحياة على بصيرة ، ومعرفة أصلها ومنتهاها ، والعبر فيها ، وكيف نمت وارتفعت وتطورت ﴿ **قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ**

---

(١) العنكبوت / ٢ ، ٣ .
(٢) هذا الدين ص ٦ .
(٣) التوبة / ٤٦ .
(٤) الملك / ١٥ .
(٥) النجم / ٣٩ .
(٦) الأنعام / ١٠٤ .
(٧) الأنعام / ٥٠ .
(٨) محمد / ٢٣ .
(٩) الأنفال / ٢١ .

الخلق ﴾ [1] ﴿ **قل انظروا ماذا فى السمٰوات والأرض وماتغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون** ﴾[2] ونهى عن السير وراء الجهالات والركون إلى الضلالات بأى اسم وتحت أى مسمى فقال تعالى : ﴿ **ولاتقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** ﴾[3] .

وبهذا نجد أن القرآن دعا المسلم إلى التفكير والعمل والعلم والحضور الذهنى والاستفادة من الحوادث على مر التاريخ واختلاف الأماكن ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم قوة** ﴾[4] ، كما دعا إلى الالتفات إلى حركة التاريخ ، تاريخ الإنسان على وجه الأرض وتجاربه صوابا أم خطأ ، ليستفيد ويعمل ويبصر ويهتدى إلى الصواب ﴿ **وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير** ﴾[5] .

ممارسة وتطبيق :

لايكفى أن تقرأ التعاليم على المسلمين ، ولا أن تلقن لهم تلقينا ، حتى تنهض هممهم ، وتصلح أحوالهم ، وإنما يجب أن تمارس هذه النظريات عمليا ، وتصبح دستورا واقعيا ، وتربية فعلية ، حتى يكونوا مثلا يحتذى فى تجسيد قيم الإسلام ، كما أنه من حق المسلمين على رعاتهم ، أى على دولهم أن يحكموا وفقا للمبادئ الجوهرية للإسلام ، ثم نقول من وجه آخر : إن الدولة بدورها لن تستطيع أن تربى شعبا أبيا ، أو متقدما يحقق أهدافها ويجنبها الإخفاق والهاوية ، إذ هى لم تأخذ بأيدى رعيتها إلى التعاليم الجادة والعملية الإسلامية ، وتتخلى عن حالة الدكتاتورية إلى المشاركة والشورى ، ومن معاملة الفرد كالعبد إلى معاملته كمواطن ، ومن عبادة الطاعة العمياء إلى الحرية والمسئولية ، ومن حب الذات إلى حب الجماعة ، ومن القسوة إلى الإنسانية والحب ، حتى تعمل التعاليم عملها فتسهم إسهاما فذا فى عملية بناء العقل المسلم والحياة الصاعدة .

كما لا يكفى تنفيذ جزء من المنهج ، أى فعل شىء من تعاليم الإسلام وترك الباقى كما

---

(1) العنكبوت / ٢٠ .
(2) يونس / ١٠١ .
(3) الإسراء / ٣٦ .
(4) غافر / ٨٢ .
(5) هود / ١١١ .

أشرنا قبل ، اللهم إلا إذا كان عن خطة محكمة لإقامة الدين كله ، وتنفيذ تعاليمه كلها ، وإقامة دولته فى الأرض فى نطاق العمل المتواصل لذلك ، حسب الاستطاعة المقررة شرعا .

فلا يكفى إقامة المنهج العبادى وترك بقية المناهج ، ولا يكفى تكوين الفرد والانعزال عن الجماعة ، ولا يكفى إقامة شعائر معينة وسلب حرية المسلم ، والتنازل عن الحكم الصالح ، والجهاد لإعزاز كلمة الله ورفع راية الحق والنصرة من الظالم ، كما لايجوز السكوت عن الظلم والمفاسد أو عدم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، قال ﷺ : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه »[1] . وقال ﷺ : « **والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم** »[2] وقال ﷺ : « **إن من أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر** »[3] وقد لاحظ هذا الأمر كثير من دعاة الإصلاح فى العصر الحديث من أمثال الكواكبى ومحمد عبده والأفغانى وغيرهم .

ولقد أفاض الكواكبى فى تحليل أمراض الأمة ودعا المخلصين بأخذ الإسلام كله ، الإسلام الذى يأبى الاستبداد ، ويأبى الدكتاتورية ، ويأبى الظلم ، لا الإسلام المستسلم الخانع المدخول ، فقال : « إن التهاون فى الدين ناشىء من الاستبداد .... يظن نفر من بيننا أن التدين بمعنى كثرة العبادة والنسك فقط ، سيثمر صلاح الحال ، على حين أن هذا الجانب من جوانب الدين لن يزعج الاستبداد ولن يقض مضاجع المستبدين ، بل ربما أعانهم هذا الجانب من الدين على إحكام قبضة استبدادهم ، ومن ثم إبقاء الأمة فى انحطاطها إلى ماشاء الله .... » ثم يقول : « ولنعم الاعتقاد لو كان يفيد شيئا ، ذلك أن الدين بذرة جيدة لاشبهة فى ذلك ، فإذا أصاب مغرساً طيباً نبت ونما ، وإذا صادف أرضا قاحلة ، مات وفات ، أو أرضا مغراقا هاف ولم يثمر » . ثم يقول : « وماهى أرض الدين ؟! أرض الدين هى تلك الأمة التى أعمى الاستبداد بصرها وبصيرتها وأفسد أخلاقها ودينها ، حتى صارت لاتعرف للدين معنى غير العبادة الخاوية والنسك ــ أى الخالى من العبرة ــ » . **ثم يبين ركائز الاستبداد التى يجب أن يغيرها المسلم فيقول : « هناك ركائز للاستبداد يجب على المسلم اقتلاعها : فالإرهاب ركيزة للاستبداد . والقوة المسلحة**

---

(١) رواه الترمذى ــ حديث حسن .

(٢) حديث حسن .

(٣) حديث حسن .

وخاصة إذا كانت مملوكة أو مقطوعة الصلة قوميا بالأمة ركيزة ثانية .. والقوة المالية وأصحابها ركيزة ثالثة .. والقوة الأجنبية التى تناصر المستبد ركيزة رابعة ، والعادة والألف التى تجعل الناس يستنيمون للاستبداد ركيزة خامسة »[1] هذا الاستبداد هو الذى جعل الدنيا مَسْبَعَة وهو الذى أزاله الإسلام من الوجود ـــ وقد رجع ثانيا فيلزمه الإسلام من جديد .

شبهات الحائرين :

لاشك أن وضع المسلمين اليوم يدير الرؤوس ، ويحير الألباب ، ولاشك أن الأمراض التى أصابت جسد الأمة الإسلامية أمراض متنوعة وفتاكة ، قد توطنت واستقرت فى ديارهم على تعدد البلاد وتباعد الأقطار .

وعلاج هذه الأمراض يحتاج إلى وعى كامل بطبيعة هذه الأمة وشخصيتها وتاريخها وثقافتها ، يحتاج إلى جولة فى أعماقها ونظرات فى أجوائها وتراثها ، كما يحتاج إلى نطاس بارع وطبيب أريب ومجرب ناصح ، كما يحتاج إلى عزم أكيد ، وبأس شديد وصبر مديد .

أما أن يأتى أناس ليس عندهم طب أو دواء ، أو يأتى غيرهم بداء يظنه شفاء ، أو يأتى بعلة يظنها صحة ، فهذا قد يقضى على المريض أو يزيد الداء استفحالاً .

أما أن يأتى رجال بحسن نية أو بسوء قصد ويعطوها دواء أمراض أخرى ، أو يقلدون فعل الأطباء وهم مرضى ، فيبدأون بالتشخيص والعلاج ويصفون الدواء ، فهذا من الجرائم التى يعاقب عليها القانون ويستحق فاعلها العقاب وإن كان مخلصا .

أما أن يستغل جماعة هذا الوضع السيىء وهذا الجسد المنهوك للقضاء على البقية الباقية من تماسك الأمة وحيويتها ، وعلى الثمالة العالقة من الإيمان بشخصيتها فهذا من القسوة والجحود والضلال البعيد .

وقد يساعد هؤلاء وأولئك الحائرون ممن لاعلم لهم ولاقدرة على العلاج أو الإنقاذ ، والتائهون فى دروب الحياة من فاقدى العزيمة والقدرة على التبصر والتفكر ، كما يعضدهم جملة من المنتفعين والمستفيدين من معاناة المسلمين ، وثلة من التابعين للثقافات الدخيلة والأفكار المستوردة ..

---

(١) العرب والتحدى ص ٢٨٧ ط عالم المعرفة .

مسلّمات وقضايا للطرح :

مما لاشك فيه أن هناك تساؤلات تثار اليوم حول عدد من القضايا الملحة فى الساحة الإسلامية :

أولها : لم تخلف المسلمون ، وما هى الأسباب التى أدت إلى ذلك ؟

ثانيها : ماهو العلاج وماهى الكيفية التى يعالج بها الجسد المسلم ؟

ثالثها : اللحوق بالركب العلمى والتكنولوجى العالمى وكيفيته .

رابعها : ماهى الأمور التى تؤخذ من الثقافات ومن الأمم المتقدمة وماهى الأمور التى تترك ؟

خامسها : ماهو لون النهضة وماهى الهوية الحضارية المطلوبة ، من المجتمع المسلم ؟

هذه القضايا دعت كثيرا من الباحثين إلى الخوض فيها والدخول فى معركتها بصرف النظر عن استعدادهم وإخلاصهم وعن هويتهم وجنسياتهم .

وقبل الحديث عن هذه القضايا فإنه يحسن بنا أن نبين معنى التخلف وأن نلقى الضوء على بعض ملامح التخلف فى المجتمع .

فالتخلف : هو الوجه المقابل للتقدم ، هو العجز عن التفكير السليم والعمل السليم الذى يسعد المجتمع ويغنيه ويعزه ، والتخلف ظاهرة شاملة فى أقطار العالم الإسلامى ، التى تكافح الآن لدحره ، وجوانب التخلف فى العالم الإسلامى متعددة ، فثمت تخلف فى الفكر والفهم الصحيح ، وتخلف فى الحياة الأخلاقية والسلوكية والاجتماعية ، وتخلف فى التنمية الاقتصادية وتخلف فى الأحوال السياسية وأنظمة التدبير والحكم ، وتخلف فى التخطيط والرؤية المستقبلية وفى القدرة على الاكتشاف والاستفادة من الطاقات المادية والبشرية ، وتخلف فى الناحية العسكرية والتكتيكية ، وتخلف فى الناحية الصناعية ، وتخلف فى الناحية التعليمية والتربوية ، وتخلف فى الناحية الاجتهادية « التشريعية » .

وتختلف أنظار الباحثين فى أسباب هذا التخلف ، وفى مبدأ ظهوره ، بعد أن كانت دولة المسلمين أول دولة فى العالم مدة ألف عام أو يزيد .

فهل يرجع إلى سنة ١٩٢٤ حين تم الإجهاز على نظام الخلافة وأعلن عن دفن الخلافة العثمانية ؟ والحق أنها كانت لطمة وعثرة كبيرة ، شعر بها كل مسلم ، وكيف لا — وقد فرقت جمع المسلمين ، وشتتت شملهم ، وأوهنت قوتهم ، وفرطت عقدهم ، حتى بكاها

الكل آنذاك ، ومازال يبكيها المخلصون ، ومما قال شوقى فى ذلك :

ضجت عليك مآذن ومنابر ... وبكت عليك ممالك ونواح
الهند والهة ومصر حزينة ... تبكى عليك بمدمع سحّاح
والشام تسأل والعراق وفارس ... أمحا من الأرض الخلافة ماح ؟
وأتت لك الجُمعُ الجلائل مأتما ... فقعدن فيه مقاعد الأنواح
ياللرّجال لِحُـرَّة موءودةٍ ... قُتلت بغير جريرة وجناح
هتكوا بأيديهم مُلاءة فخرهم ... مُوْشيةً بمواهب الفتاح
نزعوا عن الأعناق خير قلادة ... ونضوا عن الأعطاف خير وشاح
حسب أتى طول الليالى دونه ... قد طاح بين عشية وصباح
جمعت على البر الحضور وربما ... جمعت عليه سرائر النزاح
نظمت صفوف المسلمين وخطوهم ... فى كل غدوة جمعة ورواح

أم هل يرجع ذلك التأخر إلى سقوط بغداد فى أيدى التتار سنة ٦٥٦هـ ؟ أم هل يرجع ذلك إلى استعمار الشعوب الإسلامية وقطع صلتها بالعالم ؟ أم يرجع ذلك إلى فقدها للحرية وإجهاض فكرها وطاقاتها بالأنظمة السياسية المختلفة ؟ أم يرجع ذلك إلى تركها لتعاليم دينها القويم ودستورها العظيم ، واتباعها الأهواء والشهوات ؟ أم يرجع إلى كل تلك العوامل والأسباب ، حيث أخذت بعضها بحجز بعض ، وتجمعت على الجسد المؤمن فأهلكته ، وأصابته بالعلل وأنهكت قواه ، وجعلته مشلول العقل والحس والحركة ، لايستطيع أن يواكب التقدم ، أو يواصل المسيرة إلى البناء .

إرهاصات العلاج:

انطلقت الأصوات من هنا وهناك ، وانبرت الأقلام من يمين وشمال تصف العلاج ، وتقدم الدواء ، وكل وصفة تحمل فى طياتها ألوان أصحابها ونزعاتهم وشهواتهم وعلم قائليها أو جهلهم ، وبعد نظر طارحيها أو قصر نظرهم ، وعلت الأصوات وارتفع صرير الأقلام وتلاطمت أوراق الصحائف ، حتى كون ذلك غبشا حول قُصاد الحقيقة ومريدى السلامة والبرء ، ولا مانع من عرض بعضا من تلك الآراء المختلفة حتى ينجلى الموقف ويتضح الحق .

فلسفة الاغتراب :

برزت أفكار على الساحة الإسلامية لاتنتمى إلى فكر الأمة الإسلامية ، ولاتنبع من

معينها أو تتصل بتراثها ، فاتخذت العلمانية مبدأ تدعو إليه ، وتروج له ، وتبنت موقف الانعتاق من التراث ، وخندقت فى معسكر الأنظمة المدعومة من الغرب ، وحملت رايتها وتبنت موقفها نحو الأمة الإسلامية ، فنجمت عن ذلك قطيعة بينها وبين إسلامها وتعاليمها ورسالتها .

وبرز هناك أصحاب فكر آخر ، يدعون إلى الاشتراكية وإلى الماركسية ويطرحونها بديلا عن الإسلام ، مهاجمين الشريعة ومناهجها ، مطاردين لها فى عقر دارها ، يحمل لواء هذه الأفكار رجال من جلدتنا ، وشباب من مثقفينا ، الذين رباهم الغرب الحاقد على عينه ، وأرضعهم ألبان ثقافته ، وأطلقهم وسط الأمة الجريحة ليجهزوا على البقية الباقية من قوتها وعقيدتها ، هذه حقيقة نعترف بها وهذا واقع نشاهده وقد أحسن تصوير ذلك إمام المصلحين فى العصر الحديث ، حيث وضع الأمة أمام جرحها الغائر النازف بفعل هذا النفر البئيس فقال :

« من الحق أن نعترف بأن موجة قوية جارفة ، وتيارا شديدا دفاقا ، قد طغى على العقول والأفكار فى غفلة من الزمان ، وفى غرور من أمم الإسلام ، وانغماس منهم فى الترف والنعيم ، فقامت مبادىء ودعوات ، وظهرت نظم وفلسفات ، وتأسست حضارات. ومدنيات ، ونافست هذه كلها فكرة الإسلام فى نفوس أبنائها وغزت أممه فى عقر دارها . وأحاطت بهم من كل جانب ودخلت عليهم بلدانهم وبيوتهم ومخادعهم ، بل احتلت قلوبهم وعقولهم ومشاعرهم ، وتهيأ لها من أسباب الإغواء والإغراء والقوة والتمكن مالم يتهيأ لغيرها من قبل ، واجتاحت أمما إسلامية بأسرها ، وانخدعت بها دول كانت فى الصميم والذؤابة من دول الإسلام ، وتأثر مابقى تأثرا بالغاً ، ونشأ فى كل الأمم الإسلامية جيل مخضرم إلى غير الإسلام أقرب ، تصدر فى تصريف أمورها واحتل مكان الزعامة الفكرية والروحية والسياسية والتنفيذية منها ، فدفع بالشعوب مغافلة إلى مايريد ، بل إلى ماألف ، وهى لاتدرى مايراد بها ، ولا ماتصير إليه ، وارتفعت أصوات الدعاة إلى الفكرة الطاغية : أن خلصونا مما بقى من الإسلام وآثار الإسلام ، وتقبلوا معنا راضيين لا كارهين مستلزمات هذه الحياة وتكاليفها وأفكارها ومظاهرها ، واطرحوا بقية الفكرة البالية من رؤوسكم ونفوسكم ، ولا تكونوا مخادعين منافقين معاندين . تعملون عمل الغربيين وتقولون قول المسلمين »[1] .

---

(١) مجموعة الرسائل للأستاذ البنا رحمه الله ص ٣٣٤ ، ٣٣٥ .

هوايات وأهواء :

وإذا أردت أن تناقش عشاق هذه الأفكار والمبادىء تكشفت لك الحقيقة عن أمور مخجلة وملفتة للنظر :

أولها : أصحاب هذه الطروحات ليسوا من العلماء أو من المتخصصين فيما يطرحون ويهرفون ، وإنما هم من أصحاب الهوايات أو من خدام الفكر الوافد ، أو من الصحفيين المتكسبين المسترزقين ، أو ممن يجهلون الإسلام ومنهجه . وأمثال هؤلاء يتكلمون غالبا بلغة المغالطات أو « الفهلوات » التى لاترجع إلى أصول علمية سليمة أو إلى نقاش تخصصى علمى رصين .

ثانيها : غياب المنهج الصحيح فى الحوار وفى إثبات الحقائق ، وعدم الالتزام بالطرق المنطقية السليمة فى الحوار ، التى تعتمد على الحجة والمنطق والدليل الصحيح ، وذلك يستلزم أمورا معينة منها :

الأول : تقديم الأدلة المثبتة أو المؤيدة لحجته ودعواه .

الثانى : إثبات صحة النقل وأمانته للأمور المنقولة أو المروية .

وهذا مما قرره علماء أدب البحث والمناظرة بقولهم : « إن كنت ناقلا فالصحة أو مدعيا فالدليل » ، وهذا ماعلمنا إياه القرآن الكريم وأرشد إليه فى كثير من آياته ، من ذلك قوله تعالى : ﴿**أمَّن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أءِلهٌ مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ **قل أرأيتم ماتدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السمٰوات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين** ﴾[2] .

الثالث : أن يكون المتناظر أو المحاور عالما ، وصاحب رأى ، عنده القدرة على هضم العلم ومعرفة أصوله ومسائله، ولايكون ذلك عن هوى أو شهوة .

الرابع : أن يكون مستعدا للاقتناع إن ظهر له الحق ، ولا يتخذ ذلك للمراء .

الخامس : أن لايكون فى دعواه تعارض ، بمعنى أن ينقض كلامه بعضه بعضا .

---

(١) النمل / ٦٤ .

(٢) الأحقاف / ٤ .

السادس: أن لايحتاج دليله إلى دليل ، أو إلى إثبات صحته . فإن كان كذلك . كانت حجته ساقطة .

وقد لاحظ كثير من المتخصصين المنصفين تصدى أشخاص إلى مالا يعرفون أو يُتْقِنُون ، بغير منهج أو حجة أو دليل صحيح ، يقول الدكتور « توفيق الشاوى » القانونى الفحل فى ذلك :

« ومما يؤسف له أن بعض المعترضين الذين يلوحون من حين لآخر بأن ارتباط تطبيق الشريعة بالعقيدة الإسلامية يبعدها عن (رحابة الفكر العقلى) و (المنهج العلمى) ليسوا من علماء الفقه أو القانون حتى يتصدروا للإفتاء أو للكتابة فى مسألة تدخل فى إطار علم القانون والفقه ؛ وكان أولى بهم أن يلتزموا المنهج العلمى الذى يحترم آراء ذوى الاختصاص ، ويوجب الرجوع إليهم فى كل مايتعلق باختصاصهم ، إنهم يعرفون أن من تصدر لهذا الموضوع من علماء القانون قد أكدوا مرارا أن أحكام الشريعة فى جميع فروع القانون لاتقل دقة وأصالة عن أرقى الأنظمة القانونية ، بل هى أسمى وأرقى من كثير من النظم المعاصرة ، وأن مصدرها الإلهى لايعنى أنها تجافى الأصول العامة فى التشريع ، أو أن أحكامها تتعارض مع مصالح المجتمعات والأفراد ، بل إنها تتمتع بخصائص تجعلها أصلح من غيرها فى جميع الأزمان والأقطار »[1] .

لسان الانتماء والهوى :

كان لابد لمن فقد العلم والمنهج الصحيح للوصول إلى الحق أن يقع فى المزالق والأخطاء وكفى بالجهل والشرود مهلكة ، ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، وإنما تحركت الانتماءات الغريبة المشبوهة والأهواء العليلة المغرضة ، فأفرزت ضلالا على ضلال ، وظلمات بعضها فوق بعض ، بالعمالة والأغاليط والتشكيك ، فاشترت الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة ، فما أصبرهم على الهوان والنار .

ذم المنهج الإسلامى :

نحن نعرف مسبقا لحساب من يذم المنهج الإسلامى ويشترى به ثمنا قليلا ، ونعرف كذلك المحاور والدروب التى يحاول فريق معين أن يلتف بها حول المنهجية الإسلامية والذاتية

---

(١) سيادة الشريعة ـــ د توفيق الشاوى ص ٤٢ .

المسلمة . فقد يذم هذا الفريق الإسلام جملة ، وقد يذمه بالمفرق أو بالقطاعى ، وقد يذم العاملين له والسائرين على منهجه المخلصين فى إحياء تعاليمه وإرجاع هيبته ، ويذهلنا أن ترى مثلا الدكتور / فؤاد زكريا : يجهد نفسه فى إبعاد الإسلام عن الحياة بشتى الطرق بأساليب ملتوية ومختلفة ، وعلى مايبدو حسب الطلب فيقول : « الإسلام وحى مباشر ، والقرآن هو كلمة الله الحرفية التى لايتناولها تغيير ولا تبديل ، وقد أدى هذا الوضع فى أوقات التدهور الحضارى بوجه خاص إلى حالة من التصلب وعدم المرونة إزاء كثير من التطورات العلمية التى تتم خارج نطاق الدين ، إذ تواجه هذه التطورات بنصوص دينية تفسر تفسيرا متزمتا ، فتكون النتيجة عداء لا داعى له بين العلم والإيمان الدينى »[1] .

نجد فى هذه الفقرة أن الدكتور / فؤاد زكريا ، يبرز شبها معينة حول الإسلام :

أولها : أن القرآن وهو كتاب الإسلام وحى مباشر مصاغ بحروف لاتتغير ولا تتبدل ، فأصبح لايواكب الحضارة ، فكان هذا سببا من أسباب التدهور الحضارى والتصلب العلمى .

ثانيها : التطورات العلمية تحتاج إلى دين متجدد وتعاليم متطورة ، وهذا ما لا يملكه القرآن .

ثالثها : التفسيرات الدينية للنصوص والتى يقوم بها علماء الإسلام . ليست متطورة ، فأنتج ذلك عداء بين الإسلام والعلم .

ونقول : إن هذا الكلام يدخل فى نطاق التحامل الإنشائى لا العلمى ؛ لأنه ليس عليه دليل ، ومع هذا فقبل أن نرد عليه نقول له : إن كلامك هذا الإنشائى يرد عليه كلام آخر من إنشائك أيضا ، حيث تقول فى كتابك التفكير العلمى ص ١٦٠ بعد أن تستعرض أثر الإسلام فى الحضارة :

« ولقد كان هذا الاتجاه الإسلامى الذى يجمع بين النظرية والتطبيق أمرا طبيعيا فى حضارة قامت على أساس الجمع بين الدنيا والدين ، وارتكزت على شعار : (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا) وبالفعل كان العلم الإسلامى ينطوى على جانبى الدنيوية والأزلية فى آن واحد ، ويستهدف خدمة الحياة الإنسانية فى هذا

---

(١) خطاب إلى العقل العربى : ص ٧٤ ط العربى .

العالم الأرضى ، فى إطار ترتكز أصوله على النظر فى عالم السماء والأرض ، واستخلاص العبرة من نظامه المحكم وقوانينه الأزلية » ... ثم تستأنف الحديث وتظهر للعالم فضل الإسلام على أوربا والحضارة الحديثة وقدرته الإبداعية الخلاقة فتقول : « كان للعلم الإسلامى إنجازات تعلمت أوربا منها الشيء الكثير ، فقد وضحت على يد العلماء الإسلاميين أصول المنهج التجريبى بما يقتضيه من ملاحظات دقيقة دائبة ، ومن تسجيل منظم لهذه الملاحظات ، ثم وضع الفروض لتفسيرها وإجراء التجارب للتحقق من صحة هذه الفروض ، وكان الطب الإسلامى ، نموذجا يقتدى به الأطباء الأوربيين فى دقة الملاحظة ، ووصف الأعراض ، وتشخيصها ، وعلاجها بالعقاقير أو بالجراحة أو بممارسة العلاج الطبيعى ، كما كان أول أمثلة المستشفيات ، بمعناها الحديث ، هو « البيمارستان » الإسلامى ، بل بدا لديهم الاهتمام بالطب النفسى والعلاقات المتبادلة بين الجسم والنفس فى بعض الأمراض ، وما الطب إلا مثل واحد من أمثلة هذه العقلية المتقدمة التى أزالت الحد الفاصل بين النظرية والتطبيق ، وجمعت فى مركب واحد بين التأمل العقلى والفعل العملى ، وأعطت بذلك للإنسانية عامة وللحضارة الأوربية الحديثة بوجه خاص ، درسا رائعا فى منهج البحث العلمى الأصيل ، هذا العلم الإسلامى الذى ارتكز على دعائم قوية من المنهج التجريبى ومن الحقائق الرياضية الدقيقة كان واحدا من أهم العوامل التى أدت إلى ظهور النهضة الأوربية الحديثة ، فمنذ القرن الثانى عشر الميلادى ، أخذت المؤلفات العربية الكبرى تترجم على نطاق واسع إلى اللغة اللاتينية ، لغة أوربا خلال العصر الوسيط ، ولم يكن من المصادفات أن ينظر عدد غير قليل من الباحثين الأوربيين إلى هذا القرن بالذات ، على أنه نقطة البداية الحقيقية فى النهضة الأوربية ، أو نقطة التحول من العصور الوسطى المظلمة إلى المرحلة الممهدة لظهور العصر الحديث ، ولم يكن من المصادفات أيضا أن تكون الجامعات ومعاهد العلم الأوربية القريبة جغرافيا من مراكز الثقافة العربية فى جنوب إيطاليا وصقلية وفى فرنسا هى مراكز الإشعاع الأولى لهذه النهضة » ويستمر فؤاد زكريا فى مدح العلم الإسلامى وفى الإشادة بآثاره على العالم .

دهشة واستغراب :

ويحق للإنسان أن يندهش ، ولكنه يحسن الظن ويحاول التماس الأعذار ويهرع إلى التأويل أو مواصلة البحث فى فهم الدكتور من خلال مايكتب ، عله يرى الحقيقة الفكرية التى يقصدها الرجل وأول ماأحب أن أتطرق إليه ، هو البحث عن ميلاد كل من الكتابيين

والرأيين المتناقضين حتى أتبين هل كان للرجل رأى فرجع عنه بعد الدراسة ؟ أو كانت هناك ظروف ثم حدثت ظروف أخرى ؟!! حتى نستطيع أن نرد على الرجل ، فإن كان الرأى الذى يتهم فيه الإسلام بالجمود متقدما على الرأى الذى يمدح فيه ، عرفنا أن الرجل رجع عن رأيه وبدل نظرته ورشد إلى الصواب ، وأما إن كان العكس ، فنعلم كذلك أنه صارت هناك ردة عن الرأى الأول واستقرار على الرأى الثانى ، وحق لنا أن نناقشه فى رأيه هذا . ويأتينا الجواب سريعا بتصفح تواريخ كل من الكتابيين ، فنجد أن الرأى المادح للإسلام كان متقدما حيث أرخ له بمارس سنة ١٩٧٨ ، أما الرأى القادح فهو المتأخر حيث أرخ له بأكتوبر سنة ١٩٨٧ ، ونجد كذلك أنه قد واصل تعزيز رأيه فى عدم صلاحية الوحى للتطور العلمى ، فيطلب طلبا غريبا وهو تطوير النصوص الدينية حتى توافق أحدث التيارات العلمية بأفق واسع ، ثم أتى لنا بمثال أشد غرابة ، فطلب الاقتداء بالتجربة الغربية فى تطوير المسيحية فيقول : « وفى الوقت الذى استوعب فيه الغرب أشكالا مختلفة للعلاقة بين الله والعالم . مثل صورة الإلٰه الذى يحكم العالم بالرياضيات ، أو مهندس العالم ، عند « ديكارت » ، أو صورة الصانع الذى لايخطىء لساعة كبرى تظل تؤدى عملها بكفاءة وثبات ، هى الكون عند ليبفتش ، فإن العالم الإسلامى لا يسمح بمثل هذا التغيير فى شكل العلاقة بين الله والعالم بسهولة ، ولا يدمج هذه الصورة المتغيرة التى تعمل حسابا لتطورات العلم فى إطار العقيدة الدينية كما فعل هؤلاء الفلاسفة ، وعلى حين أن كبار مفكرى الغرب المتدينين يقبلون بسهولة الفكرة القائلة بأن عناصر كثيرة من الأفكار الدينية ينبغى أن تتغير نتيجة للمعرفة الجديدة التى جلبها العلم والتقنية ، مثل هذه الأفكار المرفوضة ـــ من حيث المبدأ ـــ فى معظم الأوساط الدينية الإسلامية ..... ومن ثم فإن الحضارة الإسلامية تجد صعوبة فى قبول الطريقة التى تم بها التوفيق بين العلم والدين فى الغرب المسيحى منذ عصر النهضة »(١) .

أقول كما قال بعضهم « ياللهول » أو كما يقول الآخرون « يا ألطاف الله » ، أيصبح المسلمون متأخرين لأنهم لم يطلقوا على الله المهندس الأعظم ، أو الإله الذى يحكم العالم بالرياضيات ، ويصبح القرآن جامدا إذا لم يغير أوصاف الله بالأسماء التى اختارها الأوربيون ، فألفاظ الصفات فى القرآن قد حجزت الحضارة ، والترنيمة الجميلة بأسماء الله

---

(١) خطاب إلى العقل العربى ص ٧٤ .

الحسنى فى القرآن قد فوتت على المسلمين اللحاق بالتقدم : ﴿ **هو الله الذى لا إلٰه إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السمٰوات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾(١) ، إن لكل اسم من هذه الأسماء أثراً فى هذا الكون ملحوظاً ، وأثراً فى حياة البشر ملموساً . فهى توحي إلى القلب بفاعلية الصفات والأسماء . فاعلية ذات أثر وعلاقة بالناس والأحياء ، وليست صفات سلبية أو منعزلة عن كيان الوجود ، وأحواله وظواهره ، ارتبطت بكيان المؤمن شعورا ومراقبة وسلوكا ، وارتبطت بضميره رجاءً وخوفا وطمأنينة وأمنا وعونا وانطلاقا ، وارتبطت بالكائنات حياة وخلقا وإبداعا وتصويرا ورعاية وإكراما ، تستجيش القلب لمتابعة عملية الخلق والإنشاء والإيجاد والإخراج ، مرحلة مرحلة ، وتسبح بالتصور الإنسانى إلى آفاق إلهٰية عليا .

أهذه المنظومة الجميلة للصفات الإلهٰية لا تساوى « مهندس الكون » أو « الله الرياضى » وما علاقة مهندس الكون بالتقدم عند الغربيين ، لم أسمع بتلك العلاقة ومدى علمى وأظنه مدى علمك كذلك أنه لم يعثر على تلك العلاقة إلا أنت !!!

ثم إننا قد عرفنا منطقك فى التجديد الذى يأتى بالحضارة ، وقد فهمنا ضمنا أن نترسم خطوات الغربيين فى التغيير حتى نتحضر ، وأنت تعلم يا مرشد العقل الحضارى ، أن المسيحية كانت عدوة لدوداً للعلم والعلماء ، وكانت عقبة فى سبيل التقدم ، وهذا ما يعلمه العالم كله ، وتعلم أيضا أن الذى قدم الغرب هو الإسلام ، والعلم الإسلامى ، والمنهج العلمى التجريبى الذى علمه المسلمون للعالم . وقد أقررت أنت به كذلك . فلم هذا التيه والشرود .

وأما منطقنا فى الحضارة:

فهو فتح آفاق العلم على مصراعيها وجعل العلم فريضه من الفرائض وإعلاء شأن العلم والعلماء وصدق الله ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** ﴾(٢) ، ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك**

---

(١) الحشر / ٢٢ — ٢٤ .

(٢) المجادلة / ١١ .

الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ (١) ، **﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾** (٢) ، **﴿ هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾** (٣) ، كما أن العلم عندنا اكتشاف للأسرار ، ومعرفة بالأسباب ، وبحث وتقصى ونظر وفكر **﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شىء قدير ﴾** (٤) .

وكلما أمعن الإنسان المسلم النظر والبحث انفتحت له الآفاق ، ورأى من الأسرار الكونية الكثير ، ومن الآيات الإنسانية العجب العجاب قال تعالى **﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾** (٥) .

كما أن العلم عندنا قوة دافعة وراءها عقيدة ، ورقى ونفع واختراع واكتشاف ورا خلق وهداية .

هذا هو منطقنا العلمى الإسلامى فأى عقبة جاء بها الإسلام فى سبيل العلم والفهم والمعرفة ؟ اذكر لنا العقبات حتى نرى ونعلم .

صراع الوهم :

لم يكتف الدكتور « فؤاد زكريا » بقوله عن الإسلام أنه لا يصلح للحضارة ، بل جعله عقبة فى سبيلها واخترع صراعا وهميا ، أحد طرفيه الحضارة والطرف الآخر الإسلام ، وسماه الصراع الأكبر فى سبيل التقدم والحضارة فقال : « ولكن الصراع الأكبر فى بلاد العالم الثالث وفى الأقطار العربية بصورة واضحة هو صراعها من السلطة الدينية » (٦) .

ولا ندرى ــ والله ــ أى سلطة دينية يقصد ، وهل للإسلام اليوم سلطة ، أم لعله يقصد الصراع الذى بين أمراض الحضارة ووهم التقدم ، الذى يجلبه سدنة الثقافة المشبوهة وعبيد المبادىء الهدامة وبين المتأيين على التسفل الخلقى والنفسى والتبعية والانهزامية ، لعله يقصد الصراع الذى يروج له صعاليك العمالة ويطارده العقل المسلم اللماح ، رغم مرضه ونومه الطويل وسهوه ولهوه عن تعاليم دينه الحنيف ، إن كان يقصد ذلك فنعم ونحن معه ،

---

(١) العلق / ١ ــ ٥ .
(٢) فاطر / ٢٨ .
(٣) الزمر / ٩ .
(٤) العنكبوت / ٢٠ .
(٥) فصلت / ٥٣ .
(٦) خطاب إلى العقل العربى ص ٢٠ .

ونحب أن نقول له : إن أزمنة استغفال الشعوب واستنواقها أحسبها قد ولت فلا تجدى السباحة فى الأمواج الصعبة .

شبهات لا أدلة :

من العجيب استدلال الدكتور فؤاد زكريا لما يقول ويدعى ، بشبهات ، يحسبها أدلة ، ويظنها حججاً وبراهين ، وأظن أن الرجل عنده القدرة على التفريق بين الشبهات والأدلة ، ولكنه يصر على رأيه على عكس ذلك ، ولا أدرى فى الحقيقة سبب ذلك وهو يعلمه بالتأكيد ، وإن كان بقليل من الجهد يمكن استنتاج ذلك . على قاعدة ﴿ **ولتعرفنهم فى لحن القول** ﴾(١) .

يستشهد د . فؤاد زكريا على أن الإسلام لا يصلح للقيادة الحضارية ، ببعض التطبيقات المعينة التى لم تؤد الغرض المطلوب منها فى المجال الحضارى ، فيقول :

« كانت هناك محاولتان لتطبيق الشريعة الإسلامية ضمن سلسلة أطول من المحاولات الأسبق عهدا ، كان على رأسها محاولة السعودية ثم باكستان ، فضلا عن المحاولات الجزئية فى أندونسيا وليبيا وغيرهما ، وفى جميع هذه المحاولات كانت النتائج واحدة أنظمة للحكم تبعد كل البعد عن الحرية والعدالة والمساواة وجميع القيم التى سعت إلى إقرارها كافة الأديان ودعا إليها الفلاسفة والمصلحون منذ أقدم العصور ، ومع ذلك فإن دعاة تطبيق الشريعة الإسلامية فى بلادنا لم يعيروا أى اهتمام لذلك الإخفاق الصارخ الذى انتهت إليه تلك التجارب السابقة ، بل إن أصواتهم ازدادت ارتفاعا فى نفس الوقت الذى كان فيه تجربة تطبيق الشريعة فى السودان ــ جارتنا الأبدية وشريكتنا فى شريان واحد للحياة ــ قد تحولت إلى فضيحة عالمية » (٢) .

ويكفى أن أقول للدكتور زكريا : هل سمعت أن أحدا مما ذكرت كان يطالب بتطبيق الشريعة ، أو كان عالما بها وبأحكامها ، أو كان يطبقها على نفسه ، أو اختار لتطبيقها كوادر ، تستطيع أن تبرزها أسلوب عمل ودستور حياة ، أم أنها اتخذت ستارا لأعمال إجرامية وأغراض شهوانية بحتة ، وهل كان القذافى يطبق الإسلام ، وهل كان نميرى كذلك أم كانا يطاردان العاملين للإسلام ويعلقونهم على أعواد المشانق ويملآن بهم السجون

---

(١) محمد / ٣٠ .

(٢) الحقيقة والوهم ص ٧ ط كتاب الفكر .

والمعتقلات ، أم كانت تستغل الشريعة لتجميع الناس حول الحكام عند انفضاض الجماهير عنهم ، وافتضاح أمرهم ، ويدفع الناس إلى تصديقهم حب الخروج من الظلم والبعد عن التعسف الذى كان يراودهم ويداعب أحلامهم عند تطبيق الإسلام ، فإذا بهم كالظمآن الذى حسب السراب ماء . حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ؟

ثم إنك قد أجبت قبل أن يجيبك الناس ، ولكنك حاورت وراوغت ولم تسمع إلى صوت الحقيقة ، فقلت : « إن الرد الجاهز الذى يرد به أنصار هذه الجماعات (الإسلامية) على كل من ينبههم إلى إخفاق هذه التجربة فى تطبيق الشريعة . هو : أن هذا ليس الإسلام ، وأن أخطاء نميرى أو ضياء الحق مثلا ، هو خطأ أشخاص وليس خطأ الإسلام فى ذاته »[1] .

وهذا هو الجواب يا دكتور زكريا ، وأنت تدرى ، ولكنك تريد أن لا تدرى فماذا نفعل لك ، ونريد أن نسألك سؤالا ونحب أن تجيبنا عليه : أتقبل الدعاوى بدون بينات ، وتعتبر الأسماء بدون المسميات ، وهل إذا جاء أحد يريد أن يقبض رصيدك فى البنك وادعى أنه أنت ، يقبل هذا بدون إثبات شخصيته ، وتكون أنت المسئول عن هذا الادعاء أم إذا نفّذ إنسان الشيوعية كالقذافى ، ونفّذ إنسان الانتهازية والدكتاتورية كنميرى وادعى أنه ينفذ الإسلام أيكون الإسلام مسئولا عن ذلك ؟

لماذا تريد أن تقلب الحقائق ولا تعترف حتى بصوت الحق على لسانك ، أهناك سبب ؟!... وأحب أن أهدى إليك وإلى كل مخلص هذه الحقائق :

أن الأمم والشعوب لا تقوم إلا على أربعة حقائق أو قل أربعة أركان :

الأول : المنهاج الصحيح ، وقد وجدناه فى كتاب الله وسنة رسوله .

الثانى : الكوادر المؤمنة القادرة التى تنفذ هذا المنهج ، وتدعو إليه ، وتتمثل به ، فإن لم توجد هذه الكوادر فلابد من إيجادها .

الثالث : القيادة الحازمة الموثوق بها العاملة بالمنهج السائرة نحو الأهداف .

الرابع : أمة ناضجة مستنيرة تحرس التعاليم ، وتقوم من ينحرف عنها ، لها من الحرية والكرامة حصانة وقوة .

---

(١) المصدر السابق ص ٧ .

هذا يا أخى زكريا مجمل ما أقوله لك وأنبهك إليه حتى لايكون كلامك خال من الحجة والمنطق بل والعقلانية التى تدعو إليها !.

حقائق وأباطيل :

ادعى كثيرون على مدار التاريخ وخاصة فى العصر الحديث أنهم ينفذون الإسلام ، « الإسلام المودرن طبعا » ، وكان يكفى للدلالة على كذبهم أقوالهم المشبوهة وأفعالهم المفضوحة ، كالثعلب الذى يدعى أنه إمام الناسكين ، ولكنه ثعلب والكل يعرف ذلك ولهذا لم تنفعه دعواه أو يجديه تنسكه .

ولنضرب مثلا على ذلك : بالدكتور « طه حسين » الذى أعلن فى حفل أقامه له طلبة كلية الآداب ، بأنه نصير الإسلام ثم قال : « إننى أتمنى ان يقيض الله للإسلام من يدافع عنه ، وأن ينشره ويحببه للناس كما أنشره وكما أحبب مبادئه للناس » وكان فى الماضى حرية فكرية جيدة وتلاقح مفيد للآراء وصحافة شبه منصفة فكتب له الداعية الأستاذ « حسن البنا » قائلا : « إذا صح ذلك يادكتور فقد اتفقنا كل الاتفاق ، واعتبرنا أيها الداعية المسلم جندك منذ الساعة ، فإنا للإسلام نعيش » وله نحيا وفى سبيل الدعوة إليه نموت شهداء ، صدقنى يادكتور طه ، من غير أن أقسم لك وإن شئت فأنا أقسم على هذا ، إننى لأتمنى من كل قلبى أن أرى ذلك اليوم الذى تدعو فيه أنت للإسلام وتنشره بين الناس وتحبب. النمه إليهم ، فإنك رجل جرىء ، لك قلم ، ولك لسان ، ولك تلامذة معجبون وأصد مخلصون ، وفيك دأب ونشاط وإنتاج خصيب ، مانحسدك على هذا ، ولكننا نتمنى أن يكون ذلك فى ميزان الإسلام لاعليه ، ولافى كفة الخصومة له وتوهين أمره بطريق غير مباشر ، فهل يجىء حقا ذلك اليوم ؟ أسألك يادكتور مخلصا لأطمئن ، لا متحديا لأتعنت ، إن لك تلامذة قد اختصصت بهم واختصوا بك ، فأيهم ظهر أثر دعوتك فيه ، فكان لسانا إسلاميا ، أو قلما إسلاميا ، أو صفحة من صفحات الفكرة الإسلامية ، أو مظهرا من مظاهر التمسك بالإسلام ؟! وإنك قد ساهمت فى خدمة الكثير من القضايا الاجتماعية ، وحضرت كثيرا من الأحفال والمؤتمرات فى داخل القطر وخارجه ، ففى أى من هذه جميعا نطقت باسم الإسلام ، أو دعوت إلى تعاليمه ، !! وأنت يادكتور أستاذ فى الجامعة المصرية منذ أنشئت ، فأنشدك الحق : هل تذكر أنك عرضت فى دروسك ومحاضراتك لطلبتك بما يلفت أنظارهم إلى جلال هذا الدين وروعته ومتانة تشريعه ، هذا والمادة التى

اختصصت بتدريسها ألصق مواد الدراسة بالإسلام وكتاب الإسلام ؟ ولا أحرجك فأقول — وأنشدك الحق يادكتور — أفتحيا أنت فى حياتك اليومية على نمط إسلامى وتطبع أسرتك كرب بيت بهذا الطابع ، ودع البيت ومافيه ، أفتقوم أنت فى حياتك الشخصية بواجبات الرجل المسلم ، فضلا عن الداعية الذى يتمنى أن يقيض الله للإسلام من يدافع عنه مثله ؟ ولا أحرجك بهذا السؤال الأخير ولا أطالبك بجوابه ، فأنتم معشر الدعاة العصريين تفرقون بين الحياة الشخصية والحياة العامة ، كأن واجبات الفضيلة وتعاليم الإسلام لا تتناولها جميعا ، وكأن الحياة العامة للفرد ليست مرتبطة بحياته الخاصة كل الارتباط ؟!

وبعد ، يادكتور « طه » : فهل من الدعوة للإسلام أن تعرض للنظر فى القرآن بالأسلوب الذى اخترته لنفسك من قبل — ولعلك عدلت عنه من بعد وهو ما أسرّ له — حتى مع تسليم الدعوة بأنه بحث علمى بحت !! وهل من الدعوة للإسلام أن تقف وقفتك المعروفة فى شأن الكتابيين الإنكليزيين ، وما كان عليك ولا على الجامعة ولا من حرية الفكر من بأس أن تستجيب لأبناء من تلاميذك رأوا فى هذا الكلام طعنا فى مقدساتهم ، فلجأوا إليك بالطريق القانونى فى هدوء وأدب .. أو ماكان أولى بالداعية إلى الإسلام أن يشجع هذه الغيرة وييسر لها ويعطف كل العطف على القائمين بها ؟!!

وهل من الصراحة التى لا تعدلها صراحة : أنه لاسبيل لنا إلى الرقى إلا إذا قلدنا أوربا وسلكنا مسلك الأوربيين ، لنكون لهم شركاء فى حضارتهم ، خيرها وشرها ، وحلوها ومرها ، ونافعها . وضارها ، مايحب منها ومايكره ، ومايمدح منها وما يعاب ، ومن زعم لك غير ذلك فهو خادع أو مخدوع !! ولعلك تقول كما قلت : إنما أريد الدعوة إلى العلم وإلى القوة وإلى الخلق وإلى النظام ، وهذا حسن جميل ، ولكن أفترى أن الإسلام لم يسلك بالمسلمين السبيل إليه قبل أن تخرج أوروبا من ظلمات جهلها بمئات السنين ؟ فلم تدعونا إلى العلم والقوة والخلق والنظام باسم أوروبا الناشئة المتخبطة ولاتدعونا إلى ذلك باسم الإسلام الثابت الدعائم الراسخ الأركان ؟! وهل من الدعوة إلى الإسلام أن تخلط يادكتور بين الفتيات والفتيان هذا الخلط فى كلية الآداب ، فتحذو حذوها غيرها من الكليات ، وتبوء أنت بإثم ذلك كله ؟ وتزين للفتيات فى صراحة هذا الاختلاط وتحثهن عليه ، وتدعوهن إليه ، ولاتقل إن هذا من عمل غيرك ، فيداك أوكتا وفوك نفخ ، وما تحمس لهذا ودعا إليه وحمل لواءه واستخدم نفوذه فى تحقيقه أحد كما فعلت ذلك أنت !!

ولعلك تعتبر هذا من مآثرك ومفاخرك ، ولكنى أخالفك يادكتور ، وأصارحك بأن هذا الاختلاط ليس من الإسلام ، ولقد رأينا وسنرى ماسيكون له من آثار .

هذه صيحتك يادكتور فى الدفاع عن الإسلام والدعوة إليه ، فهل لاتزال بعد هذا الحساب اليسير غير العسير الذى لا مناقشة فيه ولاقسوة ولا عدوان ، مصرا على أن يقيض الله للإسلام من يدافع عنه ، ومن ينشره ويحبب تعاليمه إلى الناس كما تفعل ؟ على أننا على استعداد أن ننسى الماضى جميعه ونأخذ فى جديد مثمر منتج على الأساس الذى وضعته أنت وارتضيناه نحن : أن تثبت فى نفوسنا ونفسك مكانة الإسلام ، وأن تدافع عنه ، وأن تنشر تعاليمه وأن تحببه للناس ، وعلى أن يكون هذا الإسلام هو كتاب الله ، كما تفسره اللغة العربية الواضحة ، وسنة رسول الله ﷺ الثابتة الصحيحة ، كما فهمها السلف الصالحون رضوان الله عليهم ..

فهل يضع الدكتور طه يده فى يدنا على هذا الأساس ، ثم نعاهد الله جميعا على أن نكون أمناء له مخلصين له مجاهدين فى سبيله ؟ وكلمة أخيرة يادكتور : لقد قلت — وهو قول حق — إن حياتنا موقوتة ، وكل مافيها موقوت ، وإن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يسترد المنحة التى منحها لنا وهى الحياة فى أى لحظة ، وهو قادر على أن يسترد مايمنحنا أثناء الحياة ، ما أجمل هذا الإيمان أذكرك هذه الكلمات ، وأذكرك أنك الآن رجل قد جاوزت سن الآمال الخلب ، وصرت إلى الآخرة أقرب ، وأسأل الله أن يطيل حياتك خادما مخلصا للإسلام ، وإن هذا الشعب شعب كريم طيب القلب ، سرعان ماتنسيه الحسنة الواحدة كثيرا من السيئات ، وإن الله تبارك وتعالى واسع المغفرة عظيم الفضل عفو كريم ، فلا عليك يادكتور أن تختم المطاف بتوبة صادقة نصوح ، وتتجرد للإسلام ، ولخدمة الإسلام ، ولنشر الإسلام ، ولتحبب تعاليمه بحق إلى الناس ، فتفوز بخير الدنيا وسعادة الآخرة ، ذلك مانرجوه منك ولك ، وقلوب الناس بيد الله يصرفها كيف يشاء ، فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته »[1] .

وبعد ، ماذا كان من أمر طه حسين ، أيحسب على الإسلام كذلك وقد قال ماقال ، أم حكم عليه عمله ، وصنفه فعله وماااستطاع خداع إنسان ، وصدق من قال : « لو ترك الناس ومايدعون لادعى أقوام أموال الناس ودماءهم » ولكن البينة على من ادعى ،

١) عن مجلة الدعوة المهاجرة — فبراير سنة ١٩٨٦ ص ١٦ .

والبينة عمل وفعل وسيرة وسلوك ، وشهود صدق .

الإسلام كبير وعظيم وقوى وقاهر ؛ لأنه كلمة الله فلا يغالبه الضعفاء المهازيل ، والإسلام بحر لجى لاتكدره الدلاء ولا تعكره الأدران والخطوب والمحن ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون .

الفصل الثانى

حجج وبراهين

شهادة الخبراء والعلماء:

لاشك أن شهادة الخبراء والعلماء وأهل الاختصاص يعول عليها فى مجال اختصاصهم ، ويلتفت إليها فى ميزان النقد ، ويعتمد عليها عند بحث الأمور واتخاذ القرارات ، أما أقوال العامة أو كلمات الهواة التى يهرفون بها ، أو أحقاد العابثين وأحاديث المتسرعين ، فهى أوهام وظنون غالبا ماتحمل شهوات أصحابها وأهواءهم .

ويجدر بنا فى هذا الموقف الذى نحن فيه ، أن نورد بعضا من أقوال خبراء القانون وعلماء الفقه وأهل الاختصاص ، حتى يظهر الحق وينكشف الباطل وتكون كلمة الله هى العليا .

ـــ فى سنة ١٩٣٧ حينما نادت الأمة بالاستقلال ، اجتمع لفيف من المخلصين المتخصصين من رجال القضاء والقانون والفقه من دعاة الأصالة والتحرر التشريعى والقضائى من التبعية الأجنبية ـــ وطالبوا بتطبيق الشريعة الإسلامية ورفعوا بذلك تقريراً إلى الحكومة جاء فيه : « إذا ماأريد حقا أن تضع مصر لنفسها ولأهل العروبة قانونا مدنيا يضارع أحدث قوانين العالم ، بل يسمو عليها ، كان لزاما عليها أن تتجه إلى ثروتها الوطنية وتراثها المجيد ، ألا وهو الشريعة الإسلامية (وأضافت اللجنة) لذا قد وضعنا مشروعا كاملا لكتاب العقد ـــ وهو أساس المعاملات المدنية ، مستمداً من أحكام الفقه الإسلامى ووازنا بينه وبين مايقابله ، كما رجعت اللجنة إلى نحو عشرين قانونا من القوانين الحديثة فى العالم فرجحها .... »(١)

---

(١) الأهرام القاهرية . مقال للدكتور جمال محمود نائب رئيس محكمة النقض ١٥ / ٨ / ١٩٨٥ وسيادة الشريعة ص ٣٥ .

ـــ ويقول أحد فحول وأساتذة القانون فى العالم العربى والجامعات العالمية الدكتور « توفيق الشاوى » :

« إذا كان كثير من المتحمسين لتطبيق الشريعة الإسلامية يحرصون على تذكير الناس بإيمانهم المطلق بسمو الشريعة وصلاحيتها لكل زمان ومكان بسبب مصدرها الإلهى ، فعلة ذلك أنهم يخاطبون العقلاء ليذكروهم بميزة خاصة بالشريعة الإسلامية ، هى أن مصدرها الإلهٰى يعطى لأحكامها والتشريع المستمد منها قوة فى التطبيق ، تفوق قوة التشريع الوضعى ، لأن الناس يلتزمون بها طائعين مختارين سعداء ، لأن طاعتهم للشريعة فريضة دينية وخضوع لأمر الله سبحانه وتعالى ، أما الخضوع للتشريع الوضعى فهو مجرد خضوع لإرادة الحاكم وسلطة الدولة التى أصدرته ... إن الأصول السماوية والمصادر الإلهية للشريعة الإسلامية المتمثلة فى القرآن والسنة لاتتعارض مع الجهد العقلى ، والجانب العلمى الذى يعتبر مصدرا بشريا للفقه تحت اسم الاجتهاد أو الإجماع القائم على الأصول الشرعية ، وارتباط الاجتهاد البشرى بالكتاب والسنة يكسب التشريع قدرا من الثبات والاستقرار ، يحمى الناس من نزوات الحكام الذين يثبون على السلطة بطريق غير مشروع ، أو يتخذونها وسيلة لفرض أهوائهم ، وتنفيذ مآرب أحزابهم ، أو الطوائف أو الطبقات أو العصبيات التى يمثلونها ، إن الشعوب اليوم تشعر بأنها فى أشد الحاجة إلى الاستقرار والأمن الذى تضمنه لهم الشريعة الإسلامية ـــ لأنهم قاسوا كثيرا من نزوات الحكام وأهوائهم التى تفرض عليهم فى صورة « قوانين » وضعية ، تتغير بتغير الحكام ، وتتبدل بتبدل الأنظمة الحاكمة ، التى لايعرف الناس كيف تأتى وكيف تفرض عليهم ، وماذا وراءها ، وماهى أهدافها . هذه الأنظمة سلاحها هو القانون الوضعى وهو إرادة الحاكم الذى يدّعى أنه الحكومة أو الدولة ، أما الشريعة فميزتها عند شعوبنا أنها لاتمنح الشرعية إلا لقانون مستمد من مصادر الشريعة ومبادئها وأحكامها ، ولاتعترف بالقانون الوضعى الذى يستمد من إرادة الدولة وحكامها ـــ سواء كان الحاكم عاقلا أو مجنونا ، وقد رأت الشعوب حكاما يوصفون بالجنون وبالشذوذ وبالطغيان ـــ فكيف تسمح شعوبها لنفسها أن تخضع لقوانين يصنعها هؤلاء ويفرضونها عليهم بحجة أنها قوانين وضعية ، وهم يرونها تخالف مبادىء الشريعة وأحكامها وتشذعنها وتتعارض معها ؟ .

ولو وقف الأمر عند احتمال فساد الحكام أو استبدادهم أو استغلالهم لهان الأمر ، ولكن كل حاكم يلتف حوله بطانة تؤيده وتشاركه ـــ فإن كانت هذه البطانة من المنافقين

والانتهازيين والاستغلاليين الذين يغرونه بالظلم والفساد ويشاركونه فيه ، فإنهم غالبا يعملون لمصالحهم الذاتية أكثر مما يعملون لحسابه !![1] .

فلابد إذن من دستور قوى لايملك الحاكم على استبداله أو التلاعب به ، وشعب قوى حر ، يستطيع أن يقول كلمته ، دفاعا عن حقوقه ومبادئه ، وإلا فالاستبداد والامتهان للقانون والأمة ، وقد كان « لويس الرابع عشر » ملك فرنسا المستبد صريحا فى التعبير عن ذلك عندما قال كلمته المشهورة « أنا الدولة » .

وقد قال « كمال أتاتورك » لصاحب عربة تجرها الخيول : « أنت تقود مثلى. ولكننى أقود مئات الآلاف من الناس وأجعلهم يسيرون نحو الطريق المؤدية إلى الموت بكل رحابة صدر »[2] .

ــ وممن أبان مميزات الشريعة فحل هذه الأمة ، وأكبر فقيه فى القانون فى هذا الجيل أنجبه العالم العربى كله ، هو المرحوم « عبد الرازق السنهورى باشا » ، حيث قال فى مذكرة لجنة تعديل القانون المدنى : « إن مصر إذا أرادت أن تصنع لنفسها ولأهل العروبة قانونا يضارع أحدث قوانين العالم ــ بل يسمو عليها ــ كان لزاما عليها أن تتجه إلى ثروتها التشريعية وتراثها المجيد المتمثل فى الشريعة الإسلامية »[3] كما يقول فى الكلمة الافتتاحية لكتاب الخلافة .

ــ ويقول الدكتور « محمد على محجوب » الأستاذ بكلية الحقوق بجامعة عين شمس ورئيس لجنة الشئون الدينية بمجلس الشعب المصرى : « نستطيع أن نقرر بكل تأكيد ووضوح أن الشريعة الإسلامية قد امتازت بالسمو والكمال ... وليس هناك فرع من فروع القانون الحديث لم يتكلم عنه الفقهاء المسلمون ، بل إن النظريات التى وضعها هؤلاء الفقهاء والأحكام التى استنبطوها من روح الشريعة الغراء تعتبر المنار الذى أنار لمن بعدهم طريق الفكر القانونى الأصيل فى نطاق القانون العام والخاص على حد سواء »[4] .

ــ ويقول المستشار « على محيى الدين ياسين » رئيس محكمة عابدين مدافعا عن التشريع الجنائى الإسلامى ، وسياسة العقاب فى الحدود الشرعية : « إن الإسلام أقام

---

(١) سيادة الشريعة الإسلامية ص ٤٠ ، ٤٢ .
(٢) الرجل الصنم . عبد الله عبد الرحمن ص ٣٦٥ .
(٣) سيادة الشريعة الإسلامية ص ٤٣ .
(٤) مجلة منار الإسلام عدد يوليو عام ١٩٨٥ .

سياسة التجريم والعقاب على أسس وأهداف تعود على المجتمع بالخير والأمن والاستقرار ، وهى الحفاظ على العقيدة والنوع البشرى والعقل والعرض والمال ، وبهذا استطاع الإسلام أن يقدم للإنسانية كل أنواع النفع العام ، وأقام للحضارة معالم لولاها لظلت أوربا غارقة فى ظلمات العصور الوسطى .... »[1] .

ــ وقد أكد هذه الفكرة أيضا رئيس محكمة النقض هو الدكتور « جمال الدين محمود » فى مقال له تحت عنوان « الحدود الإسلامية وسياسة التجريم والعقاب فى مصر » قال فيه « إن الذين يطالبون بتطبيق الحدود فى مصر ، لايدفعهم إلى ذلك الحماس الدينى وحده ، فهم يدافعون عن منهج علمى واضح المعالم فى سياسة التجريم والعقاب ، ولهذا المنهج أسانيده العقلية والعلمية والعملية ، فضلا عن الإيمان بصحته وسلامته وفائدته ، ومن الظلم أن يدعى البعض التعارض بين المنهج الدينى والمنهج العقلى فى المسائل المتعلقة بالتشريع الجنائى الإسلامى ، فهذه المسائل ليست من الغيبيات ، ولاتختلف فى بحثها ودراستها عن السياسات الوضعية المعروفة فى التجريم والعقاب إلا فى جوانب معينة ، وهذا الاختلاف حين يدرس دراسة جادة يؤكد قدرة المنهج الإسلامى فى السياسة الجنائية على تحقيق العدل والمصلحة الاجتماعية بطريقة أوفى مما تحققه المناهج المطبقة حاليا ، وربما لايعلم الكثيرون أن القواعد العامة فى التجريم والعقاب والتى استقرت فى السياسات الجنائية الحديثة أو مايطلق عليه أساتذة القانون الجنائى (القسم العام فى قانون العقوبات) تتماثل مع قواعد التشريع الجنائى الإسلامى ... »[2] .

ــ ويقول أحد شيوخ القضاء فى مصر وهو الدكتور « عبد الرحمن عياد » : « إن أكثرية المتحمسين لتطبيق الشريعة الإسلامية يبنون اعتقادهم بصلاحية هذا التطبيق ليس فقط على إيمانهم كمسلمين ، وإنما على ذات الفكر العقلى البحث الذى أوجب الإسلام نفسه إعماله ، وأن اقتناعهم جاء نتيجة دراستهم أو نتيجة تجاربهم فى الحياة وتفكيرهم المستقل أو الأثنين معا »[3] .

ــ ويقول الدكتور « أبو الوفا التفتازانى » فى ندوة نظمتها جريدة الأهرام : « إن الشريعة الإسلامية هى أساس وجودنا وهويتنا المستقلة فى العالم المعاصر ، ولها أهميتها فى تحديد هويتنا

(١) جريدة الجمهورية المصرية ١ / ٩ / ١٩٨٥ .　　(٢) جريدة الأهرام المصرية ٤ / ٩ / ١٩٨٥ .

(٣) جريدة الأهرام المصرية ٢٧ / ٨ / ١٩٨٥ .

السياسية فى عصر الصراع الفكرى والتكنولوجى ، حيث تتضارب النظريات السياسية الآتية من الشرق والغرب والتى ترتبت عليها الحيرة التى يعيشها معظم شبابنا حيث يدعى البعض انتمائه إلى نظريات (غربية أو شرقية) فى الوقت الذى ينبغى أن تكون لنا شخصية فكرية وحضارية وذاتية متميزة »[1] .

ـــ ويقول الدكتور « حامد جامع » الأمين العام للمجلس الأعلى للأزهر ـــ حول سؤال « هل تطبيق الشريعة الإسلامية يعارض نظامنا القائم وإذا عارضه فما الحل » : « أستأذن فى أن أقول للأهرام بكل صراحة أنه إذا عارض أى نظام شرع الله فشرع الله أولى .... لأن الحكم لله وما الحكم إلا لله .. هذا إذا حصل تعارض »[2] .

شهادة المنصفين من علماء الغرب :

انبرى من علماء الغرب المنصفين جموع تدافع عن التشريع الإسلامى وعن إبهاره ورصانته وفضله وسموه ، وأنه قد سبق الفكر الإنسانى بأزمان ومازال :

ـــ يقول العلامة « سيريل » عميد كلية الحقوق بجامعة فينا « الكاثوليكى المذهب » فى كلمة أمام مؤتمر الحقوقيين عام ١٩٢٧ : « إن البشرية لتفخر بانتساب رجل كمحمد إليها ، إذ أنه رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرنا أن يأتى بتشريع سنكون نحن الأوربيين أسعد مانكون لو وصلنا إلى مستواه بعد ألفى عام » .

ـــ وقد قرر مؤتمر « شعبة الحقوق الشرقية فى المجتمع الدولى للقانون الرومانى » سنة ١٩٥١ ، المعقود فى كلية الحقوق فى باريس فقال المؤتمر : « أثبتت الأبحاث بجلاء أن الفقه الإسلامى يقوم على مبادىء ذات قيمة أكيدة لامرية فى نفعها ، وأن اختلاف المذاهب الفقهية فى هذا الجهاز التشريعى الضخم ينطوى على ثروة من الآراء الفقهية وعلى مجموعة من الأصول البديعة التى تتيح لهذا الفقه أن يستجيب بمرونة لجميع مطالب الحياة الحديثة » .

ـــ كما أصدر مؤتمر « القانون الدولى المقارن فى لاهاى » أغسطس ١٩٣٧ قرارا هو « أن الشريعة الإسلامية حية صالحة للتطور ، ومسايرة المدنية الحديثة ، وأنها لذلك جديرة

---

(١) جريدة الأهرام المصرية ٢ / ٨ / ١٩٨٥ .

(٢) جريدة الأهرام المصرية ٩ / ٨ / ١٩٨٥ .

بأن تشغل مكانة ممتازة بين مصادر القانون المقارن » .

ــ وقال « كتشنر » القائد البريطانى للقوات البريطانية فى الشرق الأوسط إبان الحرب العالمية الأولى : « إن الدولة العثمانية لاتصلح بالقوانين التى تقتبسها منا معشر الأوربيين ــ حيث لم تصلح لنا هذه القوانين إلا بعد تربية تدريجية فى عدة قرون كنا نغير منها ونبدل بحسب اختلاف الأحوال ، وأن عندكم شريعة عادلة موافقة لعقائدكم ولأحوالكم الاجتماعية ، فالواجب على الدولة أن تعمل بها وتترك قوانين أوربا فتقيم العدل ، وتحفظ الأمن ، وعندى أنها لاتصلح بغير هذا » .

ــ وقال فيلسوف ألمانيا « جوته » : « أى شريعة لم تتمكن من أن تعلو فوق شرع محمد ، وأن التشريع فى الغرب ناقص على الرغم من تقدمه ، ناقص بالنسبة للتعاليم الإسلامية ، وإننا أهل أوربا بجميع مفاهيمنا لم نصل بعد إلى ماوصل إليه محمد ، وسوف لايتقدم عليه أحد » .

ــ وقال العلامة « سانيتلانا » فى كتابه « الفقه الإسلامى » المطبوع فى تونس سنة ١٨٩٩ : « إن فى الفقه الإسلامى مايكفى المسلمين فى تشريعهم المدنى ، إن لم نقل إن فيه مايكفى الإنسانية كلها » .

ــ ويقول العلامة « كيهلر » العالم القانونى الألمانى ــ بعد أن قرأ بحثا للدكتور محمود فتحى عن مذهب الاعتساف فى استعمال الحق عند فقهاء الإسلام : « إن الألمان كانوا يتيهون عجبا على غيرهم فى ابتكار نظرية الاعتساف فى القانون المدنى الالمانى الذى وضع سنة ١٧٨٧ م ، أما وقد ظهر كتاب الدكتور فتحى ، وأفاض فى شرح هذا المبدأ عند رجال التشريع الإسلامى ، وأبان أن رجال الفقه الإسلامى تكلموا طويلا ابتداء من القرن الثامن الميلادى ، فإنه يجدر بالعالم القانونى الألمانى أن يترك مجد العمل بهذا المبدأ لأهله الذين عرفوه قبل أن يعرفه الألمان بعشرة قرون ، وأهله هم حملة الشريعة الإسلامية » .

ــ وقال « هوكنج » الأمريكى أستاذ الفلسفة فى جامعة هارفارد فى كتابه « روح السياسة العالمية » مصورا مشاعره تجاه الثقافة الإسلامية إزاء الشريعة الإسلامية : « إن سبيل تقدم الممالك الإسلامية ليس فى اتخاذ الأساليب الغربية ، التى تدعى أن الدين ليس له أن يقول شيئا عن حياة الفرد اليومية ، وعن القانون والنظم السارية ، وإنما يجب أن يجد المرء فى الدين مصدراً للنمو والتقدم ، وأحيانا يتساءل البعض عما إذا كان نظام الإسلام

يستطيع توليد أفكار جديدة ، وإصدار أحكام مستقلة تتفق مع ماتتطلبه الحياة العصرية ، والجواب هو : أن فى نظام الإسلام كل استعداد داخلى للنمو ، بل إنه من حيث قابليته للتطور يفضل كثيرا من النظم المماثلة ، وعندى أن الصعوبة لم تكن فى انعدام وسائل النمو والنهضة فى الشريعة الإسلامية ، وإنما فى انعدام الميل إلى استخدامها ، وإننى أقرر أن الشريعة الإسلامية تحتوى بوفرة على جميع المبادىء اللازمة لنهضتها » .

ـــ ويقول الدكتور « انسباتو » الإيطالى فى كتابه « الإسلام وسياسة الخلفاء » المطبوع ١٩١٩ : « إن الكرم العلمى والصدق الفكرى صفتان من صفات الإسلام ، شأنهما أن يجعلا الأمة العاملة بهذا الدين أهلا لأن تبلغ من الحضارة ذروتها العليا » .

ـــ ويقول الفيلسوف « فاندبرغ » الألمانى : « لقد وضع للرقيق فى الإسلام قواعد كثيرة تدل على ما انطوى عليه الإسلام من الشعور الإنسانى النبيل ، ففيها نجد من محامد الإسلام ما يناقض كل المناقضة الأساليب التى كانت تتخذها إلى عهد قريب شعوب تدعى أنها تمشى فى طليعة الحضارة » .

ـــ ويقول « هولتز ندرون وريفى » الألمانى : « أنه يوجد فى الفقه الإسلامى جميع القواعد الجوهرية التى تتعلق بشريعة الحرب ولم تقتصر على الفتح ، بل تجاوزتها إلى فرض الضرائب ، وذكر المواد المحرمة على التجارة ونظائرها مما لا يختلف الاسم عما يستعمل فى يوم الناس هذا » (١) .

---

(١) انظر فى ذلك آفاق جديدة فى الدعوة الإسلامية ص ٧٩ ، ٨٤ .

الباب الرابع

سياحة فى العقل العالمى

الفصــــل الأول : المهتدون الباحثون عن الحق .

الفصل الثـانى : الصادقون المقررون للحقيقة .

الفصــــل الثالث : الحاقدون من المستشرقين .

الفصل الرابــع : الحاقدون والمتربصون من الساسة .

سياحة فى العقل العالمى

العقل العالمى ملىء بالاتجاهات المختلفة ، والأفكار المتباينة ، والمذاهب المتعددة ، وكل له رجاله ، وله إعلامه ودعاته ، وقواه المساندة .

{ ولا يزالون مختلفين . إلا من رحم ربك }

ولكن الذى يهمنا فى هذه السياحة هو إلقاء الضوء على هذه الاتجاهات من حيث صلتها بالإسلام ، وتعاملها معه ، وتفاعلها تجاهه ، سلبا أو إيجابا ، سلما أو حربا .

ومن هؤلاء معارضون ..

ومنهم محبون ..

ومنهم مهتدون ..

الفصل الأول

المهتدون الباحثون عن الحق

يجد الإنسان فى تلك السياحة عقولا تبحث عن الحق ، وتنقب عن الهداية ، جادة دؤوبة مخلصة ، تجردت عن أهوائها وأدرانها ، وضنت بقواها العاقلة أن تكون مركبا للخرافة أو سفينة للأحقاد والأطماع الباطلة ، أو سجنا للتقاليد والعادات الموروثة . وتوجهت نحو الحكمة تأخذها من أى وعاء خرجت ، ونحو المنطق والدليل والبرهان الموصل إلى الحقيقة المرادة لتعيش فى رحابها مواكبة لنوازعها وملكاتها ، وموافقة لفطرتها وطبيعتها الخيرة ، فتقابلت تلك العقول الجادة مع الرسالة الخالدة ومع الهداية الغامرة ومع الإسلام الوضاء فى ميدان البحث عن الحقيقة ، فبهرتها حقيقته ، وجذبتها تعاليمه ، وأسرتها شريعته ، فسارعت إليه وألقت بأنفسها فى رحابه ، وبمجدافها على شاطئه ، ورفعت رايته ، واعتنقت مبادئه ، وأصبحت من جنده ، ونضرب الأمثلة على ذلك من الواقع المعاش :

● **محمد أسد :**

ولد « محمد أسد » فى النمسا عام ١٩٠٠ ، وكان اسمه « ليوبولد فايس » ، وعن ظروف اعتناقه للإسلام يقول : إنه اعتنق الإسلام فى عام ١٩٢٦ م بعد أن قام بجولة فى أنحاء العا الإسلامى ، مراسلا لبعض أمهات الصحف الأوربية فى الفترة ما بين عام ١٩٢٢ م إلى ١٩٢٦ م وأبدى اهتماما بنظام الحياة فى مجتمعات تلك البلاد ، ووجد أن النظرة إلى الحياة فيها تختلف اختلافا أساسيا عن النظرة الأوربية للحياة ، فقاده ذلك إلى البحث فى تعاليم الإسلام .

وقد لاحظ التباعد الواضح والكبير بين ماضى الإسلام وحاضره ، وراح يبحث مشكلة التخلف السائد فى العالم الإسلامى رغم الإمكانات المثلى التى تقدمها التعاليم الإسلامية ، وانتهى إلى أن هناك سببا واحدا فقط للانحلال الاجتماعى والثقافى بين

المسلمين ، وهو ابتعاد المسلمين شيئا فشيئا عن روح التعاليم الإسلامية ، فراح يبحث عن السبب الذى دفع المسلمين إلى هجر تطبيق تعاليم الإسلام ، وناقش هذه المشكلة مع كثير من المسلمين يقول فى هذا المجال : « ناقشت هذه المشكلة مع كثير من المسلمين المفكرين فى جميع البلاد التى زرتها من طرابلس الغرب إلى هضبة البامير (بالهند) ومن البسفور إلى بحر العرب ، فأصبح ذلك تقريبا شجى فى نفسى طما فى النهاية على سائر أوجه اهتمامى بالعالم الإسلامى من الناحية الثقافية ، ثم زادت رغبتى فى ذلك شدة حتى إنى — وأنا غير مسلم — أصبحت أتكلم إلى المسلمين أنفسهم مشفقا على الإسلام من إهمال المسلمين وتراخيهم .

ولم يكن هذا التطور بينا فى نفسى إلى أن كان يوم — وذلك فى خريف عام ١٩٢٥ — وأنا يومذاك فى جبال الأفغان .

فقد تلقانى حاكم إدارى شاب بقوله (ولكنك مسلم غير أنك لا تعلم ذلك من نفسك) ، لقد أثرت فى نفسى هذه الكلمات ، غير أنى بقيت صامتا ، ولكن لما عدت إلى أوربا مرة ثانية عام ١٩٢٦ وجدت أن النتيجة المنطقية الوحيدة لميلى هذا أن أعتنق الإسلام » .

أما إذا أردنا أن نقول : أى نواحى الإسلام وأى من تعاليمه هى التى لفتت نظر محمد أسد وحولته إلى الإسلام ، فإننا نسمعه يقول : « لا أستطيع اليوم أن أقول أى النواحى قد استهوتنى أكثر من غيرها ، فإن الإسلام على ما يبدو لى بناء تام الصنعة ، وكل أجزائه قد صيغت ليتمم بعضها بعضا ، ويشد بعضها بعضا .

فليس هناك شىء لا حاجة إليه ، وليس هناك نقص فى شىء ، فنتج عن ذلك ائتلاف متزن مرصوص ، ولعل هذا الشعور من أن جميع ما فى الإسلام من تعاليم وفرائض قد وضعت مواضعها هو الذى كان له أقوى الأثر فى نفسى ، وربما كانت مع هذا كله أيضا مؤثرات أخرى يصعب على الآن حلها » .

جهوده :

ومنذ ذلك الحين الذى دخل فيه « محمد أسد » الإسلام وهو يعمل بكل طاقاته لدراسة القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، ودرس اللغة العربية ، وتاريخ الإسلام ،

وقضى أكثر من خمس سنوات فى أرض الحجاز ، فى تلك البقاع المقدسة التى سار فيها النبى ـــ ﷺ ـــ داعيا إلى الله ، وخرج « محمد أسد » بعد ذلك من دراسته للإسلام بنتائج باهرة ، إذ يقول : « هذه الدراسات والمقارنات خلقت فىّ العقيدة الراسخة بأن الإسلام من وجهته الروحية ، والاجتماعية لا يزال ، بالرغم من جميع العقبات التى خلقها تأخر المسلمين ، أعظم قوة ناهضة بالهمم عرفها البشر ، وهكذا تجمعت رغباتى كلها منذ ذلك الحين حول مسألة بعثه من جديد » .

وعرفت المكتبة العربية « محمد أسد » فى كتابه « الإسلام على مفترق الطرق » الذى أهداه إلى الشباب المسلم ، وقال فيه : « هذا الكتاب خطوة متواضعة نحو ذلك الهدف العظيم . وليست تبلغ به الدعوى إلى أن يكون إجمالا خالصا للقضايا كلها لا أثر للعاطفة فيه . بلى ، إنه بسط حال كما تتراءى لى ـــ وعرض موجز لحال الإسلام فى مجابهة المدنية الغربية ، وهذا الكتاب لم يكتب للذين يكتسبون بالإسلام ، ولكنه على الأصح لأولئك الذين لا يزال يحيى فى قلوبهم شرارة من ذلك اللهيب الذى كان يضطرم فى قلوب صحابة الرسول ، ذلك اللهيب الذى جعل الإسلام فيما مضى عظيما بنظامه الاجتماعى ورقيه الثقافى»[1] .

وقد ألف « محمد أسد » كتابا آخر باسم « الطريق إلى مكة » صدر فى عام ١٩٥٥ م باللغة الألمانية ، وكتابا فى أصول الفقه باللغة الإنجليزية كما يقوم بتفسير القرآن الكريم ويعكف عليه .

• خالد شلدريك : المستشرق البريطانى الذى أسلم :

دخل الإسلام قلبه بطريقة غير عادية . ننظر إليه يقول : « لم أتلق هذا الدين فى أول الأمر من كتبه ، ولكنى تلقيته من كتابات الطاعنين فيه .

لقد حملنى البحث والتأمل إلى درس الديانات الأخرى ، فدرست البوذية والبرهمية وسائر الأديان ، وفى دور الكتب العامة بانجلترا بحوث عن كل دين ما عدا الإسلام ، فإن الكتب التى ألفت عنه مملوءة بالتحامل والمطاعن ، والعرض الظالم ، وزعموا أن الإسلام ليس دينا مستقلا ، ولكنه أقوال محرفة عن كتب المسيحيين ، وقد تساءلت فى نفسى :

(١) انظر فى ذلك كتابه « الإسلام على مفترق الطرق » ترجمة د . عمر فروخ الذى قام بترجمته سنة ١٩٤٦ من ص ١٢ إلى ص ١٦ .

إذا كان الإسلام لا أهمية له إلى هذا الحد ، فلماذا هم يبذلون كل هذه الجهود للتحامل عليه ومقاومته وتوجيه المطاعن إليه ، وقد وَقَرَ فى نفسى أنه لولا أن الاسلام يخشاه هؤلاء الناس ويحسبون حسابا كبيرا لما فيه من القوة والحيوية لما بذلوا كل هذه الجهود لمقاومته والطعن فيه وتشويه سمعته .

لذلك عزمت على قراءة هذه الكتب التى كتبت عنه واحدا واحدا ، والإسلام لا يخيفه انتقاد منتقديه ، فمنتقدو الإسلام إنما يظهرون وجهة نظر خصومه ، ومن هذا مصلحة له وقوه ودعوة ، والحق يبدو مهما حاول المبطلون إخفاءه » [1] ، وبعد الدراسة ظهر له جمال الإسلام ، وقوة تعاليمه ، ومعالجته لقضايا الإنسان الحيوية ، فوجد فيه بغ - ، ودخل غير هياب بحب وشوق فى الإسلام .

●إبراهيم نياس مبشر مسيحى يعتنق الإسلام ويدخل السجن ولا يرده ذلك عن دينه :

كان الحاج « إبراهيم نياس نواجى » مبشرا مسيحيا يشرف على كنيسة فى شرق نيجيريا ، وكان اسمه « نيوجى » أراد الله له الهداية فقرأ الإسلام ، وخالط المسلمين ، وعرف بعض الصالحين من المسلمين فأسلم ، وأصبح مديرا للمركز الإسلامى فى شرق نيجيريا الشرقية ، يقول : إبراهيم نياس : « لما أسلمت التقى بى تاجر مسلم ورغبنى فى الإسلام والدعوة إليه ودعانى إلى دراسته والدعوة إليه ، وقال لى : لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم ، وبعد محاولات كثيرة وبعد أخذ ورد كنت أحتج بقولى : أين المال . فأجابنى التاجر المسلم : خذ ما شئت من مالى ولا تعتبر ذلك عقبة فى طريقك ، فما كان منى إلا أن وافقت وأخذت شيئا من المال ودعوت إلى الإسلام ، فأسلم على يدى والحمد لله ستة آلاف شخص كانوا يسكنون قريتى التى كنت أعمل فيها مبشرا » .

وسرعان ما فكر « إبراهيم نياس » فى إنشاء مسجد للدعوة الإسلامية ، فالتفت حوله فلم يجد إلا الكنيسة الخاوية التى هجرها سكان البلدة على أثر إسلامهم ، فأخذ يعمل على تحويلها إلى مسجد ، ولما باءت محاولاته بالفشل ، حض أتباعه على إحراقها ، فما كان منهم إلا أن أحرقوها ، ومن هنا ثارت ضجة هائلة فى الصحف المسيحية وأوقف الحاج « إبراهيم نياس » هو وزوجه التى أسلمت معه ثم قدم للمحاكمة فدافع عن نفسه :

---

(١) الإسلام فى غزوة جديدة للفكر الإنسانى للأستاذ أنور الجندى ص ٦٨ .

بأن الكنيسة بنيت من ماله هو ومن أموال أهل بلدته الذين أسلموا ، فأسقط فى يد القاضى ، ولما عجز عن إثبات إدانته حكم عليه بغرامة مالية لمخالفته أوامر البلدية بهدم الكنيسة دون استئذانها . فدفع الغرامة بعد أن قضى هو وزوجه فى السجن بضع سنين ، صبر خلالها على الإسلام ، وكان ثابتا غير وجل ولا هياب [1] .

والباحث المنصف يجد أن هذا الرجل دخل الإسلام عن قناعة علمية واعتقادية ، لأنه لا يبلغ درجة الدعوة إلى دين كالمسيحية ويصير مبشرا إلا إذا كان على درجة كبيرة من المعرفة الدينية والدنيوية التى تؤهله إلى ذلك ، ورغم ذلك ورغم حماسه الذى دفعه إلى العمل والدعوة لدينه هذا ، استطاع الإسلام بتعاليمه أن يستولى على تفكيره وعلى نفسه وعقله ويحوله إلى مبشر بالإسلام ، وداعية إليه ومضحيا فى سبيله بنفسه وبزوجه ، فيتحمل السجن والغرامة ، وهو الذى كان معززا مكرما ينفق من الأموال بغير حساب وله المكانة والسطوة والطاعة ! ! .

• اللورد هيدلى الفاروق :

كان اللورد « هيدلى » أميرا بريطانيا بارزا ، وسياسيا ، ومؤلفا ، وكان تعليمه فى جامعة « كامبرج » وكان فى وقت من الأوقات رئيسا لتحرير جريدة (سولزبورى) ، كما كان مؤلفا لعديد من الكتب أشهرها بعنوان « رجل غربى يصحو فيعتنق الإسلام » وقد اعتنق الإسلام واتخذ لنفسه اسما مسلما هو « الشيخ رحمة الله الفاروق » .

يحكى عن سبب إسلامه فيقول : « ربما يظن بعض أصدقائى أننى تأثرت بالمسلمين إلا أن ذلك ليس السبب فى اعتناق دين الإسلام ، إذ أن معتقداتى الحاضرة ليست إلا ثمرة تفكير استمر سنوات عديدة ، ولم تبدأ مناقشتى الفعلية مع المثقفين المسلمين فى موضوع الدين إلا منذ بضعة أسابيع خلت ، ولست بحاجة إلى القول بأننى سعيد غاية السعادة إذ أن جميع نظرياتى واستنتاجاتى تتفق تمام الاتفاق مع ما جاء به الإسلام ، ينص القرآن الكريم على أن الاتجاه إلى اعتناق دين جديد لابد أن يكون نابعا من الاختيار الحر والحكم الذاتى الطبيعى ﴿ **لا إكراه فى الدين** ﴾[2] ... » ثم يقول : « أعتقد أن هناك آلافا من الرجال والنساء مسلمون فى أعماق قلوبهم ولكن التقاليد والخوف من التعليقات الشديدة ، والرغبة

---

(١) رجال ونساء أسلموا . ص ١٦٥ الحلقة الأولى .   (٢) البقرة / ٢٥٦ .

فى تجنب كل إزعاج أو تغيير ، تتضافر كل هذه الأمور للحيلولة دون تصريحهم بالحقيقة الواقعة على رؤوس الأشهاد . وإننى إذ أتخذ هذه الخطوة أعلم تماما أن كثيرا من أصدقائى وأقاربى ينظرون إلى أننى خسرت روحى ولا أمل فى الدعاء لى . مع أننى مازلت أؤمن بنفس العقائد التى آمنت بها من عشرين عاما ، ولكن النطق الصريح بحقيقة أمرى هو الذى أفقدنى رأيهم الحسن ... وبعد هذا فكلى أمل فى أن يحذو الآخرون حذوى ، فهى قدوة إلى الخير ، تجلب السعادة لكل من يعتبر من هذه الخطوة ، ويفهم أنها خطوة إلى الأمام » (١) .

هكذا يدخل الإسلام القلوب ، لا بحرب ولا تهديد ، وإنما بأنواره الزاهية وأشعته الهادية إلى الصراط المستقيم .

● حسين رؤوف (Husain Rofe) :

قصة رجل إنجليزى كان مصلحا اجتماعيا ، عاش فى أسرة أحد أركانها يهودى والآخر نصرانى ، اطلع على كل الثقافات والديانات ، ولم ترق له أى منها ثم درس الإسلام فهرول إليه واعتنقه ، نستمع إلى حديثه إذ يقول :

« عندما يقرر الناس اعتناق دين جديد غير الذى وضعتهم فيه ظروف الميلاد ، فإنهم يفعلون ذلك عادة على أساس عاطفى أو فلسفى أو اجتماعى ، أما بالنسبة لى فقد كانت فطرتى تتطلع إلى عقيدة تلبى المطلبين الأخيرين ، وكل ما عملته هو أننى قررت أن أدرس بدقة الدعاوى والكتب المقدسة والنتائج التى حققتها كافة الأديان الرئيسية فى العالم .

ولدت لأبوين يمثلان الديانتين اليهودية والكاثوليكية — وهى إحدى الطوائف المسيحية — ونشأت وسط تقاليد الكنيسة الإنجليزية فعرفتها جيدا خلال السنوات التى كنت أحضر فيها الطقوس الدينية التى تتميز بها الحياة اليومية فى المدارس الإنجليزية العامة .

فشرعت فى سن مبكر أقابل وأقارن بين التعاليم والشعائر التعبدية فى الديانة اليهودية والديانة النصرانية ، فدفعنى وجدانى إلى إنكار مذهب التجسيد الإلهى ، ومبدأ الكفارة الذى يمارسه القسس . كما أن عقلى لم يجد ضالته فى كثير من الفروض الإنجيلية ، ولم يرض بانعدام وجود عقيدة حية تقوم على المنطق ، وهذا ما لاحظته فى التصور التقليدى للذات

---

(١) عن كتاب اخترنا الإسلام ط أوقاف بواتى — باكستان . ورجال ونساء أسلموا ص ٤٩ .

الإلهية فى أوساط الكنيسة الاعتيادية فى إنجلترا النصرانية ....

وفى الديانة اليهودية ، أنكرت الشيء الكثير كذلك ، إذ أن اتباع القواعد والتعاليم اليهودية كلها لا يدع لك من الوقت إلا النزر اليسير لإنجاز الأعمال الدنيوية ، ولا مفر للعقل من أن يتركز وينهمك فى شكليات وطقوس لا نهاية لها ، وأسوأ من هذا كله أن الديانة اليهودية جاءت من أجل فئة قليلة من البشر ، مما أدى ضمنا إلى إيجاد هوة بين الفئات الاجتماعية المختلفة .

ولقد حضرت الصلاة فى الكنيسة الإنجليزية وشاركت فى الطقوس الدينية التى تقيمها المعابد اليهودية ، إلا أننى لم أعتنق قط أيا من الديانتين المذكورتين .

إذ وجدت فى الكاثوليكية الرومية كثيرا من الغموض وإخضاع العباد لسلطان العباد ، كما تكشف لى الكثير من الضعف الذى لا يليق بالمكانة التى أعطيت للبابا وحاشيته والتى تقترب من التقديس .

ومن هنا التفت إلى الفلسفة الهندوكية وخاصة إلى تعاليم أوبانيشادز Upanishads وفيدانتا Vedanta فلم أجد حلا للشرور الاجتماعية لدى فلاسفة الهنادكة ... هذا فى حين أن أحدا من أتباعها لم يمد يد العون لأى فقير مشرد ، لأنه يعتبر مصيره ناجما عن خطئه هو ، فإذا صبر فى تحمله فقد تأتيه الحياة فى المستقبل بما هو خير . وهذه طريقة مناسبة لإخضاع الجماهير وإذلالها ، والظاهر أن الدين فى نظرها معناه فرض درجات كهنوتية قوية ، تستشهد بالله كلما لزم الأمر لتدلل على أن المشيئة تقتضى بقاء الأمور على حالها .

أما البوذية فإننى لم أجد فيها ولا فى الهندوكية أى تعاليم خلقية .... ومسألة وجود الله لم يجر بحثها أبدا . فليس هناك أدنى ذكر لخالق هذا الكون كله ، وإنما يقتصر الأمر على وجود منهج يتبعه المرء من أجل خلاص نفسه ، ولمساعدة الغير على تحقيق ذلك .

وهنا توجد زاوية روحية لا تقتصر على مجرد التحكم فى القوى البهيمية الفطرية ... ولكن إذا كانت العقائد المجردة تستطيع أن تنقذ العالم نظريا ، فلماذا فشلت فى تحقيق ذلك على مدار التاريخ فى عالم الواقع ؟

وإذا أردنا أن نفهم النصرانية والبوذية كما تنص تعاليم مؤسسها فإننا نجد كلا منهما

تتحاشى المشكلات الاجتماعية لأنها لا تهتم بها ، فقد كان كل من السيد المسيح وبوذا يدعو إلى هجر كافة الممتلكات وإفناء النفس فى الدنيا إفناء كليا فى سبيل البحث عن الله . (لا تقاوم الشر) (لا نفكر فى الغد) وأنا واثق أنه لن يتسنى للجماهير أن تطبقه وأنه لا يستطيع أن يحسن حال الفلاح الجاهل ، لهذا كانت قيمته الاجتماعية ضئيلة ، إنها تعاليم عظيمة تصلح لعملاق روحى . ولكنها فاشلة فشلا ذريعا بالنسبة لجماهير البشر ، ولا تصلح لإحداث ثورة بين الجماهير تستهدف تحسين أحوالهم الروحية والفكرية والمادية خلال فترات الزمان » .

طريقى إلى الإسلام :

« قد يكون الأمر مستغربا إذا قلت أننى رغم حياتى فى البلاد العربية فإن الدين الإسلامى لم ينل منى غير اهتمام عابر ، كما أننى لم أفحصه فحصا دقيقا مثلما فعلت بالنسبة لكافة العقائد الأخرى فى العالم ، وكانت معرفتى بالإسلام تقتصر على قراءتى لترجمة القرآن بالإنجليزية التى أعدها ، روديل Rodw ell حينئذ ينتهى العجب من عدم تحمسى للإسلام ـــ لأن هذه الترجمة كانت مغرضة ، لأنها كانت من عدو للإسلام .

بعد ذلك التقيت بداعية مسلم معروف فى لندن ، ولاحظت فيما بعد أن معظم البلاد العربية لا تفعل شيئا يذكر لاستقطاب غير المسلمين إلى الإسلام ، ونشر تعاليمه فى الأماكن التى يمكن أن تؤتى أكلها الطيب فيها ... ولم يمض وقت طويل حتى اكتشفت ضالتى المنشودة التى قضت فى البحث عنها سنين عددا ، كان ذلك فى ظل التوجيه الذكى لرجل مسلم زودنى بنسخة من القرآن مترجمة ومعلق عليها بقلم عالم مسلم ، هذا بالإضافة إلى عدد كبير من المؤلفات النافعة الأخرى مما هيأ لى تصورا حقيقيا عن الإسلام ... لقد جمع الإسلام بين الأجناس كلها وسوى بينهم ، ولقد لاحظت جمعهم هذا فى الصلاة ، وفى الطعام والاجتماع ، ولم تبد من الأغنياء أية بادرة تنم عن التواضع المفتعل كما لم تشم أية رائحة من النفاق المغرور بالنسبة للشعور بالمساواة التى كانت تنبع من الرجال البيض وهم يتحدثون مع جيرانهم الزنوج ، ولم تجر أية محاولة للانسحاب أو الانعزال بالنفس عن بقية البشر ، كما لم أشاهد أى تعاظم مضحك من قبل أحد منهم يتصنع الفضيلة ويخفى الأثرة والجشع .

ودرست الثقافة الإسلامية ، وتعلمت للمرة الأولى أن هذه الثقافة ذاتها هى التى

أخرجت أوربا من عصور الظلام ، وتعلمت من التاريخ كيف كان عدد كبير من أعظم إمبراطوريات العالم ، امبراطوريات إسلامية ، وأن جانبا كبيرا من العلم الحديث لابد من الإقرار بأنه تراث إسلامى أصيل » .

ضعف المسلمين لا يحكم على الإسلام :

« وعندما أقبلت على الناس مسلما قالوا لى : بأننى اتخذت خطوة إلى الوراء ، عندئذ ابتسمت من جهلهم وخلطهم بين العلة والمعلول ، وقلت : هل يحق للعالم أن يذم الإسلام تبعا للعوامل الخارجية التى أنشأت الانحطاط الذى حدث فى بلاد المسلمين .

ولابد أن أسجل هنا أن أعظم العقليات وأكثرها نبوغا قد أعربت فى كل العصور عن احترامها للثقافة الإسلامية التى يخفى على الغرب كثير من جواهرها ولآلئها» [1] .

ولقد علق الأخ الفاضل المرحوم الدكتور عيسى عبده على إسلام السيد حسين رءوف بقوله : « سيقف القارىء مرة بعد أخرى ليرى كيف يكون البحث الجاد من أجل التمييز بين الجوهر الأصيل وبين الزيف الكاذب .. لقد درس بعض المذاهب المسيحية ودرس الفلسفات والبوذية واليهودية وغير ذلك .. وترك الإسلام جانبا على الرغم من أنه عاش فى الشرق وخالط العرب المسلمين ... لماذا ؟ يجيب على ذلك فيقول : لأنه اكتفى فى أول الأمر بنظرة عابرة إلى الإسلام .. ثم تركه جانبا ، وقال بأن السبب هو أنه قرأ القرآن بقلم الكاتب ردويل . وترك القارىء ليفهم ما يشاء أن القرآن الكريم قد امتدت إليه يد العابثين الأدعياء ، ونقلوه أو ترجموه ولكن على غير المطلوب » .

وقد أبان السيد حسين رءوف نقاطا ، يجب الوقوف عندها:

أولها ــ أن الأمة العربية والإسلامية لم تفعل شيئا لإظهار الإسلام وإبلاغه للمحتاجين إليه فى العالم ، بل كتموه وأهملوه.

ثانيها ــ أن الإسلام ليس مسئولا عن انحطاط المسلمين، وانحطاطهم إنما هو من تركهم لتعاليمه .

---

(١) عن مجلة مسلم نيوز انترناشنال الباكستانية المسلمة عدد أغسطس ١٩٦٨ م الموافق جمادى الأولى ١٣٨٨ هـ والمرجع السابق ص ٤٠ .

ثالثها ــ أن التشويش فى الكلام المغرض عن الإسلام يصد كثيرا عن دين الله، فيلزم أن يقوم المسلمون والمخلصون ببيان وجه الحق للناس.

رابعها ــ أن الإسلام هو الذى أخرج العالم من الظلمات، وأنه أفضل دين لإنقاذ البشرية اليوم.

خامسها ــ شهادة المنصفين على ذلك واحترامهم للثقافة الإسلامية وتقديرها، عرفانا بها وتقديرا.

●بنيامين الكلدانى : سُمى « عبد الأحد داود » :

كان قِسًّا كاثوليكيا ، اعتنق الإسلام بعد بحث وتأمل ، وعن وعى واقتناع ، فكان من القلة الخيرة المؤمنة من أهل الكتاب الموصوفة من الله بقوله ﴿ **ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين ، وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين** ﴾(1) فقد آمن عبد الأحد إيمانا صادقا عميقا ، وانضم إلى الصف المسلم وقام بالدفاع عن الإسلام ورسوله .

وقد ولد عبد الأحد داود عام ١٨٦٧ م بأراميا بدولة فارس ، ودرس الديانة الكاثوليكية منذ الصغر وتفوق فيها . التحق فى سنة ١٨٩٢ م بكلية « فايد » للدراسات الدينية والفلسفية بروما ، وتخرج منها وعين فى سنة ١٨٩٥ قسيسا . مثل الكاثوليك الشرقيين فى مؤتمر « القربان المقدس » سنة ١٨٩٧ م . أول من أصدر نشرة تبشيرية باللغة السريانية بعنوان « صوت الحق » وترجم « السلام المريمى » إلى عدة لغات ، وكانت آخر خطبة تبشيرية سنة ١٩٠٠ تحمل اسم « القرن الجديد والناس الجدد » . قدم استقالته من عمله الدينى حرا مختارا ، وباءت كل جهود الكنيسة بالفشل للحيلولة دون استقالته بعد أن تيقن من بُعد النصرانية عن طريق الحق ، واشتغل مراقبا فى البريد والجمارك ، ثم عين مدرسا لدى الأمير محمد على ميرزا . أعلن إسلامه فى سنة ١٩٠٤ بالقسطنطينية أمام شيخ الإسلام « جمال الدين » بحضور جمع من العلماء ، وبقى فيها قرابة تسع سنوات ، متفرغا للبحث والدرس والدعوة للدين الذى اعتنقه إذ اعتقده حقا ، متجشما هجرة الأهل والأقارب

---

(1) آل عمران / ١١٣ ــ ١١٥

وضيق ذات اليد .

من مصنفاته : « الإنجيل والصليب » ويعد فريدا فى بابه . انتهى فيه إلى أن : قضية قتل المسيح وصلبه عبارة عن أسطورة منتحلة ، وله كتاب آخر يعتبر فريدا فى بابه اسمه « محمد فى الكتاب المقدس » وهو من خيرة الكتب القائمة على البحث العلمى ، الهادى والأمين فى إثبات نبوة محمد ﷺ ، من خلال الكتاب المقدس ، على ما فيه من تحريف وتضليل ، لأنه يتعين على من يتصدى لدين من الأديان كما يقول عبد الأحد نفسه : « أن يكون قد أتقن حسب الأصول دراسة عقائد وأحكام الدين الذى يرد عليه وينتقده ، واستقرأ أصوله وفروعه ، وأن يبين ما يشتمل عليه الدين الذى يدعو إليه من القدسيات الأخروية ، والمحسنات الدنيوية التى تؤمن السعادة الحقيقية المادية والمعنوية « لنوع البشر » ، وقد سلك عبد الأحد ذلك ، وقد درس الكتاب المقدس فى لغاته العبرية والآرامية والسريانية ، وثبت له التحريف والتبديل عند نقله إلى اللغات الأخرى حال اشتغاله مدة غير قليلة بالدعوة للدين المسيحى ، الأمر الذى يجعل لبحثه قيمة كبرى ، وقد طبع الكتاب الأخير باللغة الإنجليزية بسنغافورة ، بناء على طلب من جمعية « نهضة الإسلام » برستوسرواك ليعم الانتفاع به(١) .

● **روجيه جارودى :**

واحد من فلاسفة العصر البارزين الذين دخلوا الإسلام بعد بحث ، ولم يكن إسلامه بسبب إقناع أحد من المسلمين له بالإسلام ، وإنما لأن عقليته الجبارة واجتهاده الشخصى أوصلاه إلى الإسلام .

ولقد كان لروجيه جارودى تجارب عميقة مع الماركسية عبر أربعة عقود ، حتى وصل إلى موقع متميز فى الحزب الشيوعى الفرنسى ، كما أنه عاش في باريس التى تمثل معقلا هاماً لفكر الحضارة الغربية ، وهذا كله ولاشك يعطى خلفية ثقافية معينة ومتقدمة فى نظر الكثيرين ، فحين يجنح الرجل بعد تلك الخلفية وهذه الثقافة إلى اعتناق الإسلام واختياره كدين ، يكون لذلك معنى متميز فى لفت نظر المثقفين إلى عظمة الإسلام ـــ الذى يجهلونه لأسباب شتى ، حتى بين بنيه فى العالم الإسلامى نفسه

---

(١) مجلة الأمة القطرية العدد الأول السنة الأولى ص ٨٨ .

وفوق ذلك فقد سخر الرجل قلمه العبقرى فى إبراز القيم الحضارية فى الإسلام ، ومعطياته لعالم اليوم ووعده لعالم الغد ، فى الوقت الذى يتنازع المسلمون فى جدوى الالتزام بالعقيدة والشريعة نتيجة تعرضهم للغزو الفكرى خلال تاريخهم الحديث والمعاصر مما أفقد الكثيرين منهم الثقة بالذات والإيمان الصحيح للإسلام ، وخاصة أيديولوجيته الشاملة ، ومضامينه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

« ولقد ألف « روجيه جارودى » الكتب وألقى المحاضرات وكتب المقالات ، يشيد بالإسلام ، ويحذر من أخطار الحضارة الغربية والانخداع بها ، من ذلك كتابه « الإسلام وأزمة الغرب » ، وكتاب « مايعد به الإسلام » كما كتب العديد من المقالات وألقى الكثير من المحاضرات حول « الإسلام وأيديولوجيته المتميزة » وساهم فى العديد من الندوات حول الفكر الإسلامى وحاجة الإنسانية إليه فى هذا العصر وفى المستقبل .

وكان مما قال حول هذه الموضوعات التى تظهر بجلاء إفلاس الحضارة الغربية وحاجة العالم إلى الإسلام : « لقد انتحرت الحضارة الغربية والسبب الأساسى لهذا التخاذل الانتحارى أنه خلال القرون الخمسة المنصرمة لم تعد الحضارة الغربية إلحادية وحسب ، بل أصبحت تتصف بالشرك ؛ فالنمو والجنس والعنف ، والمال ، والقومية ، غدت غايات فى ذاتها وبتعبير آخر أصبحت آلهة مزيفة لها ... ويوضح مشهد العالم اليوم صورة هذه الحقيقة بشكل صارخ ، ويدل على ثلاثة آلهة رئيسية مزيفة تسكن إلينا خفية ، وهى التى تحدث — بل ترتكب — هذا الفساد والتضليل ، وهى :

— النمو الاقتصادى .
— القومية .
— الفلسفة العلمية الوضعية .

فالنمو الاقتصادى — الذى ليس من ورائه غاية إنسانية — يطغى فى العالم محولا إياه إلى غابة ، تصطرع فيها القوى النهمة إلى السلطة ، كما تتصارع فيها الشهوات المطلقة العنان مع إصرارها على التوسع ، على حساب الأفراد والجماعات والأمم .

والقومية قد ولدت فى أوربة من تمزق أوصال الإمبراطورية المسيحية ومن تطور اقتصاد السوق ، وفيما بعد من الرأسمالية فهى — على هذا — على النقيض التام من الأمة

الإسلامية ، التى يرتكـز مجتمعهـا على العقيـدة حصرا ، فالإسلام ــ بهذا ــ منفتـح للجميـع وهادف إلى الشمول الكونى ... فى حين أن القومية تعمد إلى تفكيك الإنسانية من خلال السيطرة الاستعمارية والحروب ، وهى مؤخرا تفعل ذلك من خلال ميزان الرعب .

والفسلفة الوضعية ، وهي : العلم من أجل العلـم ؛ العلـم منـفصلا عن الحكمـة ، أو بتعبير آخر هى العلم منفصلا عن التفـكير فى غاياتـه ، أو عن الإيمان الـذى يمنحـه تبيُّـن حدوده ومبادئه الأساسية وقيمه المطلقة .

الإيمان الذى يضعه فى خدمة تحرير الجنس البشرى وتحقيق ذاته ، بديلا عن إخضاع الإنسانية وتدميرها ، ولقد انتهى هذا العلم المنفصل عن غاياته إلى أن يتجاهل وجود أىٍّ من الأشياء التى لا ترى ، أو لا تقاس ، كالحب والجمال والإيمان ...

ولقد أصبح هذا العلم المنفصل عن غاياته الإنسانية والربانية (دين الوسيلة) الذى يضع قوة العملاق تحت تصرف قزم فاسد منحرف ، واضعا بين يديه تقنية يمكن أن يبيد بها أى أثر للحياة على الأرض اليوم .

فإن نحن انقدنا لتيار الحضارة الغربية هذه ، قمنا باغتيال أحفادنا ، لأننا لن نكون قد أنجزنـا مهمتنـا التـى أوكلهـا الله إلينـا ، ألا وهـى أن نكـون خلائـف فى الأرض ، ترى هل سنكون قادرين على إيجاد بديل إسلامى لهذا السباق المحموم نحو الموت ؟ وهل سيكون بإمكاننا ــ فى هذه الظروف التاريخية ــ أن نتبع الطريق الصحيح أى ﴿ **الصراط المستقيم** ﴾ الذى بينه لنا القرآن الكريم ؟

إن مستقبل الإنسانية ــ بل مجرد بقائها ــ سيتوقف على ذلك .... ثم يقول : ولا يمكن لرسالة ما فى عصرنا أن تكـون أكثر معـاصرة لحاضرنـا من الإسلام ، وهـا هو العلـم قد انحرف إلى « العلمية » وها هى قد انحرفت إلى حكم التقنين ، وهما نزعتان تقفان دوما عندالسؤال : كيف ؟ عوضا عن السؤال لماذا ؟ ....

إن الشريعة الإسلامية ، نهر رائع الجمال ، مرسل للنور ، يضفى الخصب على ضفافه أثناء جريانه .

يحس قسم كبير من الرجال والشباب المؤمن ــ فى عدد من الدول المسلمة ــ

بالانحلال الخلقى والتفسخ الاجتماعى والسياسى ، اللذين يحدثهما تغلغل عادات الغرب وأدواته ، وهم يدركون الدور المفتت الذى تقوم به (الأيدلوجيات) الغربية ، والتى ينشرها انتقال التقنية عندما لا يكون هذا الانتقال خاضعا للنقد ، ولا مدققا فى انتقائه ، وحيثما لا تفصل التقنية الضرورية للمسلم عن السياق الغربى الوضعى يتوق هؤلاء الرجال والشباب المؤمن إلى مقاومة فساد بعض حكامهم ، وإلى إعادة اكتشاف هويتهم الإسلامية بتطبيق الشريعة عوضا عن جملة القوانين التى أورثهم إياها مستعمروهم القدماء .

وإن الحاجة التى يشعر بها المسلمون ــ بعد استعمار طويل ــ بوجوب وضع حد للقوانين والأساليب التى فرضها عليهم محتلو بلادهم بالأمس ، هى حاجة مشروعة تماما ، لأن مفهوم العالم والجنس البشرى الذى نجمت عنه هذه التشريعات لايناقض جذريا كل ماعبر عنه القرآن فحسب ، بل إنه يقود العالم الغربى نفسه إلى إفلاس أخلاقى .

إن رغبتهم فى تجديد أسلوب حياتهم كاملا ــ بما فيه التشريع ــ بالاستناد إلى مبادىء الإسلام (ومعنى الإسلام فى كل دين الخضوع لمشيئة الله) إنما تعبر عن ذاتها فى مقولة المطالبة بتطبيق شريعة الله ....

فالإسلام هو الدين الأول والرسالة الأخيرة معا : إنه البعد السامى للجنس البشرى ، كما عرف فى كل مستوى من مستويات الوجود .

الإسلام فى مبادئه الأساسية أكثر الأديان عالمية ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ...** ﴾ (١) .

رسالة واحدة بينت للجميع ذلكم (الخضوع لقانون الإله الواحد) فمهمتنا جميعا أن نطبق هذا القانون الإلهى ، وأول أمر فيه هو العدالة الاجتماعية وهى مهمة كل رجل وامرأة ، كل من يعتقد بأن الإنسان ليس محور كل الأشياء ولا هو مقياسها ، إنها على العكس من ذلك مهمة كل من يعتقد بأن القيم المطلقة فى الشريعة ذات وجود فعلى ، وبأنهما سينتصران فى المجتمع المخلص العادل الذى يشعر كل عضو فيه بأنه مسئول عن

---

(١) الشورى / ١٣ .

الآخرين بشكل مغاير للفردية الغربية ، وعلى هذا يجب أن تنتهى خلافاتنا كلها متذكرين ما قاله شاعر تركى كبير :

« إذا لم أحترق أنا
وإذا لم تحترق أنت
وإذا نحن لم نحترق
فكيف يضيء الليل » (١) .

وهكذا نجد فى كلام روجية جارودى البعد الحضارى والإنسانى الذى استطاع أن يفهمه ، ويقتنع به ، ثم ينادى به فى الناس مبشرا ونذيرا ، موضحا الأخطار التى ستحيق بالإنسانية من استمرار الحضارة الغربية بمنهجها العلمى الجاف والخاوى من روح الإنسانية ، والمتحكمة بنزواتها وشهواتها الجارفة المحرقة للفضيلة والشرف والقيم الإنسانية النبيلة ، ولم يجد الرجل الفيلسوف بعد طول بحث وعناء تجربة إلا الإسلام الذى يمثل سفينة النجاه بالنسبة للمجتمع العالمى الذى يتخبط فى الضلال ويتوجه نحو معبودات شتى ، وتسيطر عليه اتجاهات ، أصبحت بحكم الصراع الذى تعيش فيه الحضارة الحديثة غايات إنسانية وحضارية ، مثل النمو والجنس ، والعنف والمال ، والقومية ، ولا بديل عن ذلك كله إلا الإيمان الذى يضع فى خدمة الجنس البشرى كل الطاقات والإمكانات .

ولا نجاة من هذه الصراعات إلا بالإسلام ، الذى لايمكن لأى قانون أو رسالة تقوم مقامه فى ذلك العصر الحائر ، ثم يهيب الرجل بالمسلمين أن ينهضوا بدينهم لإنقاذ البشرية ، ويحذرهم من الوهم الحضارى والأمراض المهلكة التى تتناثر فى هذا العصر من هلكى المبادئ المنحرفة والأفكار الضالة ، ويحضهم إلى الاستمساك بعقيدتهم ، ويناديهم من جديد إليها ؛ لأنها الصراط المستقيم ، والنهج القويم ، وصدق الله ﴿ **فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم . وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون** ﴾(٢) .

● عبد الله كوليام :

يقول فى سبب إسلامه : « منذ ستين عاما أشار علىّ الأطباء براحة أقضيها فى جبل

(١) الإسلام والمستقبل : ص ١٢١ ، ١٣٧ .

(٢) الزخرف / ٤٣ ، ٤٤ .

طارق ، فلما سرت إلى هناك ركبت السفينة إلى طنجة لمشاهدة البلاد المراكشية ، وأتفق أننى لما صعدت السفينة رأيت فيها بعض الحجاج من أهل المغرب يغترفون الماء بالدلو من البحر ويتطهرون مبالغين فى النظافة ، ثم أقلعت السفينة ، وما كادت تغادر الميناء حتى رأيت هؤلاء الجماعة قد اصطفوا للصلاة صفوفا جميلة ، وجعلوا يصلون معا فى خشوع وطمأنينة ، غير مكترثين بتمايل السفينة واضطراب الريح ، ولقد أثر فى نفسى ما قرأته على وجوههم من صدق الإيمان .

فأثارت حالتهم هذا الاهتمام الزائد عندى فى أن أستزيدهم عن الدين الذى يدينون به ، وما لبثت أن تعرفت بمسلم يتكلم الإنجليزية . فكان يلازمنى مدة إقامتى فى طنجة ، ولاسيما بعدما شعر منى بالرغبة إلى معرفة المبادىء التى يدعو إليها الإسلام ، وعولت على أن أقرأ الإسلام فى كتبه ، وأن أقرأ ما كتبه عنه العلماء المنصفون ، فقرأت ترجمة (سل) للقرآن الكريم ، وكتاب الأبطال لكارليل ، وما خرجت من طنجة إلا وأنا مستسلم للإسلام ، مذعن لقوته ، مقر بأنه حق وأنه خير الأديان .

ولما رجعت إلى انجلترا كان شغلى الشاغل فى التفكير فى الأسلوب الذى يجب أن أتبعه لأدعو الناس إلى الإسلام ، وأقنعهم به وأحملهم على الإيمان به ، وكنت أعلم أن ماشحنه أعداء هذه الهداية فى رؤوس الأوربيين عن الإسلام سيحول بينى وبين التفاهم مع الجمهور بطريق المحاضرات أو النشر ، لأن جمهور إنجلترا إذا حدثتهم عن الإسلام يظنون أنك تحدثهم عن دين وثنى ، والصحف لا تفتح صدرها لمثل هذه الدعوة .

ثم بدا لى أن أطرق بابا غير مباشر ، فألقيت محاضرة فى جمعية النهى عن المسكرات موضوعها (المتعصبون والتعصب) تحدثت فيها عن الشخصيات البارزة فى علم الاختراع مثل : ستفنسون مكتشف القوة البخارية ، ويلبرفورس المجاهد فى سبيل تحرير الرقيق ، وأتيت على مجمل مالاقاه هؤلاء من المقاومة والاضطهاد والسخرية .

ثم أردفت بذكر « محمد ﷺ » فقلت إن هذا المصلح الكبير جاء برسالة ، ودعا الناس إلى الخير ، ومع ذلك فقد ناله من الأذى والاضطهاد ما يجده كل مصلح عظيم يعمل على خير الإنسانية ، فلما تبين البشر فضله دخلوا فى دينه أفواجا ، ومازالوا كذلك حتى بلغوا الآن مئات الملايين فى جميع أطراف المعمورة ، ثم ذكرت شيئا من آداب الإسلام والمبادىء والتعاليم التى دعا إليها النبى .

فلما حصلت عليها الصحف ، أسرع القسس إلى مديرى الصحف ، وقالوا : إن المحاضرة بها دسائس ، وأنها متضمنة الدعوة إلى دين وثنى ، فوافق مديرو الصحف على حذف ما فى المحاضرة خاصا بمحمد ، ونشروا الباقى .

فأنذرت الصحف بالمحاكمة أمام القضاء على تشويه محاضرتى ، فعادوا ونشروا المحاضرة كاملة ، وكان لذلك تأثير عظيم لكثرة الأيدى التى تناولت تلك الصحف ، ثم فكرت بعد نجاح المحاضرة أن يكون فى بلدى (ليفربول) مكان تقام فيه الشعائر الإسلامية ، وما كدنا نفتح هذا البيت حتى صار القسس يدسون لنا الأشرار من صغار العقول لإيذائنا ، ومما أوذينا به : أن أولئك الأشرار كانوا يلقون الأقذار على المصلين ، وكانوا يرجمون المؤذن بالحجارة ، وينثرون الزجاج المكسور على سجاد الصلاة ، ودخلت المسجد مرة ألقى محاضرة فى تفسير آية من القرآن الكريم ، فوجدت قد سبقنا إلى المسجد جماعة قرأت فى وجوههم أنها مريبة ، فلم أبالى بهم ، وتلوت آية القرآن الكريم ، وشرعت أفسرها ، وأستنتج منها العظات والعبر ، فلما انتهيت من المحاضرة قام أحدهم وأخرج من جيبه حجارة وألقاها على الأرض ، وقال لأصحابه : من كان منكم يريد أن يرجم المسلمين بالحجارة التى معه ، فأنا صرت مسلما فارجمونى بها ، فألقوها هم أيضا على الأرض ، وأعلنوا إسلامهم ، وهذا الرجل الذى كان رئيسا لهم مالبث أن أصبح عضدى الأيمن ، ولازمنى فى كل رحلاتى التى قمت بها للدعوة الإسلامية .

وعلى يدى أسلمت سكرتيرة جمعية منع المسكرات فى (بيركنهيد) وسميت فاطمة ، وأسلم على يدها شقيقتها وزوجها . والآن فإن البعض يعتقدون أن اللورد (هدلى) هو أول لورد إنجليزى دخل الإسلام ، وليس هذا صحيح ، فقد دخل الإسلام مثله لورد (ستنلى أو لدرلى) الذى كان يحب أن يدعى باسم (عبد الرحمن أفندى) ، وكان يأتى إلى مسجدنا ويصلى مع إخواننا رغم ما بينهم وبينه من التفاوت العظيم فى المنزلة الاجتماعية » (١)

• قسطنطين ملحم :

حائر لا يستقر ولا يهدأ حتى قرأ الإسلام ، ووجد فيه ضالته .

يقول عن سبب إسلامه ويحكى قصته مع الهداية : « ليس اعتناق للإسلام مدعاة

---

(١) آفاق جديدة فى الدعوة ص ١٣٥ . عن الحديقة جـ ٧ ص ٢٠٠ .

للاستغراب ، ولا موضعا للظن والريب ، فإنه هو بحسب اعتقادى ليس إلا تطورا طبيعيا يؤدى إليه التعمق فى درس الأديان المتسلطة اليوم على عقول البشر . اللهم إلا إذا كان عقل الدارس غير مقيد بقيد غليظ يربطه بأحد الأديان ربطا محكما لا يستطيع الإفلات منه . إن المذهب البروتستنتى هو أقرب المذاهب المسيحية إلى الدين المسيحى — الحقيقى — غير أنه يعاب فى نظرى لإقراره بألوهية المسيح ، وأنا مع اعتبارى السيد المسيح من فضلاء المصلحين ، والأنبياء ، وفى اعتبارى أن النبوة وحى إلهى لا أقر له بالألوهية ، ولم أعبد قط رجلا مثلى من دم ولحم .

هذه العقيدة راسخة فيّ منذ بلغت رشدى ، وقد جاهرت بها عندئذ بين أهلى وأقاربى وكل من شافهنى فى هذا الموضوع ، منذ سنين طويلة ، فتطورى إذن ليس حديث العهد ، كما يتوهم بعض عارفى ، بل هو نتيجة اقتناع راسخ مستحوز ، لاعليّ فقط بل على السواد الأعظم من المسيحيين المتعلمين .

أما ميلى إلى الإسلام فليس حديث النشأة أيضا . والذين اطلعوا على كتاباتى فى جريدتى (أداليد) ومجلتى (لابالا بربورتانيا) يرون أنه منذ خمس سنوات بدأت بالموافقة جهرا على الإسلام بقلمى ولسانى ، بعد أن كنت أدافع عنه سرا بلسانى فقط ، غير أن ميلى المذكور لم يصل بى إلى حد التدين نهائيا بالدين الذى آليت على نفسى الدفاع عنه ، وما ذلك إلا لأنى كنت لم أزل أجهل عنه الشىء الكثير ، فعندما عولت على وضع كتابى « شرائع الإسلام » رغبة منى فى دحض افتراءات المفترين على الشريعة السمحاء ، رأيتني مضطرا لمراجعة مصنفات الأئمة الأعلام ، ومطالعة أكثر من واحد من كتب الدين ، فاتضح لى عندئذ بجلاء هذا الدين السامى وفضل المصلح العظيم (محمد بن عبد الله) على الإنسانية جمعاء » فصممت حينئذ على اتخاذ الإسلام دون باقى الأديان دينا أتدين به عام ١٩٢٤ ، بيد أنه لحذرى من سوء ظن الذين لا يتصورون أن المرء قد يعشق الجمال لمجرد الجمال ، بل لما يتضمن من لذة مادية وحشية ، قلت لهم : إنى لهذه الأسباب تركت إسلامى على الخفاء إلى أن جاء زمن إعلانه ، ولم يبق فى وسعى السكوت ، فأنا منذ ثلاث سنوات مسلم بكل مافى الإسلام من مبادىء سامية ، وأفكار راقية ، وروح تعاون وحب خير ، وابتعاد عن المنكر ، والذى يزيدنى تمسكا به ، ما وجدته فيه من الحض على العلم والعرفان ، ومطابقته روح المدنية الحقيقية — فالإسلام دين علم وعمل ، وهو دين إيجابى بعكس غيره

الذى هو سلبى يأمر بإنكار الذات ، والابتعاد عن كل مافى الدنيا من رزق ومتاع ، أما الدين الإسلامى فيمكننا العمل بأوامره تماما ، دون أن يحوجنا ذلك إلى الابتعاد عن العالم وما فيه من لذة » (١) .

● هارى هنكل :

من الذين قرأوا الأديان الأخرى وميزوا بين الخبيث والطيب ، وعرفوا قيمة الإسلام وقيمة تعاليمه الرائقة الرائعة ، ننظر إليه يقول :

« اخترت الديانة المسيحية فى بدء حياتى بحكم الوراثة ، كما كان يعتقد أهلى وأقاربى وليس بمحض إرادتى ، غير أن عقيدتى فى الدين تكونت نتيجة لبحث وتحليل عميق .

قرأت الكتاب المقدس عدة مرات ، وأنا أشك كثيرا ، إذا كان هناك شخص قرأ الإنجيل ولم يتأثر بهول الأخبار والأقاصيص المسطرة بين صفحاته ، والحقيقة أن الإنسان بعد قراءته للإنجيل لا يسعه إلا أن يندهش لطبيعة الإلـٰه المسيحى ، من المفروض على كل مسيحى أن يقتنى الكتاب المقدس ، ليس ككتاب دينى تجب قراءته . بل كقطعة نفيسة يزين بها بيته قال سارلس فرانسيز : فى كتاب (قصة الدين) إن الإنجيل كتاب لا يعرفه أحد فى أمريكا (أما القرآن) فهو كتاب يعرفه كل مسلم .

لقد كان الإنجيل السبب الرئيسى فى خروجى من حظيرة الديانة المسيحية ، وبعد خروجى أخذت فى قراءة الديانات الأخرى ، فكانت النتيجة كفرى وإلحادى ، ومع هذا فقد تأصلت فى نفسى غريزة كانت تدفعنى للسؤال جريا وراء حقيقة واحدة هى : إثبات وجود الخالق لهذا العالم ، ولكن ليس الإلـٰه الذى يمجد سفك الدماء ، ومن نتيجة هذه الدراسة وجدت فى نفسى ميلا للإسلام ، لأنه دين العقل والتسامح وهو خال من كل شائبة »(٢) .

« وجدت الإسلام يشجع على متابعة الحقيقة ، إن صحائف التاريخ مملوءة بالحقائق التى تثبت عرقلة الديانات الأخرى للمدنية والعمران » (٣) .

---

(١) المنار — ٨ — ١٩٠٥ (ص ١٩٤) .
(٢ ، ٣) مجلة الشهاب الجزائرية مجلد ١٩٣١ عن مجلة (إسلاميك ريفيو) .

أرأيت إلى هذا الرجل الذى يفصح عن ضميره وعن نتيجة بحثه بشىء من العمق والفهم ، كيف وجد الإسلام ، ووجد تعاليمه ، ووجد ضالته فيه ، فآمن به وعمل تحت لوائه وعرف أن الحضارة لا يمكن أن تكون نتاج أى دين من تلك الأديان الخرافية المبدلة ، ولهذا يحسن بنا أن نبين ما قاله يوسف وكاب أحد الموحدين : « من الصعب جدا وجود علم غير مدين بفضله للإسلام ، ولا أتردد لحظة فى القول ثانية بأنه لو كان الإسلام منتشرا فى الغرب أكثر من انتشاره اليوم لأدهش العالم المتمدن بكثرة أنصاره . ويرجع السبب فى عدم انتشاره إلى تشويه الحقائق التى يتعمدها البعض ممن يتصدون لترجمة الكتب الإسلامية إلى اللغات الأخرى من المستشرقين المغرضين »[1] .

ــ ويستحيل أن يحصر الإنسان من دخل فى دين الله أفواجا فى القديم والحديث ، رغم قلة الدعاة وانصراف الناصح الأمين ، وعدم البيان والوضوح والنشر لتلك الدعوة وهذا المنهاج القويم .

ولكن ماضى الرسالة وسمعتها ، وحضورها فى الفكر الدولى دائما قصد الصد عنها أو محاربتها والتهوين من شأنها ، جذب إليها الأنظار ولفت إليها العقول المتمردة ، لأن الدين الإسلامى هو الدين الوحيد الذى يستطيع أن يتحاور مع المتمرد .

« وقد اعترف بهذا (كنت) حين ذهب إلى القول بأنه إذا كان ولابد للإنسانية أن تعود إلى دين علمى يتمشى ومتطلبات العصر ، فلن تجد إلا الإسلام »[2] .

هذا الاعتراف قيل فى القرن التاسع عشر ــ عصر التمرد الأساسى في المدرسة الوضعية ... وهذه القدرة على المحاورة التى يتمتع بها الإسلام تنبع من تجاوزه الشكليات ، فهو يتحدث دائما بلغة الشمول والتجانس والإيقاع الكونى ، وينزه عن الحماقات البشرية ، وهذا ما يلفت العقل المتمرد .

ورغم كثرة الداخلين فى الإسلام من الفلاسفة والعلماء الأعلام ، إلا أن هناك بعض النماذج والأمثلة يقف الإنسان أمامها كثيرا متأملا مشدوها ، لما لها من حماس وإيمان .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) رشدى فكار فى مجلة الأمة عدد ٦٧ سنة ٦ ص ٤٥ .

الفصل الثانى

الصادقون المقررون للحقيقة

هؤلاء هم النوع الثانى من المقرين بالحقيقة التى بهرت العقول ، وحيرت الألباب ، ووضحت الصراط المستقيم ، ووضعت الناس أمام خيارات معينة ، وأمام ضمائرهم وفطرهم وسعادتهم الحقة فى هذه الحياة .

وهذا الصنف الثانى الذى نحن بصدد الحديث عنه ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : قوم معجبون بالإسلام مبهورون بعظمته مقرون بفضله ، قالوا كلمة الحق ، وجهروا بها ، ودونوها فى كتبهم ورسائلهم ، وأرجعوا الفضل لأهله ، وكشفوا الباطل وأهله ، ولكنهم لم يؤمنوا بالإسلام لرواسب فى نفوسهم ، ولعادة تحكمت فيهم ، وإلف درجوا عليه ، ومراكز ومناصب لم يستطيعوا التخلى عنها ، وجهد ينتظرهم ، وكفاح يلزمهم فى سبيل إيمانهم ، خاصة وأن المجتمع المسلم اليوم فى القاع وفى أسوأ حالته المادية والمعنوية والعسكرية ، لا يستطيع أن يمد يد المعونة لأحد ، ولا يقدر على حماية إنسان أو الدفاع عنه ضد الإرهاب الدولى والقومى لهؤلاء الناس .

ومن هؤلاء المعجبين : جوستاف لوبون ، وجورج سارتون ، وهورتن الألمانى . وتوماس كارليل ، وديورانت ، ولفرن كابتول سميث ، وأميل دومنجم والبارون كارادى فو ، والدكتور بول دى ركلا ، وسيديو . برناردشو . وكلود اتيان سفارى .

ويتسم هذا الاتجاه بالموضوعية والإنصاف وبالدقة والتحقيق والاستقراء على أن سلامة الدراسات الاستشراقية من الأخطاء الفكرية والميول الذاتية المتوارثة منذ قرون ليس من السهل تجاوزها أو السيطرة عليها كليا ولكن محاولة التجرد فى البحث خطوة كبيرة فى تعزيز دراساتهم من الوجهة العلمية .

القسم الثانى : قادة وكتاب وسياسيون ، قالوا الحقيقة ، وبينوا الواقع لقومهم ليحذروهم من المسلمين ، ويضع الحقيقة بين أيديهم جلية حتى يستطيعوا التخطيط والترتيب لكبت الحق الإسلامى ومحاربته وهزيمته ، وحتى يستطيعوا أن يدخلوا على المسلمين من أبواب معلومة وقضايا مفهومة ، وأن يغزوهم ثقافيا وعسكريا إذا لزم الأمر ، وحتى يتمكنوا من خلق عقلية جديدة تعتمد على تصورات الفكر الغربى ومقاييسه ، ثم تتولى محاكمة الفكر الإسلامى والمجتمع الإسلامى من خلالها ، ولقد اعترف بذلك عدة من المبشرين والمستشرقين وأظهروا أن هدفهم هو خلق أجيال جديدة من العرب والمسلمين تحتقر كل مقومات الحياة الإسلامية بل الشرقية ، وإبعاد العناصر التى تمثل الثقافة الإسلامية عن مراكز التوجيه .

وليس المراد من إرسال الغرب للمبشرين فى بلاد الإسلام ، هو كما يدّعون لنشر الدين المسيحى فتلك دعوى كاذبة ، فإن العالم الغربى أصلا لا يؤمن بدين وإنما هو عالم ملحد مادى لا يعرف للروح معنى ، إن أمريكا التى تعبد الحديد والذهب والبترول ، قد غطت نصف الكرة الأرضية على الأقل بمبشرين يزعمون أنهم يدعون إلى حياة روحية وسلام دينى .

وبينما نرى فرنسا دولة علمانية فى بلادها ، نجدها هى الدولة التى تحمى المبشرين فى الخارج ، ونجدها تعادى الشيوعيين وتطردهم من بلادها ، ثم يصيرون أصدقاءها الحميمين كمبشرين فى مستعمراتها ، وكذلك إيطاليا التى ناصبت الكنيسة العداء ، وحجزت البابا فى الفاتيكان ، تبنى سياساتها خارج بلادها على الرهبان والمبشرين : وكذلك بريطانيا التى ليس للدين عندها مكان ،تبث المبشرين هنا وهناك ، حتى نصح الجنرال « هايغ » الحكومة البريطانية أن ترسل مبشرين إلى شبه الجزيرة العربية ؟!

ولا ينكر المؤلفون الأجانب أنهم اتخذوا التبشير آلة للتجارة والسياسة ، وأن أى مبشر لا يستطيع أن يتحرر من نفوذ حكومته أو توجيهاتها السياسية والتجارية والعسكرية(١) .

المبشرون وزرع الفساد :

ومن عجيب أن تبلغ أساليب التبشير ضد المسلمين حد الوحشية والهمجية ـــ حين يقوم الأب « هوجان الأكبر » بتصوير فتيات من أفريقيا الوسطى (بانكى) مسلمات

---

(١) انظر فى ذلك المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام . للصواف ـــ فصل بواعث التبشير الحقيقية ص ٢٠١ .

فقيرات فى أوضاع جنسية مخجلة ، وقد طردته السلطة الحاكمة بعد افتضاح أمره ، وقصده من ذلك فضح البيوت المسلمة وإشاعة الفاحشة ، كما كان جل اهتمامهم فى تلك البلاد وسط المسلمين فتح حانات الخمر حتى كان فى بلد مثل بانكى أكثر من ألف حانة ، إلى جانب الدعارة والربا والفساد ، الذى قصد به التحلل والفسق والفقر والعوز وإشاعة الفحشاء ، وهل هذا من الديانة فى شيء ؟ أم أنه الحقد والتعصب والإجرام ؟[1] .

اليهود يساعدون التبشير المسيحى :

ينقل مؤلف كتاب « التبشير والاستعمار » عن الراهب الأمريكى هنرى جسب قوله : إن المُمَوِّل اليهودى روتشيلد كان يقدم مساعداته لجميع الإرساليات التبشيرية فى فلسطين : البابوية والبروستانتية والصهيونية[2] ولا غرابة فى ذلك فالإرساليات الصليبية بشكل عام والبروستانتية بشكل خاص من أوكار الاستعمار التى تخدم أهدافه ومنها خدمة الصهيونية ، وكلهم أعوان لبعض ضد الإسلام وشرائع الحق .

من هذا الصنف من المبشرين الذين استعملوا لأغراض خبيثة : هنرى دى كاسنرى والقس إسحاق طبلر ، ولويس ماسينون ، وجب ، ورينيه ميليه ، وكريستان سنوك ، وسير ريتشارد وود ، وشاتليه ، وأوجين يونج ، وباول شمتز صاحب كتاب « الإسلام قوة الغد العالمية » ، وهربرت جوتشالك . صاحب كتاب « الإسلام قوة عالمية متحركة » . وهرمان اشتيجلكر ، صاحب كتاب « عقائد الإسلام » مستشرق ألمانى ، ورودى بارت ، الألمانى صاحب كتاب « محمد والقرآن ــ تاريخ النبى العربى ودعوته » سنة ١٩٦٦ وهربرت جريمى المستشرق الألمانى صاحب كتاب « محمد » وجوزيف شاخت ، وكتابه « المدخل إلى الفقه الإسلامى » . وغيرهم .

من أخطاء الدارسين المستشرقين:

الباحثون عن الحق والحاقدون من المستشرقين ، وهم (الباحثون عن الحقيقة للحقيقة ، والباحثون عن الحقيقة لاستغلالها ضد المسلمين) يقعون فى أخطاء لا مناص منها ، ويجب الحذر من تلك الأخطاء الفاحشة التى يكون مصدرها منهجيا أو لغويا ،

---

(١) رسالة عن الإسلام فى أفريقيا الوسطى « إبراهيم نعمة » والمد الإسلامى للجندى ص ١٢٦ .

(٢) التبشير والاستعمار فروخ ص ١٨٢ .

أو علميا .

فقد تقف اللغة حجر عثرة فى سبيل فهمهم للحقيقة حيث إن القرآن ملىء بالاستعارات والتشبيهات والكنايات البلاغية التى يعجز الكثيرون عن إدراك معانيها وأهدافها ويقع المستشرقون غالبا فى مصيدة اللغة ، من ذلك ما ذكره بعضهم « أن المسلمين يدعون أن كل إنسان يبعث يوم القيامة وفى رقبته حمامة » لأنه قرأ قول الحق سبحانه ﴿ **وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه** ﴾لأنه لايدرى من استعارات القرآن شيئا ، وأن الطائر هنا ، إنما هو لصحائف الأعمال لأنها سبب الخير والشر الذى يستبشر به الإنسان أو يتشاءم .

كما أن عدم دراية كثير من المستشرقين للاصطلاحات الإسلامية والفقهية المتعددة ، وعدم وجود الخلفية الإسلامية ، زيادة على صعوبة الاتصال بكتب التراث جعل الكثيرين يتوهمون أشياء لاتمت إلى الحقيقة بصلة .

كما أن جنوحهم نحو المصادر غير الموثقة والمشكوك فى صحتها ، وتتبعهم لكثير من الإسرائيليات جعلهم يقعون فى أخطاء قاتلة .

فهم بذلك يدسون السم فى العسل بقصد أو بغير قصد ، ويوقعون كثيرا من المسلمين الذين لا يعلمون شيئا عن هذه الدراسات فى شك ووهم وخلط كبير .

من مصادر القوى الحاقدة :

لاشك أن القوى الحاقدة على المسلمين والمتربصة بهم تستفيد من بحوث المخلصين وغيرهم ، وممن تجندهم لدراسة الإسلام ومن هواة الدراسات الإسلامية على حد سواء ، فهى تريد أن تبنى تخطيطها لضرب المسلمين وتشكيكهم فى عقيدتهم على معلومات صائبة أو أقرب إلى الصواب ، حتى تحصل على نتيجة جيدة في مجال عملها ، لذلك فهى تستفيد حتى من بحوث المسلمين الذين يتوجهون إلى جامعاتها وتحضهم على اختيار موضوعات تخدم مايريدون ، فتوعز إلى أحدهم مثلا أن يقدم رسالة فى أثر العقيدة فى الشخصية الإسلامية ، أو عمق العادات فى المجتمع المسلم وماهيتها .. إلخ ثم تعمد إلى تلك المعلومات فتبرمجها وتبنى عليها مخططات الهدم التى تريدها .

مع الباحثين عن الحق للمعرفة :

كثير من الباحثين المنصفين بهروا بالإسلام ، وأنصفوا تعاليمه وأحسوا بالحقيقة بيضاء ندية ، وأعلنوا هذا ، فتركوا بذلك أثراً محمودا فى الرأى العام الإسلامى ، وأثرا عميقا فى الرأى العالمى ، وكانوا حجة على عملاء الاستعمار وصرعى الأحقاد والشهوات من الضالين المسخرين لهدم الإسلام وتشكيك المسلمين ، فتقلدوا بذلك مهمة الشياطين والأبالسة ومردة الجان .

ــ المستشرق الفرنسى « **كلورد اتيان سافارى** » يقول فى رسول الله ﷺ « أسس محمد ديانة عالمية تقوم على عقيدة بسيطة لا تتضمن إلا ما يقوله العقل الذى يكافىء على الفضيلة ويعاقب على الرذيلة ، فالغربى المتنور إن لم يعترف بنبوته ، لا يستطيع إلا أن يعتبره من أعظم الرجال الذين ظهروا فى التاريخ(١) .

ــ **توماس كارليل** ، يرد على السخافات التى يرددها المتحاملون من المستشرقين الحاقدين فيقول فى كتابه « الأبطال وعبادة الأبطال » : « لقد أصبح من أكبر العار على كل فرد متمدن فى هذا العصر أن يصغى إلى القول بأن دين الإسلام كذب ، وأن محمدا خداع مزور ، فإن الرسالة التى أداها ذلك الرجل مازالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرنا لمئات الملايين من الناس أمثالنا ، خلقهم الله الذى خلقنا .

أكان أحدهم يظن أن هذه الرسالة التى عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والعد أكذوبة وخدعة ؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأى أبدا .

فلو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ، ويصادفان منهم هذا التصديق والقبول ، فما الناس إذاً إلّا بله ومجانين ، وما الحياة الدنيا إلا سخف وعبث ، كان الأولى ألا تخلق » .

ثم حلل (كارليل) شخصية الرسول ﷺ وكشف عن نواحى عبقريته التى تتجلى فيها أسمى معانى الوحى ، وانتهى إلى أن محمدا ﷺ كان مخلصا فى دعوته صادقا فى عقيدته مثل غيره من العظماء المؤمنين (٢) .

---

(1) Lcoran -2 - ed . Ranis . 1783 .

(٢) مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية ١ / ٢٤ .

ــ المستشرق السويدى « **توزاندرية** » صاحب كتاب « محمـد : حياتـه وعقيدتـه » يعارض الطرق العقيمة التى يسلكها المستشرقون فى تحليل شخصية الرسول : مبينا أن جوهر النبوة ، لا يمكن تحليله إلى مجموعة من آلاف العناصر الجزئية ، ومهمة الباحث فى رأيه أن يدرك فى نظرة موضوعية ، كيف تتألف من العناصر والمؤثرات المختلفة وحدة جديدة أصيلة تنبض بالحياة ،فالإسلام لا ينكر صلاته بالديانة اليهودية والمسيحية وعقيدة الحنيفية وتقاليد العرب ، ولكن ذلك لا يعنى أنه مجرد مجموعة من هذه العناصر .[1]وهناك جم غفير من الباحثين رفع راية الإسلام ، واعترف بالفضل له ، والتلمذة على تعاليمه ، وتحسر كثيرا على ذهاب سلطانه .

ــ يقول « **لين بول** » فى كتابه « العرب وأسبانيا » : يبين مقـدار النهضة الإسلاميـة وسبقها فى دروب الحضارة المتنوعة : « كانت أوربا الأمية تذخر بالجهل والحرمان ، بينما كانت الأندلس الإسلامية فى أوج الحضارة ، وتحمل أمانة التعليم وراية الثقافة » .

ــ ويقول « **فكتور روبنصن** » بعد كلام مطول فى موازنته بين الحضارة الإسلامية فى الأندلس وحضارة أوربا فى القرون الوسطى : « ... وكان أشراف أوربا لا يستطيعون توقيع أسمائهم ، بينما كان أطفال المسلمين فى قرطبة فى المدارس ، وكان رهبان أوربا يلحنون فى تلاوة سفر الكنيسة ، بينما كان معلّمو قرطبة قد أسسوا مكتبة تضارع فى ضخامتها مكتبة الإسكندرية العظيمة ... » .

ــ يقول « **شريشتى** » فى حديثه عن الفن الإسلامى والإبداع الـذى خلفـه المسلمـون : « ظلت أوربا نحو ألف سنة تنظر إلى الفن الإسلامى كأنه أعجوبة من الأعاجيب » .

ــ ويقول المستشرق الهولندى « **دوزى** » : « إن فى كل الأنـدلس لم يكـن يوجـد رجـل واحد أمّى ، بينما لم يكن يعرف القراءة والكتابة فى أوربا معرفة أولية إلّا الطبقة العليا من القسس » .

ــ ويقول « **بريفولت** » فى كتابه « تكوين الإنسانيـة » : « العلـم هو أعظـم ما قدمتـه الحضارة العربية إلى العالم الحديث ، مع أنه لا توجد ناحية واحدة من نواحى النمو الأوربى إلا ويلحظ فيها أثر الثقافة الإسلامية النافذة ، إلا أن أعظم أثر وأخطره هو ذلك الذى أوجد

---

(١) محمد كامل عيادة مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق جـ ٤ ــ م ٤٤ / ١٩٦٩ ص ٧٩٧ .

القوة التى تؤلف العامل البارز الدائم فى العالم الحديث ، والمصدر الأعلى لانتصاره أعنى العلم الطبيعى ، والروح العلمية ... وهذه الحقائق مؤداها أن الإسلام دين بناء حضارى » .

ــ ويقول « **أبو شبكة** » فى كتابه « روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة » : « إن زوال الحضارة العربية كان شؤما على أسبانيا وأوربا ، فالأندلس لم تعرف السعادة إلا فى ظل العرب وطالما ذهب العرب حل الدمار محل الثراء والجمال والخصب .. » .

ــ ويقول « **هـ . ر . جب** » فى كتابه « الاتجاهات الحديثة فى الإسلام » فى معرض المذهب التجريبى الذى قام عليه كل العلم الأوربى والذى هو تراث إسلامى أصيل ... يقول ما نصه : « أعتقد أنه من المتفق عليه أن الملاحظة التفصيلية الدقيقة التى قام بها الباحثون المسلمون قد ساعدت على تقدم المعرفة مساعدة مادية ملموسة ، وأنه عن طريق هذه الملاحظات وصل المنهج التجريبى إلى أوربا فى العصور الوسطى »(١) .

ــ يقول الدكتور « **ميشال الحائك** » : « إن هناك فرضا قاطعا على عنق المسيحيين ، وهو أن يقبلوا على تفهم الدين الإسلامى بإخلاص لمعتقد الغير ، وانفتاح ما بينه وبين المسيحية من قربى ، وأن يقبلوا بعد ذلك على إظهار المسلمين دينهم لإخوانهم المسيحيين بلغة عربية مبينة »(٢) .

هذا وقد أفاض كثير من الباحثين فى ذكر محاسن الإسلام ، وهذا من باب ما شهدت به الأعداء ، وإن كان لا يزيدنا إيمانا بالإسلام وبفاعليته وجدواه وقدرته على بعث الرماد الخامد ، ونفخ الروح فى الجسد الهامد ، لأن لنا والحمد لله عقولا تعرف الصواب من الخطأ وتقدر ثمن النعمة المسداه إليها من رب العالمين .

ويكون فى ذكرنا لهذه النتف من أخبار المستشرقين رد على أمثالهم من الحاقدين ، ورد على أذنابهم من المفتونين ، وتبصرة لغيرهم من المخدوعين ، وإن كان هذا لا يقدم ولا يؤخر بالنسبة لعظمة الإسلام فى ذاته ومكانته فى العالمين ، كما يقول الغزالى : « لأن العظيم لا يمسخ صغيرا لأن ظنون المعتوهين أخطأت فهمه ! » .

---

(١) انظر فى ذلك : تربية الأولاد لعلوان ١ / ٢٥٨ ط دار السلام للطباعة والنشر .

(٢) الدكتور ميشال دكتوراه فى اللاهوت ، وأستاذ فى المعهد الكاثوليكى بباريس ، عن المسيح فى القرآن والتوراة والإنجيل لعبد الكريم الخطيب ص ٨ .

ومن قرون طوال دب على أرضنا هذه نفر من الخلق نظروا إلى صاحب الرسالة العظمى شذرا ، ثم قال بعضهم ﴿ **يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون** ﴾ (١) .

وقال بعض آخر ﴿ **هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلها واحدا ؟** ﴾(٢)ومضى صاحب الرسالة فى طريقه يبذر الخير والحق ، وينشر العلم ، ويحيى القلوب ، وينشىء من الرمم التى استهلكتها الخرافة أجيالا ناضرة ، ويقيم أمة تكسر صلب الباطل ، وتقذف الرعب فى نفوس الشياطين ..

ماهذا ؟ .. إن الشمس لم تتحول إلى كرة قدم لأنها بدت فى عين بعض النـــاس كذلك ، ولا النبوة تحولت إلى مجون كهان أو ألاعيب سحرة لأن بعض الناس حسبها كذلك .

لقد ذاب الافتراء وأهله ، وتلاشى الجهل والجاهلون ، وبقيت الحقائق فوق التهم والترهات ..

لطالما استطالت ألسن فى قيم العباقرة ، فما أثمرت الاستطالة شيئا إلا انقطاع أصحابها بلغطهم ، وخلود الأبرار بمبادئهم وأهدافهم » (٣) .

---

(١)الحجر / ٦ .

(٢) سورة ص / ٤ ، ٥ .

(٣) دفاع عن العقيدة والشريعة ص ٢٤ .

الفصل الثالث

الحاقدون من المستشرقين

يحسن بنا أن نورد بعض الطعون من الحاقدين ، ونورد مايرد عليها من أمثالهم من المستشرقين ، حتى يكون الرد أبلغ وأمكن ، وحتى ترتد سيوفهم فى نحورهم ويظهر الضغن من الحق ، والضلال والبهتان من الصدق والعرفان .

أولا : من أقوال بعض الحاقدين من المستشرقين في الإسلام عامة والرد عليها :

كثيرا مايدفع الحقد إلى إنكار الحقائق والرسالات ، بل إلى قتل الرسل والأنبياء والهداة ، وقد ظهر هذا فى جملة من المستشرقين الذين كرسوا أنفسهم للافتراء والتشكيك فى الإسلام دون جميع الأديان ، ولم ينفع معهم البراهين الإسلامية العقلية والعملية التى بلغت حد الإعجاز والإبهار ، وسنورد بعضا من تلك الأباطيل المفضوحة ونرد عليها من أقوال المستشرقين المنصفين كما ألمحنا قبل ذلك :

ـــ يقول المسيو « **كيمون** » فى كتابه « ميثولوجيا الإسلام » : « إن الديانة المحمدية جذام ، فشا بين الناس ، وأخذ يفتك بهم فتكا ذريعا ، بل هو مرض مروع ، وشلل عام ، وجنون ذهنى ، يبعث الإنسان على الخمول والكسل ، ولا يوقظه منهما إلا سفك الدماء ثم يدمن معاقرة الخمر ويجمح فى القبائح !!

وما قبر محمد فى مكة (؟) إلّا عمود كهربائى يبث الجنون فى رؤوس المسلمين ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر الصرع (الهستريا) والذهول العقلى ، وتكرار لفظة (الله الله) إلى مالانهاية ، وتعود عادات تنقلب إلى طباع أصلية ككراهية لحم الخنزير والنبيذ والموسيقى ، وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور فى الملذات » .

ـــ ويقول « **جوبليان** » فى كتابه « تاريخ فرنسا » : « إن محمداً مؤسس دين المسلمين ، قد أمر أتباعه أن يخضعوا العالم ، وأن يبدلوا جميع الأديان بدينه هو ، ما أعظم الفرق

بين هؤلاء الوثنيين والنصارى !!.

إن هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة ، وقالوا للناس أسلموا أو تموتوا ، بينما أتباع المسيح أراحوا النفوس ببرهم وإحسانهم ، ماذا كان حال العالم لو أن العرب انتصروا علينا ؟ إذن لكنا مسلمين كالجزائريين والمراكشيين » .

ــ وقال « **غلوور** » صاحب كتاب « تقدم التبشير العالمى » الذى نشره فى نيويورك ١٩٦٠ م فى نهاية الباب الرابع : « إن سيف محمد والقرآن أشد عدو وأكبر معاند للحضارة والحرية والحق ، ومن بين العوامل الهدامة التى اطلع عليها العالم إلى الآن » .

وقال : « القرآن خليط عجيب من الحقائق والخرافات ومن الشرائع والأساطير ، كما هو مزيج غريب للأخلاط التاريخية والأوهام الفاسدة ، وفوق ذلك فهو غامض جدا لا يمكن أن يفهمه أحد إلا بتفسير خاص له ، والذى يعتقده المسلم أن المعبود هو الله الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ، فالله ملك جبار متسلط ليست له علاقة مع خلقه ورعاياه برغم أن الإسلام يذكر الرابطة الموجودة بينهما » .

ثم ينتقد « غلوور » شخصية الرسول ﷺ فيقول : « كان محمد حاكما مطلقاً وكان يعتقد أن من حق الملك على الشعب أن يتبع هواه ويعمل ما يشاء ، وكان مجبولا على هذه الفكرة ، وقد كان عازما على أن يقطع عنق كل من لا يوافقه فى هواه . أما جيشه العربى فكان يتعطش للتهديد والتغلب ، وقد أرشدهم رسولهم أن يقتلوا كل من يرفض اتباعهم ويبعد عن طريقهم » (١) .

رد الافتراءات وبيان وجه الحق :

لا يملك الإنسان نفسه عند سماع هذه الأباطيل إلا أن يتصور المردد لها سكرانا أو فاقدا الوعى ، لا يأبه بحقيقة ولا يلتفت إلى معرفة أو دليل . فلنجد مثلا « كيمون » يصف الإسلام الذى أحيا الأمم ونبه الدنيا وأنار العالمين بالكسل والخمول ، ثم يمعن فى الجها والتجنى والخرافة فيدعى أن الإسلام كله خمر وجنس ورذائل ، هكذا يقول بكل وقا وصفاقة ويصف الإسلام الذى يقرر القاصى والدانى بأنه دين الطهر والمثالية بهذه الأوصاف

---

(١) انظر فى ذلك وفى هذه النصوص الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص ٥٠٧ ، ٥٢١ .

والنعوت ، وكأنه يصف حانة من حانات الخمر والعهر التى يتسكع فيها أمثاله فى بلاد الغرب الماجن ، ثم يأتى بعده على شاكلته « جويليان » ويتهم الإسلام بالوثنية ولا يخجل من جهله وسفهه ، فالإسلام هو الذى هدم الوثنية ، وأزاح الشرك بكل أنواعه ، وعبد الناس للواحد القهار ، والإسلام هو الذى حرر الإنسان من الخرافة والوهم والشعوذة ، ولكن أنّى للحاقدين أن يعرفوا ذلك أو يفقهوه ﴿ **فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا** ﴾.

ثم يأتى « **غلوور** » فيكون أشد إضحاكا من جهله وسفهه وبذائته ، فيذكر أشياء عجيبة غير متخيلة فضلا عن أنها غير متوقعة ، فيتهم الإسلام بأنه ضد الحضارة وأنه لا يعرف إلا القهر وكتم الحرية والحق ، ولقد ظن فى نفسه وهو لا يدرى أنه يتكلم عن فظائع المسيحية فى العصور الوسطى ، أو عن محاكم التفتيش الصليبية الغابرة التى أدارها قومه بنو عشيرته من الحاقدين السفاحين .

إن الإسلام هو الذى جعل الدنيا تحس طعم الحضارة الحقة فى الخلق ، والعلم ، والفهم ، والكشف ، والعبقرية ، بشهادة العقلاء أصحاب المنطق بالحجج والبراهين والأدلة .

ـــ يقول « **ل . أ . سيدو** » فى « تاريخ العرب العام » : « تمتع العرب بقوة نشاطهم التى لا مثيل لها ، والتى تحدد عصرا مميزا فى تاريخ العالم ، أما ميولهم فكانت مضادة لروح التعصب الإسرائيلية ، ولذلك استطاعوا أن يندمجوا فى الشعوب التى انتصروا عليها ، وإذا أردنا أن نبحث كيف أن غزوهم لسوريا وفلسطين واستيلاءهم فيما بعد ذلك على مصر قد أيقظ فى نفوسهم روح العلم والرغبة فى العمل على التقدم السريع بأنفسهم ، فإنه ينبغى علينا أن نضع فى حسباننا استعدادهم الطبيعى لاستعمال ملكاتهم »(١) .

ـــ يقول « **جورج سارتون** » فى « مقدمة تاريخ العلوم » : « يكفينا هنا أن نذكر قليلا من الأسماء المجيدة التى لم يطاولها فى الغرب أى من الأسماء المعاصرة لها : جابر بن حيان ـــ الكندى ـــ الخوارزمى ـــ الفرجانى ـــ الرازى ـــ ثابت بن قرة ـــ البتانى ـــ حنين ابن إسحاق ـــ الفارابى ـــ إبراهم بن سنان ـــ المسعودى ـــ الطبرى ـــ أبو الوفا ـــ على ابن عباس ـــ أبو القاسم ـــ ابن الجزار ـــ البيرونى ـــ ابن سينا ـــ ابن يونس ـــ ابن

---

(١) تاريخ العرب العام جـ ٢ ص ٣ ، ٤ .

الهيثم — على بن عيسى الغزالى — الزركلى — عمر الخيام — ....

وهذه سلسلة من الأسماء الفخمة اللامعة التى لا يصعب أن تمتد إلى غيرهم ، فإذا أخبرك أحدٌ أن العصور الوسطى كانت عقيمة من الناحية العلمية ، فاذكر له هذه الأسماء فقط تلك التى ازدهرت فى فترة قصيرة نسبيا تمتد ما بين سنتى ٧٥٠ ، و١١٠٠ من الميلاد » (١) .

إن الخرافات التى يذكرها هؤلاء الزاهلون ما هى فى الواقع إلا إفرازات طبيعية للصراع المحتدم بين الإسلام والصليبية ، وفى هذا المعنى يقول المتشرق **منتجمرى وات** عن الأوربيين : « إن الظلام الذى ينسبه الأوربيون إلى أعدائهم المسلمين ليس إلا تعبيرا فى الحقيقة عن الظلام الذى يعيشون فيه ، والذى لا يرغبون فى الاعتراف به ، وهكذا ينبغى النظر إلى التصور المشبوه الذى يخرج من هؤلاء عن الإسلام على أنه انعكاس للجوانب المظلمة لوعى الأوربى .

إن الولع المفرط بالجنس الذى ينسبونه إلى المسلمين كان موجودا فى أوربا لكنه لم يتلاءم مع المثال المسيحى وكان المسيحيون يرون أن الجنس أمر جسدى ، وأن كل ما هو جسدى تعافه النفس .. وكانت عفة الرهبان تعتبر أسمى من الحياة الزوجية ، وكم كان طريفا لو أمكننا أن نستجلى هل كان الأوربى العادى الذى كان يمدح ، كلاميا ، أفضلية العزوبة قد اقتنع حقا بعد الممارسات الجنسية أن عفة الرهبان خير من الزواج » (٢) .

إن الجنس أصبح الزاد اليومى للأوربى الذى أراق فى سبيله كل شىء ، والخمر والمخدرات أصبحت مزاجه الحاضر ، وكل ذلك لا يعرفه الإسلام ولا يجيزه ، لأن الإسلام له طبيعته الطاهرة العظيمة .

ولا يحق لأى أوربى أن يتهم الإسلام لأنه هو الذى أخذ بيدهم رغم حقدهم الشديد له ، حقد الباطل للحق الأبلج ، وحقد الظالم أو السارق للشرطى الذى يحفظ الأمن والنظام ، وللنهار الذى يفضح الجريمة ويكشف الغاصبين والسراق .

يقول **جوستاف لوبون** فى « حضارة العرب » : « أحرق رئيس الأساقفة الأسبانى

(١) مقدمة تاريخ العلوم الجزء الأول ص ١٧ .

(٢) أثر الحضارة العربية على أوربا ص ١٦٠ ، ١٦١ .

(**سمينيس**) مخطوطات العرب وتقدر بثمانين ألف كتاب وظن أنه بفعلته هذه قد محى ذكر العرب من صفحات التاريخ الأسبانى نهائيا ، ولم يكن يدرك أن ما تركه العرب من الآثار التى تفيض بها مدن أسبانيا بالإضافة إلى آثارهم الفكرية إنما يكفى لتخليد اسمهم إلى الأبد » [١] .

ــ ويقول **ليوبولد فايس** « **محمد أسد** » فيما يتعلق بعداء الغربيين للإسلام :« إن احتقار الأوربيين التقليدى للإسلام ، أخذ يتسلل فى شكل تحزب غير معقول إلى بحوثهم العلمية ، وبقى هذا الخليج الذى حفره التاريخ بين أوربا والعالم الإسلامى (منذ الحروب الصليبية) غير معقود فوقه بجسر ، ثم أصبح احتقار الإسلام جزءا أساسيا من التفكير الأوربى ، والواقع أن المستشرقين الأولين فى الأعصر الحديثة كانوا مبشرين نصارى ، يعملون فى البلاد الإسلامية ، وكانت الصورة المشوهة التى اصطنعوها من تعاليم الإسلام وتاريخه مدبرة ، على أساس يضمن التأثير فى موقف الأوربيين من الوثنيين ، غير أن هذا الإلتواء العقلى قد استمر مع أن علوم الاستشراق قد تحررت من نفوذ التبشير ، ولم يبق لعلوم الاستشراق هذه عذر من حمية دينية جاهلية ، تسىء توجيهها ، أما تحامل المستشرقين على الإسلام اليوم فغريزة موروثة وخاصة طبيعية تقوم على المؤثرات التى خلفتها الحروب الصليبية بكل ما لها من ذيول فى عقول الأوربيين » [٢] .

ــ كما يقول « **لويس براون** » : « ليست الحروب الصليبية وحدها هى سبب العداء والتحامل ولكنه الإسلام نفسه الذى هو الخطر الحقيقى ، والذى يكمن فى نظامه وفى قدرته على التوسع والإخضاع ، وفى حيويته الفريدة ، إنه الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الأوربى » [٣] .

ونقرأ فى مجلة العالم الإسلامى « عدد حزيران ١٩٣٠ م : « إن شيئا من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربى ، ولهذا الخوف أسباب منها : أن الإسلام منذ أن ظهر فى مكة لم يضعف عدديا بل كان دائما فى ازدياد واتساع ، ثم إن الإسلام ليس دينا فحسب بل إن من أركانه الجهاد ، ولم يتفق قط أن شعبا دخل فى الإسلام ثم عاد نصرانيا » .

ــ ويقول المستشرق الألمانى « **بيكر** » : « بصراحة إن هناك عداءً من النصرانية للإسلام

---

(١) حضارة العرب لجوستاف لوبون ص ٢٨٢ .
(٢) الإسلام على مفترق الطرق ص ٦٠ .
(٣) تحت شمس الفكر ص ١٦ الحكيم . مناهج المستشرقين ١ / ١٢٩ مجلة البلاغ الكويتية عدد ٥٨ ص ١٢ .

بسبب أن الإسلام عندما انتشر فى العصور الوسطى أقام سدا منيعا فى وجه انتشار النصرانية ، ثم امتد إلى البلاد التى كانت خاضعة لصولجانها » [1] .

ـــ ثم يرد الدكتور « **موريس بوكاى** » الباحث الفرنسى بعد بحث ودراسة على **أقوال** المتهافتين فى كتابه « القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم » فيقول :

« لقد أثارت دهشتى هذه الجوانب العلمية التى يختص بها القرآن ، والتى كانت مطابقة تماما للمعارف العلمية الحديثة ، ولقد درست هذه النصوص بروح متحررة من كل حكم سابق ، وبموضوعية تامة ، بيد أنى لا أنكر تأثير التعاليم التى تلقيتها فى شبابى حيث لم تكن أغلبية تتحدث عن الإسلام ، وإنما عن المحمديين لتأكيد الإشارة إلى أن هذا الدين أسسه رجل ، وبالتالى فهو ليس بدين سماوى ، فلا قيمة له عند الله ، وكان يمكن أن أظل محتفظا كالكثيرين بتلك الأفكار الخاطئة عن الإسلام وهى شديدة الانتشار ، ولما تحدثت مع بعض المستنيرين من غير المتخصصين عرفت أنى كنت جاهلا قبل أن تعطى لى عن الإسلام صورة تختلف عن تلك التى تلقيتها فى الغرب ، وكان هدفى الأول هو قراءة القرآن ودراسة نصه آية آية ، مستعينا بمختلف التعليقات اللازمة للدراسة النقدية ، وانتبهت بشكل خاص إلى دقة بعض الإشارات الخاصة بالظواهر الطبيعية ومطابقتها للمفاهيم التى نملكها اليوم عن هذه الظواهر نفسها ، والتى لم يكن لأى إنسان فى عصر محمد ﷺ أن يكوّن عنها أدنى فكرة ، ثم قرأت إثر ذلك مؤلفات كثيرة خصصها كتاب مسلمون للجوانب العلمية فى القرآن ، وعلى حين نجد فى التوراة أخطاء علمية فادحة ، فإنا لا نجد فى القرآن أى خطأ ، وقد دفعنى ذلك إلى أن أتساءل : لو كان مؤلف القرآن إنسانا ، فكيف استطاع فى القرن السابع من العصر المسيحى أن يكتب ما اتضح أنه يتفق اليوم مع العلوم الحديثة ؟ ليس هنالك أى مجال للشك : فنص القرآن لذى نملك اليوم هو النص الأول نفسه ومن ذا الذى كان فى عصر نزوله يستطيع أن يملك ثقافة علمية تسبق بحوالى عشرة قرون ثقافتنا العلمية ؟ حقا إن فى إشارات القرآن قضايا ذات صبغة علمية تثير الدهشة .

ففى القضايا التى تخضع للملاحظة ، مثل تطور الجنين ، يمكن مقابلة مختلف المراحل موصوفة فى القران مع معطيات علم الأجنة الحديثة ، لمعرفة مدى اتفاق الايات

---

(١) مجلة البحث الإسلامى الهندية عدد ٩ السنة الثامنة .

القرآنية فيها مع العلم » (١) .

هذه الشهادة لها وزنها واعتبارها من عالم محقق ، وباحث مدقق ، مثل الدكتور بوكاى الذى درس القرآن آية آية كما قال ، ونظر إليه من زوايا تخصصه ، فاكتسب بحثه طابعا علميا أكاديميا ، فخرج بنتيجة تشرف أهل العلم ، دون أن يكون فى حاجة إلى التأثر بأقوال المستشرقين الذين يهرفون بما لا يعلمون ، ثم يزيدون عليها أحقادهم ، ويضعون القول فى غير موضعه وغير مراعاة إلى علم أو دليل .

ــ وفى هذا يقول « **درمنغم** » : « من المؤسف حقا أن غالى بعض هؤلاء المتخصصين فى الاستشراق من أمثال موير ، ومرغوليوث ، ونولدكه ، وشبرنجر ، ودوزى ، وكيتانى ، ومارسين ، وغولدزيهر ، وغودفروا وغيرهم ــ فى هدم الإسلام ، فلم تزل كتبهم عامل هدم على الخصوص ، ولا تزال النتائج التى انتهى إليها المستشرقون سلبية ناقصة ، ولن تقوم سيرة على النفى بدون دليل ... ومن دواعى الأسف أن كان الأب « لامانس » ــ الذى كان يفترض أنه من أفضل المستشرقين المعاصرين ــ من أشدهم تعصبا ، وأنه شوه كتبه وأفسدها بكرهه للإسلام ونبى الإسلام » (٢) .

ــ ثم يقول « **مونتغمرى وات** » فى هذا الموضوع : « إذا أردنا أن نصحح الأغلاط المكتسبة من الماضى بصدد محمد ودينه ، فيجب علينا فى كل حال من الحالات التى لا يقوم الدليل القاطع على ضدها ، أن نتمسك بصلابة بصدقه ، ويجب ألّا ننسى أيضا أن الدليل القاطع يتطلب قبوله أكثر من كونه ممكنا ، وأنه فى مثل هذا الموضوع يصعب الحصول عليه » (٣) .

ــ وقد اعترف « **فولتير** » بخطئه ضد الإسلام ، فغير رأيه فى قاموسه الفلسفى فقال : لقد نسبنا إلى الإسلام كثيرا من السخافات ، وهو فى الحقيقة خلو منها ، ولكن كهنتنا كتبوا كتبا كثيرة فى ذم الأتراك ، واتفق أن كان الأتراك مسلمين ، فأصيب على حساب غيره » (٤) .

ــ ويكشف « **إيتان دينيه** » عن تعصب قومه فى كتابه « محمد نبى الإسلام »

---

(١) موريس بوكاى « القرآن والتوراة والعلم » ١٤٤ ــ ١٤٨ ط دار المعارف مصر سنة ١٩٧٧ .

(٢) حياة محمد المقدمة ص ٨ ، ١١ .

(٣) محمد فى مكة ص ٩٤ .

(٤) المؤيد ــ ١٩ مارس ١٩٠٨ .

فيقول : « لقد مضى عليهم ثلاثة قرون ، وهم يهاجمون هذا الإسلام ، بدعوى أنهم يعدونه أساطير ليقيموا على أنقاضها حقائق .

وهاهم بعد طول العناء لم يعملوا شيئا ، وإذا قارنا النظريات الحديثة التى تفنن فيها المستشرقون فى فرنسا وانجلترا وألمانيا وبلجيكا وهولندا ، وعارضنا بعضها ببعض لافتضح حينئذ ما انطوت عليه أقوالهم من اختلاط وتلبيس ، لأن نظرياتهم مبنية على الباطل ، ولذلك تولى بعضهم تحطيم البعض الآخر ، فالذى يقوله (دنهارت دوزى) فى كتابه « مسلموا الأندلس »ص ١ — ١٨ من أن محمداً شذ عن قومه العرب بأن له خيالا ، وأن العرب مجردون من الخيال يكذبه (هنرى لامنس) فى كتابه (مهد الإسلام)ص ٤ — ٥ لأنه ينسب فوز الإسلام إلى المطابقة بين محمد وبيئته [1] .

— ويرد « إيتان دينيه » على (الأب لامنس) المتحامل على الإسلام فيقول : إن الأب لامنس فى علم المشرقيات كبطرس الناسك فى الحروب الصليبية ، جهز بهمة لا تعرف الكلل حملة صليبية لقتال الإسلام ، وكذلك (لامنس) جهز حملة دعية فى العلم طمعا فى أن يصرع الإسلام صرعة لا مقام منها ، وأن نفراً من النصارى فى أوربا دانوا بالإسلام فى الأعوام الأخيرة ويكثر عددهم على مر الأيام ، وأن الكاتب (هنرى دى كاسترى) قال فى كتابه : (الإسلام) ص ٢١١ : « إن الإسلام هو الدين الوحيد الذى لا مرتدون فيه »[2] .

— ويذهب (دوزى) إلى أن نبى الإسلام كان سوداويا صموتا يميل إلى النزهة الطويلة .

بينما « لامانس » يكذب ذلك ويرد عليه فيقول : « إن هذا الزعم لا يتفق مع نفور محمد من الوحدة وكراهيته للنسك » .

— ويرد « فليكس فالى » المستشرق المجرى اتهام الإسلام بالجمود فيقول : « إن دعوى كون الإسلام جامد لا يتحرك دعوى لا دليل عليها ، والحق أن الإسلام كان فى كل عصوره مثالا للحركة الفكرية فى التاريخ . وأن التشريع فى الإسلام ليكشف عن خبايا التشريع الرومانى » .

---

(١) المنار ١٨ م ص ٢٦٢ .

(٢) آراء غربية فى مسائل شرقية « عمر فاخورى » .

ويستغرب « فليكس » من جهل المستشرقين فيقول : « إن هذه البعثات التى تذهب إلى الشرق كانت تصدر حكمها قبل أن تصل إلى بلاد الإسلام ، ولهذا كانت آراؤها خطأ لأنهم لم يعرفوا الإسلام إلّا منَ المسيحية الوافدة من الشام ، وكل همّ هؤلاء أن يستفيدوا من الآراء الجائرة من الأوربيين أو الأمريكيين ضد المسلمين » (١)..

ـــ وقد أقام الدليل على مرونة الإسلام « **جولد زيهر** » فى كتابه « **دروس فى الإسلام** » . « إن الإسلام الذى ليس لانتشاره مثل فى تاريخ الإنسانية ليس مبنيا على الاعترافات الدينية » .

ـــ وقد أشار إلى حقد المستشرقين وخطأهم الدكتور « **جواد على** » فقال : « إن المستشرق (كيتانى) وهو من المستشرقين الكبار الأوائل الذين كتبوا عن حياة الرسول ﷺ كان يعتمد منهجا معكوسا فى البحث يذكرنا بكثير من التلامذة الجدد فى حقل التاريخ الإسلامى ، والذين يعملون وفق منهج خاطىء من أساسه إذ أنهم يبيتون فكرة مسبقة ثم يجيئون إلى واقع التاريخ لكى يستلوا منها ما يؤيد فكرتهم ويستبعدوا ما دون ذلك ، فلقد كان (كيتانى) ذا رأى وفكرة ، وضع رأيهَ وكوّنه فى السيرة قبل الشروع فى تدوينها ، فإذا شرع بها استعان بكل خبر من الأخبار ظفر به ضعيفها وقويها ، وتمسك بها كلها ولا سيما ما يلائم رأيه ، ولم يبالى بالخبر الضعيف بل قوّاه وسنده وعده حجة وبنى حكمه عليه ، ومن يدرى فلعله كان يعلم بسلاسل الكذب المشهورة والمعروفة عند العلماء ، ولكنه تجاهل وغض نظره عن أقوال أولئك العلماء فيها ، لأنه صاحب فكرة يريد إثباتها بأى طريقة كانت ، وكيف يتمكن من إثباتها وإظهارها وتدوينها إذا ترك تلك الروايات وعالجها معالجة نقد وجرح وتعديل على أساليب البحث الحديث ؟ » (٢) .

ثانيا : من أقوالهم فى القرآن والرد عليها :

اتجهت جهود المستشرقين المناهضين للإسلام قديما وحديثا إلى زعزعة الاعتقاد فى صحة القرآن وفى مصدره ، كلٌّ بما أوتى من براعة فى الكذب والتلفيق والتخيل ، مضاهئين بذلك قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ، حيث زعم ذلك الوثنيون ﴿ **وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا** .

---

(١) آفاق جديدة ص ٦٠ ، ٦١ .

(٢) تاريخ العرب فى الإسلام جواد على ١ / ٩٥ .

وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا . قل أنزله الذى يعلم السر فى السموٰات والأرض إنه كان غفورا رحيما ﴾ (١) .

وقد صرح بذلك المشركون فى سورة النحل ، إذ حكى ذلك القرآن الكريم عنهم فى قوله ﴿ **ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين** ﴾ (٢) .

قال ابن كثير : « كان هناك غلام لبعض قريش بمكة أعجمى سيافاً وكان الرسول ﷺ يمر عليه ويكلمه ــ وكان ﷺ يعطف على الفقراء ويدعوهم إلى الإسلام ــ وكان أعجمى اللسان ما يكاد يبين ، فقال المشركون إنما يعلمه هذا الأعجمى » (٣) فرد عليهم القرآن الكريم بالحجة .

وقد سار المستشرقون المتحاملون على الإسلام على خطا الجاهلية الأولى من عبدة الأحجار والأوثان ، وبذلوا محاولات مستميتة لبيان أن القرآن ليس من عند الله وقرروا :

أولا : أن القرآن من قول محمد ومن افترائه .

ثانيا : أنه منحول ومنقول من كتب أهل الكتاب ورهبانهم وأحبارهم ، تعلمه محمد على أيديهم ، مرددين بذلك ما قاله الوثنيون قديما .

ــ يتخيل « **فويلز** » محمدا رجلا دفعته طموحاته ووساوسه فى سن الكهولة إلى تأسيس دين ليعد فى زمرة القديسين ، فألف مجموعة من عقائد خرافية وآداب سطحية ، وقام بنشرها فى قومه فاتبعها رجال منهم (٤) .

ــ ويقول « **جولد زيهر** » ــ ينسب المعرفة الدينية التى تلقاها محمد ﷺ إلى عنصرين خارجى وداخلى فيقول : « فتبشير النبى العربى ليس إلّا مزيجا منتخبا من معارف وآراء دينية عرفها بفضل اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية التى تأثر بها تأثرا عميقا ، والتى رآها جديرة بأن توقظ فى بنى وطنه عاطفة دينية صادقة ، وهذه التعاليم التى أخذها عن تلك العناصر الأجنبية كانت فى وجدانه ضرورية لإقرار لون من الحياة فى اتجاه يريده الله ،

---

(١) الفرقان / ٤ ــ ٦ .

(٢) النحل / ١٠٣ .

(٣) أنظر تفسير ابن كثير ٢ / ٥٨٦ ط المعرفة بيروت .

(٤) الإسلام والثقافة العربية فى مواجهة الاستعمار ص ٢٣٩ م الرسالة مصر .

لقد تأثر بهذه الأفكار تأثرا وصل إلى أعماق نفسه ، وأدركها بإيحاء قوة التأثيرات الخارجية ، فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه ، كما صار يعتبر هذه التعاليم وحيا إلٰهيًّا » (١) .

— ويقول « **بلاشير** » — بالرغم من اعتداله فى أحكامه — متحدثا فى كتابه « معضلة محمد عن مصدر القصص القرآنى » ذاكراً بالخصوص ، أنه مما لفت انتباه المستشرقين هو التشابه الحاصل بين هذا القصص وبين القصص اليهودى المسيحى ، وقد كان التأثير المسيحى واضحا فى السور المكية الأولى ، إذ كثيرا ما تكشف مقارنة بالنصوص غير الرسمية كإنجيل الطفولة الذى كان سائدا فى ذلك العهد عن شبه قوى ، ويعرض فى هذا الصدد آراء بعض الباحثين مبينا رأيه فيما يستنتج من العلاقات المستمرة التى كانت تربط بين مؤسس الإسلام والفقراء المسيحيين بمكة (٢) .

— ويرى « **ريتشارد بل** » مؤلف كتاب « مقدمة القرآن » (٣) : « أن النبى ﷺ قد اعتمد فى كتابته للقرآن على الكتاب المقدس ، وخاصة على العهد القديم فى قسم القصص ، فبعض قصص العقاب كقصص عاد وثمود مستمد من مصادر عربية ، ولكن الجانب الأكبر من المادة التى استعملها محمد ليفسر تعاليمه ويدعمها قد استمدها من مصادر يهودية ونصرانية ، وقد كانت فرصته فى المدينة للتعرف على ما فى العهد القديم أفضل من وضعه السابق فى مكة ، حيث كان على اتصال بالجاليات اليهودية فى المدينة وعن طريقها حصل على قسط غير قليل من المعرفة بكتب موسى على الأقل » .

— ويقول « **رودى بارت** » . « إن محمدا تعرف على النصرانية من بحيرى الراهب فى رحلته التجارية إلى الشام ، وقد تمثل محمد فى نفسه ما سمعه من بحيرى الراهب وما عرفه من أتباع اليهودية ، وخرج على الناس يعلن دينه الجديد الذى لفقه من الدينين الكبيرين » (٤) .

— ويذهب المستشرق « **لوت** » إلى أن النبى ﷺ مدين بفكرة فواتح السور من مثل حمٓ ، طسٓمٓ ، والٓمٓ ، إلخ ، بتأثير أجنبى ويرجح أنه تأثير يهودى ، ظنا منه أن السور التى بدأت بهذه الفواتح مدنية خضع فيها الرسول ﷺ لتأثير اليهود ، ولو دقق فى الأمر

---

(١) جولد زيهر « العقيدة والشريعة فى الإسلام » ص ١٢ ط مصر ١٩٤٨ .

(2) R - Blackeverl Problemedu Mohomed 60 (P.V.F. paris) 1952 .

(٣) الاستشراق لزقزوق ٨٤ ، عن اللبان ٤٤ — ٤٥ .

(٤) فى كتابه « محمد والقرآن » ألمانيا الغربية ١٩٥٧ ترجمه إلى العربية د. مصطفى ماهر سنة ١٩٦٧ ص ١٣ وما بعدها .

لعلم أن سبعا وعشرين سورة من تلك السور التسع والعشرين مكية وأن اثنتين فقط من هذه السور مدنية ، وهما سورتا البقرة وآل عمران (١) .

ثم يتخبط المستشرقون مرة أخرى فيزعمون أن الرسول ﷺ أخذ القرآن من شعر أمية بن أبى الصلت ومن شعر امرىء القيس والدليل على ذلك أن قول القرآن : ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر** ﴾ ، مأخوذ مما نسبوه إلى امرىء القيس :

دنت الساعة وانشق القمر   عن غزال صاد قلبى ونفر
أحور قد حرت فى أوصافه   ناعس الطرف بعينيه حور
بسهام من لحاظ فاتك   تركتنى كهشيم المحتظر

وقد رد عليهم العقاد فقال : « وأيسر ما يبدو من جهل هؤلاء الخابطين فى أمر اللغة العربية قبل الإسلام وعلاقتها بلغة القرآن الكريم ، أنهم يحسبون أن العلماء المسلمين يجدون فى بحث تلك الأبيات وصبا واصبا لينكروا نسبتها إلى الجاهلية ، ولا يلهمهم الذوق الأدبى أن نظرة واحدة كافية لليقين بإدحاض نسبتها إلى امرىء القيس أو غيره من شعراء الجاهلية »(٢) ثم أننا نقول : ماذا فى الاعتراف بأن تكون بعض التعبيرات العربية التى استخدمها العرب فى الشعر والنثر وردت كلاما فى القرآن .

والقرآن جاء بلسان عربى مبين ، وكان أحيانا ينزل بنص كلمات تحدث بها الصحابة من أمثال عمر رضى الله عنه وأرضاه ، وهناك فرق كبير بين « دنت الساعة » وبين « اقتربت الساعة » ولم لا يكون الشاعر هو الذى اقتبس من القرآن ، لأن الشعر ليس لامرىء القيس .

وهكذا ، فإن أكثر المستشرقين لم يتوصلوا إلى تكوين فكرة صحيحة عن مصدر القرآن ولا عن الوحى الذى أنزل عليه ، فانساق الكتاب الغربيون فى اتجاههم يرددون الفكرة نفسها من غير بينة ، بل إن المتعصبين منهم عندما يتحدثون عن الرسول والقرآن والإسلام تتحول ألسنتهم وأقلامهم إلى معاول هدم .

وأذكر على سبيل المثال مقالا كتبه « فيليب أيرلنجى » فى مجلة تصدر فى باريس نسب فيه إلى الرسول ﷺ بقصد النيل من شخصيته الشريفة ما تبرأ منه كل باحث

(١) نظرات استشراقية فى الإسلام للدكتور غلاب ص ٤١ ، ٤٢ .
(٢) إسلاميات العقاد ص ٥١ / ٥٣ .

نزيه ، وما لا يصدر مثله إلّا عمن أغلق فكره التعصب والحقد ، وكان مما ادعاه فى مقاله : « كثرة اتصال محمد باليهود فى مكة مكن له من أخذ الديانة عنهم » والمعروف أن جل اليهود آنذاك كانوا بالمدينة لا بمكة ، ثم قال مفتريا على الرسول مرة أخرى : « أنه كان يسأل خادمه زيدا وهو مملوك للمسيحيين عن الديانتين المسيحية واليهودية ليأخذ منهما وكان حاذقا فطنا ، أحد ذكاء ، وأدق فهما من خادمه » ثم يقول : « لقد كان محمد فى المدينة تلميذاً لليهود وهم الذين كونوه ، ثم بدأ جبريل يمده ببعض الأساطير التى يعرفها اليهود والمسيحيون » .

هذا التناقض الصارخ وهذا الفهم العجيب الذى لا يصدر عن طفل أو عن ذى لب ، يدل على كمال التخبط والحيرة والكذب الصراح ، خاصة إذا كان ذلك من غير سند أو حجة تاريخية أو حتى منطق عقلى ، وهذا فى الحقيقة لا يستحق الرد أو الالتفات لسقوطه وتفاهته .

ولعل أول ما يبعث على التساؤل هو : أن القرآن عربى معجز فى بلاغته وفصاحته ، وقد تحدى به العرب ، بل الإنس والجن وقد كان معجزا كذلك بدستوره ونظامه الأخلاقى والعلمى ، فهل أخذ محمد ﷺ ، الإعجاز كذلك من اليهود ، أو من ورقة بن نوفل ، أو من خادمه .

ثم ما تدعونه من مشابهة فى بعض القصص فى القرآن للقصص فى الكتب السابقة ، فما المانع أن يكون القرآن وحيا أصيلا مأخوذا من النبع نفسه الذى اغترفت منه الديانات السماوية الصحيحة ؟

ما المانع أن يكون الإسلام هو الحلقة الأخيرة من حلقات الوحى الإلهى الذى أقام الاتصال بين السماء والأرض على مدى تاريخ البشرية ؟

لماذا تحرمون على الإسلام ما تبيحونه لليهودية والنصرانية ؟ هل هو التعصب الأعمى ولا شىء غيره ، أم هى الكراهية لهذا الدين الذى جاء مصححا لما طرأ على الديانات السابقة من أوهام وأباطيل ، وكاشفا لوجه الحق فيها ؟

المبدأ : جواز اتصال السماء بالأرض عن طريق الوحى ، مبدأ مسلم به أم لا ؟ إنه إذا كان المبدأ مسلما به فلا معنى لأن تحتكره اليهودية المحرفة والنصرانية المزيفة وتمنعه عن

الإسلام ، وإذا لم يكن مسلما به فلا مجال للديانات جميعها .

لقد جاء القرآن الكريم بما هو أعلى وأوسع وأكمل من كل المعلومات التى كانت لدى بحيرى الراهب ولدى كل النصارى واليهود فى شتى بقاع العالم ، وجاء القرآن مصدقا لما نزل على موسى وعيسى وداود وسليمان وغيرهم ، من حيث كون الكتب التى نزلت عليهم هى فى الأصل وحى من عند الله ، كما جاء القرآن مهيمنا على هذه الكتب ، وحاكما عليها ، فذكر القرآن أن اليهود والنصارى أوتوا نصيبا من الكتاب ، وأنهم نسوا حظا مما ذكروا به ، وأنهم حرفوا الكلم عن مواضعه ، كما بين القرآن الكريم كثيرا من القضايا الكبرى التى كانت موضع خلاف بينهم فى العقائد والأحكام والأخبار [1] .

وهناك العديد من الأمثلة التى خالف فيها القرآن ما ورد من أخبار فى كل من العهد القديم والجديد فهل أخذ محمد ﷺ ذلك من الرهبان فى رحلته التجارية إلى الشام ؟

وهل كان كفار مكة يسكتون عن ذلك لو عرفوا أن محمدا استقى معلوماته من اليهود أو النصارى ؟ إنهم أشاعوا هذا الاتهام ، ولكنهم سكتوا لما ألجمهم القرآن بالحجة والإعجاز .

نعم لقد كانوا يلجأون إلى أوهى المزاعم ، فلماذا سكتوا عن زعم تلقى محمدا عن اليهود والنصارى ولم يؤيدوه بالدليل لقد زعم الزاعمون أن الذى يعلم محمدا هو عبد رومى كان يصنع السيوف فى مكة .

فرد عليهم القرآن الكريم زعمهم قائلا ﴿ **ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين** ﴾[2] .

وحتى المعلومات التى ذكرت فى القرآن وكان لها أصل فى كتب اليهود أو النصارى لم يكن محمد ولا قومه يعلمون شيئا عنها .

ويشير القرآن إلى ذلك بعد كثير من القصص ، فمثلا بعد قصة نوح ﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين** ﴾ [3] .

---

(١) الوحى المحمدى لرشيد رضا ص ١٠٩ ط القاهرة سنة ١٣٥٤ هـ .
(٢) النحل / ١٠٣ . (٣) هود / ٤٩ .

وبعد قصة يوسف يقول القرآن ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون** ﴾ (١) .

كما أن هناك فى قصة آل عمران من أخبار القرآن ما لم يكن يعرفه أهل الكتاب ، فقد ذكر القرآن الكريم بعد قصة زكريا وولادة مريم عليهما السلام وكفالته لها ، قوله تعالى ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون** ﴾ (٢) .

فممن أخذ محمد ﷺ كل ذلك ؟ إنه وحى السماء .

صراع اليهود مع النبى ﷺ :

إن من يتصور مساندة اليهود للرسول ﷺ . فإنما يكون كما قال القائل « متطلب من الماء جذوة من نار » .

لقد بدأ الصراع اليهودى مع الرسول ﷺ منذ أن أرسل الله نبيه محمدا ﷺ بالهدى ودين الحق ، ففى مكة وقف اليهود إلى جانب المشركين يمدونهم بالأسئلة والألغاز التى ليس لها جواب أحيانا ، والمحرجة أحيانا أخرى ، وذلك لإحراج الرسول ﷺ وتعميق الفجوة بين الرسول ﷺ وبين مشركى مكة .

وفى المدينة المنورة أكلهم الحسد والبغضاء ، ونقضوا العهود ، واعتدوا على الحرمات ، ودلوا على عورات المسلمين ، وحالفوا الكفار ، وحاولوا الوقيعة بين المسلمين .

فقد عقد الرسول ﷺ معهم معاهدة أمن وسلام ، ولكنهم نقضوا العهد والميثاق أكثر من مرة ، وقام بنو قينقاع بالاعتداء على امرأة مسلمة محجبة ، وقام بنو النضير بمحاولة اغتيال النبى ﷺ ، وقام بنو قريظة بخذلان النبى ﷺ فى غزوة الأحزاب ، حينما انضموا إلى الأحزاب ضد الرسول ﷺ، فلم ير الرسول ﷺ بعد هذا الغدر والخيانة والاعتداء والتطاول والدس والوقيعة إلّا مقاتلة اليهود وإجلاءهم عن المدينة المنورة .

وقد تجمع فلول اليهود فى خيبر ، فاجتمع الحقد والحسد والقطران فى قلوب الذين سكنوا تلك الديار ، فقاموا بتأليب الأعراب على المسلمين وتغذية حركة النفاق ، كما قامت

---

(٢) الوحى المحمدى ص ١٠٦ . آل عمران / ٤٤ .

امرأة يهودية بمحاولة سمّ الرسول ﷺ بتقديم شاة مشوية وفيها سم زعاف للتخلص من الرسول ودعوته .

لعن القرآن لهم:

لما ظهر الرسول ﷺ ولم يكن من نسل داود ، ضاقت صدورهم ، وتحرك الحقد فى نفوسهم ، وبدأوا الكيد للنبى ﷺ ، وتكذيب دعوته .

قال تعالى : ﴿ **ولما جاءهم كتابٌ من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكفرين** ﴾ (١) .

﴿ **سماعون للكذب أكالون للسحت فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم** ﴾(٢) .

القرآن يفضح التحريف اليهودى :

ودليل ذلك التحريف فى التوراة كما ذكر القرآن الكريم : ﴿ **فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون** ﴾(٣) .

فالتوراة الحالية مليئة بالقسوة والهمجية ، تصف الأنبياء بالفسق والفجور والدعارة ، وتبيح لليهود الغش والسرقة والغدر والمكر والقتل ، وغير ذلك مما احتوته التوراة ، وهذا كله يثبت التحريف الطارئ على التوراة الأصلية ، وأن معظم مافيها من وضع الحاخامات اليهود .

ويعتبر اليهود التلمود مثل التوراة كتابا منزلا ، فهو الوحى غير المكتوب الذى تركه موسى ، وقد وصل بهم الأمر إلى أن فضلوه على التوراة ، ومما يدل على هذا التفضيل قولهم :

« إن من درس التوراة فعل فضيلة لا يستحق عليها المكافأة ، ومن درس المشنا فعل فضيلة استحق أن يكافأ عليها ، ومن درس (الجمارا) فهو أعظم فضيلة » (٤) .

وتعاليم التلمود أكثر خروجا وضلالا من التوراة ، ومما يدل على ذلك :

---

(١) البقرة / ٨٩ .

(٢) المائدة / ٤٢ .

(٣) البقرة / ٧٩ .

(٤) الكنز المرصود فى قواعد التلمود . ص ٤٤ .

يقول الرابى « مناحم » : «إن الله تعالى يستشير الحاخامات على الأرض عندما توجد مسألة معضلة لا يمكن حلها فى السماء » (١) .

« إن تعاليم الحاخامات لا يمكن نقضها ولا تغييرها ولو بأمر الله ! ! ، وقد وقع يوما الاختلاف بين البارى عز وجل وعلماء اليهود فى مسألة ، فبعد أن طال الجدال تقرر فصل الخلاف إلى أحد الحاخامات الرابيين ، واضطر الله أن يعترف بغلطه ، بعد حكم الحاخام المذكور » .

إلى غير ذلك من الأباطيل ، ويعتبر التلمود أخطر وثيقة ضد الإنسانية ، حيث يدعو إلى تحطيم كل العقائد والقيم والحضارات ، لإقامة مجتمع صهيونى يسيطر على العالم بكل وسيلة ممكنة ، ومنها الغش والسلب والنهب والخداع والكذب وغير ذلك .

فقد جاء فيه « أن الإنسان مهما كان شريرا فى الباطن وأصلح نفسه ظاهرا يخلص » .

ويعتبر التلمود غير اليهود كلابا ؛ لأنه مذكور فى سفر الخروج « أن الأعياد المقدسة لم تجعل للأجانب ولا للكلاب »(٢) .

« أقوال الحاخامات أفضل من أقوال الأنبياء ، ويلزمك اعتبار أقوال الحاخامات مثل الشريعة ، لأن أقوالهم هى قول الله الحى ، فإذا قال لك الحاخام إن يدك اليمنى هى اليسرى وبالعكس فصدق قوله ولا تجادل »(٣) .

مراجعات:

فبالله أى هذه الأباطيل قد أخذها الرسول ﷺ منهم ، وقد لعنهم القرآن بعد ما أبان باطلهم وأظهر كيدهم وغدرهم وحقدهم ، وبعد ما نفى القرآن كل هذه التفاهات وجاء بتعاليم المساواة والفضيلة والرحمة للعالمين ، وبعد ما رد الأمر إلى الله سبحانه ، فلا تشريع لأحد إلا لله سبحانه ولا مصدر للشرع إلا القرآن وكلام المعصوم ﷺ وما استنبط منهما من قواعد وأحكام .

---

(١) المرجع السابق ص ٤٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٦ عن كتاب يهودى اسمه (كرافت) مطبوع سنة ١٥٩٠ م .

إن القرآن قد جاء ثورة على كل هذه الأباطيل والخرافات والأهواء وغير فى هذه المفاهيم المتعفنة الحاقدة التى استباحت كل شىء ، وجعل لكل شىء قانونا طاهرا عظيما منزلا من الله سبحانه ، يختلف كل الاختلاف عن هذه الأوهام ، جاء الإسلام بمنهج حياة للجميع تنعم فى ظله البشرية وتسعد فى جواره الإنسانية ؛ لأنه هو الفطرة والهداية والصراط المستقيم .

لقد كان العداء السافر لرسول الله ﷺ وللتعاليم الربانية من قبل اليهود سببا فى تحالف اليهود وهم أهل كتاب مع المشركين الوثنيين ، وكان سببا فى حروب ووقائع بين الجانب المسلم والجانب اليهودى ، وكان سببا للتربص اللئيم والتدبير الشيطانى للإيقاع برسول الله ﷺ ومحاولة قتله ووأد دعوته .

فكيف يكون هذا مساعدة للرسول ﷺ ؟ وكيف يكون هذا اتفاقا مع الرسول وتعاونا معه وتلقينا للتعاليم ومناصرة له ؟

إن هذا لعجيب فى التاريخ وفى الواقع وفى العقل .

ومع هذه المفارقات التى لا يصدقها عقل ولا تاريخ ولا واقع ، يحاول المستشرقون أن يقنعوا بها ، وأن يرددونها ، حتى تكون حقيقة مسلمة ، فأى ضلال هذا وأى بهتان .

ــ يقول « **إدوارد جيبون** » : « إن القرآن الكريم أكبر دليل على وحدانية الله بعد أن نهى عن عبادة الأوثان والكواكب ، وهذا الدين أكبر وأجل من أن تدرك أسراره العويصة عقولنا الحالية »[1] .

ــ أما المستشرق الألمانى « **ولفجانج لانجرميس** » فيقول : « إن القرآن الكريم أكثر الكتب التى تقرأ فى العالم ، وهو أيسرها حفظا ، وأشدها أثرا فى الحياة اليومية لمن يؤمن به ، فليس طويلا كالعهد القديم ، وهو مكتوب بأسلوب رفيع أقرب إلى الشعر منه إلى النثر . ومن مزاياه أن القلوب تخشع عند سماعه ، وتزداد إيمانا وسموا ، وأوزانه ومقاطعه كثيرا ما قورنت بدقات الطبول وأصداء الطبيعة ... ولا يعترف القرآن بأن عيسى هو ابن الله أو أنه قتل مصلوبا .... ويتسم القرآن بطابع علمى وعملى فيما يتعلق بالمعاملات بين الناس وهو فى ذلك يقول :

---

(١) انظر كتاب الديانات والحضارات لطه مدور ط ١٩٥٦ ــ بيروت .

﴿ إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ﴾ [1] وهذا التوفيق بين عبادة الإله الواحد وبين التعاليم العملية جعل القرآن كتابا فريدا ووحدة متماسكة »[2].

ـــ ويقول « جوستاف لوبون » : « إن القرآن كتاب سماوى ولم تكن فيه القوانين الدينية فقط ، بل فيه القوانين السياسية والاجتماعية ، وهو أكبر كتاب حوى ما لم يحوه غيره من الكتب » .

ويقول السير « وليم هيور » : « إن القرآن ممتلىء بالأدلة عن الكائنات المحسوسة والدلائل المعقوله على وجود الله تعالى ، وأنه الملك القدوس ، وأنه سيجزى المرء على عمله . إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وأن اتباع الفضائل واجتناب الرذائل فرض على العالمين ، وأن الواجب على كل مكلف أن يعبد الله وهى علة سعادته » .

ـــ ويقول « سنابس » : « إن القرآن هو القانون العام الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فهو صالح لكل زمان ، فلو تمسك به المسلمون حقا وعملوا بموجب تعاليمه وأحكامه لأصبحوا سادة الأمم كما كانوا من قبل » .

ـــ ويقول « جيبون » : « إن القرآن المجيد ، هو الدستور العام للعالم كافة ، وهو نظام الكون فى المعاد والمعاش ، وبه النجاة الأبدية وحفظ الصحة البدنية والمصالح العامة والشخصية ، وما يترتب من الفضائل الأدبية والإجراءات الجزائية الدنيوية » [3] .

ثالثا: من أقوالهم فى الرسول ﷺ والرد عليهم :

موقف العقل العالمى غير المسلم من الرسول ﷺ وسيرته يماثل موقفهم من الإسلام والمسلمين ، ويمثل هذا الموقف المستشرقون على اختلاف جنسياتهم ونزعاتهم ، ويتشكل هذا الموقف من منطلق دينى صرف مفعم بالتعصب والتشنج والانفعال وعدم الموضوعية والمنهجية السليمة ، وهذا الموقف الكاره الحاقد المتحامل المتعمد للكذب جعل بينهم وبين معرفة الحقيقة التاريخية والعلمية سدودا يصعب اختراقها ، وحجبا يندر تبديدها ، فتركوا أنفسهم لرواسب الماضى السحيق وأحقاد الشعوبيات والقوميات المريضة ، لتهب أعاصير

---

(١) البقرة / ٢٨٢ .

(٢) مجلة المختار مجلد ١٩٥٦ ص ٥٧ مقال (اخترت الدفاع عن الإسلام) .

(٣) انظر فى ذلك مجلة الرسالة الإسلامية . العدد الثانى جمادى الأولى ١٣٩٧ هـ .

مسمومة على العقول الخالية الخاوية من العلم والمعرفة بالإسلام ، وزاد ذلك تفاقما وتعمقا عجز المسلمين عن تبليغ رسالتهم وإيضاح دعوتهم وإعلان عقيدتهم ، وزاد وزاد لهو المسلمين وذهولهم وانخداعهم ، وتتلمذ بعضهم على أيدى هؤلاء الطاعنين الحاقدين ، وتبنى بعضهم لدعاويهم وأفكارهم ، وهـذه هى القاصمـة ، لا هؤلاء المخبـولين الحاقديـن ، ولله در أحمد محرم إذ يقول حانقا على هذا الذهول والتخبط فى المسلمين :

يا قوم هل تعرفون كتابكم | أم ليس فيكم مؤمن يتذكر ؟
عذرا فقد عظم البلاء فهاجنى | حتى لأحسب مهجتى تتفجر
وكأن فى كبدى وبين جوانحى | نارا مؤججة تجيش وتهدر

ثم قال مناجيا ربه للمؤمنين :

يا رب كن للشرق وارزق أهله | فى بنى الدنيا حياة العاملين
وابعث الأقدار سلما فكفى | ما أصابت من شعوب المسلمين
زلزل الشرق قضاء هائل | فتح الأقطار للمستعمريـن
أيضيع الشرق ؟ ويحيا إنه | حرمة الوحى وعهد المرسلين

وسنعرض هنا لبعض الأقوال المتهافتة التى اخترعها المستشرقون والحاقدون على نبى الإسلام ورسالته ، ويظهر من ثناياها لكل ذى عينين مدى الضلال والسفه التى تتسم به .

ــ يقـول « المونيسنيوكـولى » ، فى كتابـه « البـحث عن الديــن الحق » : « برز فى الشرق عدو جديد هو الإسلام الذى أسس على القوة ، وقام على أشد أنواع التعصب ، لقـد وضع محمد السيف فى أيدى الذين اتبعوه ، وتساهل فى أقدس قوانين الأخلاق ، ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب ، ووعد الذين يهلكون فى القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات فى الجنة ، وبعد قليل أصبحت آسيا الصغرى وإفريقيا ، وأسبانيا فريسة له ، حتى إيطاليا هددها الخطر ، وتناول الاجتياح نصف فرنسا » (١) .

ــ ويقول « جوليان » فى كتابه « تاريخ فرنسا » : « إن محمدا مؤسس ديـن المسلـمين قد أمـر أتباعه أن يخضعوا العالم ، وأن يبدلوا جميع الأديان بدينه هو ، ما أعظم الفرق بين هؤلاء الوثنيين والنصارى ! ! إن هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة ، وقالوا للناس أسلمــوا

---

(١) انظر فى ذلك ، الفكر الإسلامى وصلته بالاستعمار الغربى ص ٦٠ وما بعدها .

أو موتوا ، بينما أتباع المسيح أراحوا النفوس ببرهم وإحسانهم ، ماذا كان سيكون حال العالم لو أن العرب انتصروا علينا ؟ إذن لكنا مسلمين كالجزائريين والمراكشيين[1] .

سعار الحقد :

وهذا الكلام المتهافت والتجريح المتعمد مع سبق الإصرار ، يدعونا إلى كشف زيف هؤلاء الجناة ، الدجالين تجار الحروب ، الذين يحاولون إلصاق التهم بغيرهم ليلفتوا الناس عنهم .

إن هؤلاء المستشرقين ما برحت أيديهم ملوثة من دماء الأبرياء الأنقياء المستضعفين .

هؤلاء الجبابرة يعيدون بذلك عهود الظلم الرومانية والفارسية ، التى كانت تستبيح كل شيء فى سبيل ملذاتها الهوجاء ، وهم هم اليوم صناع الدمار وبائعو الأشلاء ومصاصو الدماء ، وما هذا الاتهام الذى يوجه إلى نبى الإسلام اليوم ، إلا محاولة لنفى العفن والتحلل والفساد والتفسخ الذى كان عليه آباؤهم فى الزمن الغابر ، فجاء الإسلام وأزاح ذلك بتعاليمه السمحة ، وأزال الطغاة الجبابرة المتسلطين الذين كانوا يهلكون الحرث والنسل ، وما هذا الاتهام اليوم والتأليب على الإسلام ورسوله إلّا خوفا من أن ينتفض عملاق الحق فينقذ البشرية من سوأة المتوحشين الذين يدعون الحضارة وهى منهم براء .

إن العرب لم يجتازوا جزيرتهم لاستلاب الخزائن العامرة ، بل لهداية القلوب الخراب وتخليص الناس من الوحوش الكاسرة .

إن الدنيا لم تعرف قوانين الأخلاق والمروءة والتسامح إلّا على أيدى هؤلاء الفتية المؤمنة المجاهدة فى سبيل الله ، ولم تعرف البشرية حرية دينية واجتماعية كما عرفتها فى ظل الإسلام ، الذى نادى فى الدنيا بقوله ﴿ **لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى** ﴾[2] ، ولم تعرف الدنيا صاحب خلق وفضل كرسول الله ﷺ الذى شهدت له الدنيا بذلك وذكته السماء فقال تعالى : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾[3] .

ولقد نفى هذا الزعم الذى يزعمه الجاهلون كثير من المستشرقين الذين ما زالت فى نفوسهم بقية من حياء .

---

(١) المرجع السابق ــ ومناهج المستشرقين ــ ١ / ١٤١ ، ١٥٦ .

(٢) البقرة / ٢٥٦ .   (٣) القلم / ٤ .

ــ يقول المستشرق الألمانى « **رودى بارت** » فى كتابه « محمد والقرآن :

« لقد كان محمد فى حقيقة أمره إنسانا متدينا ، وفى تدينه يكمل مفتاح تفهم شخصيته .... » ثم يقول : « لم يكن محمد برسالته واضعا أمام عينيه أهدافا أنانية قبلية كانت أو عائلية ... وقد جعل محمد من نفسه متحدثا باسم معرفة إلهٰية موحدة صافية ، ودعا إلى أخلاق دينية حقيقية ، وكان لابد له بالضرورة أن يتجاوز إطار المعرفة الكهنوتية المعتادة ، وهكذا كان أبعد الناس من أن يكون كواحد من أرباب الفراسة أو العرافين أو السحرة ، ولكى نعبر عن هذه الحقيقة فى شكل تناقض نقول : لقد كان محمد قبل أن يعرف شيئا على الإطلاق عن النبوة قد بدأ من وجهة نظر موضوعية فى أن يكون نبيا » (١) .

ــ يقول « **توماس كارليل** » فى كتابه « عبادة الأبطال » باللغة الفرنسية وترجم إلى عدد كبير من اللغات ، وترجم « محمد السباعى » الجزء الخاص بالرسول فى مجلة البيان : « إنى لأحب محمدا لبراءة طبعه من الرياء والتصنع ، غير طامح إلى ما يطمح إليه أصاغر الرجال من مرتبة أو سلطان أو شهوة ، أخرج الناس من الظلمات إلى النور » .

أما الفرق بين المسلمين وغيرهم الذى يصفهم المستشرق الماجن بالوثنيين والهمج ، فقد قال عنهم « **جوستاف لوبون** » يقارن بينهم وبين أضرابهم من الأوربيين فى زمن واحد يقول جوستاف لوبون :

« بلغت بغداد ذروة الرخاء فى عصر هارون الرشيد (٧٨٦ م ــ ٨٠٩ م) وابنه المأمون (٨١٣ م ــ ٨٣٣ م) وصارت أهم مدن الشرق ، وذاع صيت الرشيد فطبق الآفاق فأرسلت بلاد التتر والهند والصين رسلا إلى بلاطه ، وأرسل صاحب الحَوْل والشوكة الإمبراطور (شارلمان) الذى كان يملك ما بين المحيط الأطلنطى ونهر الألب ، وهو الذى لم يملك غير ناس من الهمج وفداً ليبلغ الرشيد أطيب تحياته ويلتمس منه الحماية لحجيج القدس ، فأجابه الرشيد إلى سؤاله ، ورد إليه وفده مع ثمين الهدايا ، ومن بينها فيلٌ مجهزٌ بأفخر جهاز ، والفيل كانت تجهله أوربة ، ولآلىء ، وجواهر ، وحلىّ ، وعاج ، وعطور ، ونسائج حريرية ، وساعة دقاقة ، فقضى إمبراطور الغرب شارلمان العجب من تلك الساعة هو وحاشيته المتبربرون الذين لم يكن بينهم من قدر على إدراك كنهها ، والذين

---

(١) محمد والقرآن ــ ص ٥١ .

حاول (شارلمان) عبثا أن يحملهم على إحياء حضارة الرومان »[1] .

أما الوحشية التى يدعيها المستشرق اللئيم للمسلمين فهى ليست إلا سمة من سمات قومه فى القديم والحديث .

ـــ فى أثناء الحرب العالمية الثانية فى حرب الصحراء الكبرى ، انهزم الألمان ومن عادة المنهزم أن يزرع الألغام بالأرض قبل انسحابه ، حتى يعطل الجيش الغازى ، وينسحب ، ولتحدث أكبر خسائر فى صفوف العدو ، وكان من المعتاد بالنسبة للحلفاء المنتصرين ، أن يطلقوا على الأقل قطيعا من الحمر أو الجمال المستنفرة على حقول الألغام فداء للبشر فتموت الحمير والجمال وتقل الخسائر إلى أقل حد ممكن ـــ أما فى تلك المعركة فقد أطلقت القوات الإنجليزية الفيلق الهندى فى جيشها ليفجر حقول الألغام أمام الجنود البيض ـــ بدلا من الحمير والجمال ، وانتصر الحلفاء وصدر البلاغ الحربى ـــ انتصرنا على قوات العدو واستولينا على طبرق ، خسائرنا قليلة . فنى الفيلق الهندى عن آخره ! ! ! [2]

هؤلاء هم قومك المتحضرون الهمج أيها المستشرق فاقد الضمير .

طوفان الحقد على صاحب الرسالة:

لم تجتمع سيول من الحقد أو أعاصير من الهدم مثل ما اجتمعت على رسول الله ﷺ من قبل هؤلاء الضالين المفترين ، وما ثبت أحد أمام هذه الجبال من الأكاذيب مثل ما ثبت تاريخ الرسول وسيرته ورسالته ، لقد بددت أضواء التعاليم وأنوار الهداية كل جحافل الظلام والبهتان ووصلت إلى القلوب والأرواح والعقول فأنارتها وطهرتها وهدتها إلى الصراط المستقيم .

وسنعرض لجانب من هذا الطوفان المهزوم ، حتى نرى آثار الحقد والزور والبهتان فى قلوب الضالين والمغضوب عليهم من الأشقياء الجائرين .

العمل بالعفوية والعاطفة :

لم يتورع المفترون أن يصفوا الرسول ﷺ بنقيض ما كان يعمل ﷺ ، فيطلقون

(١) حضارة الغرب جوستاف لوبون ص ٢١٥ ط عيسى الحلبى .

(٢) واقعنا المعاصر ـــ ٥٩ .

عليه أنه كان خيالى النزعة ، عاطفيا ، يعمل حسب الظروف ، تتحكم فيه أسباب نفسية وقبلية .

ـــ يقول « **نولدكه** » : « كان النبى لا يتحرج فى اختيار الوسائل التى تضمن له النجاح والظفر فى الوقت الذى كان خياليا ، ولم يكن له سلطان على خياله وعواطفه » .

نقول : نعم كان الرسول ﷺ يختار الوسائل الصحيحة التى تؤدى إلى أن تفوز دعوة الإيمان ، وتصل إلى قلوب الناس ، ولكن من غير إثم ولا طريقة فجة أو قبيحة .

روى البخارى ومسلم وأبو داود والموطأ عن عائشة رضى الله عنها قالت : « ما خير رسول الله بين أمرين قط إلّا اختار أيسرهما مالم يكن إثما ، فإن كان إثما كان أبعد الناس عنه ، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه فى شىء قط إلّا أن تنتهك حرمة الله فينتقم » (١) .

أما أنه كان عاطفيا رحيما فنعم ، وقد وصفه الله بذلك ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم** ﴾(٢) .

وروى الإمام مسلم عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : « ما ضرب رسول الله ﷺ شيئا قط بيده ، ولا امرأة ولا خادما ، إلّا أن يجاهد فى سبيل الله ، وما نيل منه شىء قط فينتقم من صاحبه إلّا أن ينتهك شىء من محارم الله » (٣) .

وروى أبو داود والترمذى عن أنس رضى الله عنه : « ما رأيت رجلا التقم أذن النبى ﷺ فينحى رأسه ، وما رأيت رجلا أخذ بيده فترك يده حتى يكون الرجل هو الذى يدع يده » (٤) .

وروى البخارى عن أنس قال : « كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت » (٥) .

---

(١) البخارى ٦ / ٤١٩ فى الأنبياء ، مسلم رقم ٢٣٢٧ فى الفضائل ، الموطأ ٢ / ٩٠٣ حسن الخلق ، أبو داود رقم ٤٧٨٥ فى الأدب .

(٢) التوبة / ١٢٨ .

(٣) مسلم / رقم ٢٣٢٧ .

(٤) أبو داود رقم ٤٧٩٤ ، الترمذى ٢٤٩٢ . حسن .

(٥) البخارى ١٠ / ٤٠٨ فى الأدب .

أما إنه ﷺ كان خيالى النزعة ، فهذا شيء لا أرى له توجيها إلا إذا كان يقصد أنه ﷺ كان ينظر بنور الله سبحانه ، وكان يطلعه الله على الغيب مصداقا لقوله تعالى : ﴿ **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا . إلا من ارتضى من رسول** ﴾ (١) .

أما قول المستشرق « أنه ليس له سلطان على عواطفه » فهذا محض اختلاق ليس عليه دليل ، فقد كان رسول الله ﷺ أقوى الناس نفسا ، وأبعدهم عن الشهوة الحرام ، يطوع نفسه ﷺ حسب تعاليم ربه ومرضاته ، وكان ﷺ أملك الناس لنفسه وأكثرهم قناعة وكبحا لشهوته .

روى الترمذى عن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبا ، فقلت : لا يارب ، ولكن أشبع يوما ، وأجوع يوما ، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك » (٢) .

وروى البخارى ومسلم والترمذى ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : « ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس » (٣) .

وروى البخارى ومسلم والترمذى ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه فى المال ، فلينظر إلى من هو أسفل منه » (٤) .

أرأيت كيف كان ﷺ أملك بشر لنفسه على ظهر الأرض ، وأملك لشهوة الدنيا وزهرتها ، هذا هو المنهج العلمى الذى لا يعوزه الدليل .

أما قول المستشرقين : « إن الرسول ﷺ كان يتحرك حسب الظروف الراهنة ووفق مستلزماتها » فهذا لا يعيب الرسول ﷺ ما دام فى طريق سليم ، وهدف سامى ، نحو غاية كريمة ، ليكون الدين كله لله ، بل هذا مما يدل على رجاحة عقل ، وحنكة وفهم ، وبصر بالأمور ، واتباع للأسباب التى أمرنا الله سبحانه باتباعها ، وفتح للبصر والبصيرة التى هى من مستلزمات النصر والعبرة .

---

(١) الجن / ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) أخرجه الترمذى فى الزهد برقم ٢٣٤٨ ، وقال الترمذى حديث حسن .

(٣) البخارى ١١ / ٢٣١ ، ٢٣٢ فى الزمان ، ومسلم رقم ١٠٥١ فى الزكاة ، والترمذى رقم ٢٣٧٤ .

(٤) البخارى ١١ / ٢٧٦ فى الرقاق ، ومسلم رقم ٢٩٦٣ ، والترمذى رقم ٢٥١٥ .

أما إذا قصد بهذا التنازل عن المبادىء والغايات والتعاليم فى سبيل مكاسب مادية أو رياسية ، فالرسول ﷺ أبعد الناس عن ذلك ولو وضعوا الشمس فى يمينه والقمر فى يساره ، وقد أمر بأن يصدع بالحق ﴿ **فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين** ﴾ (١) .

﴿ **وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾ (٢)هذا هو رسول البشرية وقدوة الإنسانية وهادى الناس إلى طريق مستقيم .

إسقاط الفضائل وتحكيم الوضعية العلمانية :

يحاول بعض المستشرقين أن يسلبوا فضل رسول الله ﷺ . ويقطعوا صلته وتلقياته الإلهية ، وتوجيهه الربانى ، واستعانته بتوفيق الله سبحانه وتعالى ، عن أعماله وسيرته ﷺ وأن يسقطوا الوضعية العلمانية على الوقائع التاريخية للسيرة النبوية ، محاولين بذلك اتباع مناهج مغلوطة تثبت ما فى نفوسهم من مرض ، فزادهم الله مرضا .

ــ ولقد أصاب الدكتور « **سنوك هيرغرنجة** » بقوله : « إن سيرة محمد الحديثة تدل على أن البحوث التاريخية مقضى عليها بالعقم إذا سخرت لأية نظرية أو رأى سابق . هذه حقيقة يجمل بمستشرقى العصر جميعا أن يضعوها نصب أعينهم ، فإنها تشفى من داء الأحكام السابقة التى تكلفهم من الجهود ما يجاوز حد الطاقة فيصلون إلى نتائج لاشك خاطئة ، فقد يحتاجون فى تأييد رأى من الآراء إلى هدم بعض الأخبار الصحيحة ، وهذا ليس بالأمر الهين ، ثم إلى بناء أخبار تقوم مقام ما هدموا ، وهذا أمر لا ريب مستحيل .

إن العالم فى القرن العشرين يحتاج إلى معرفة كثير من العوامل الجوهرية ، كالزمن والبيئة والإقليم والعادات والحاجات والمطامح والميول ... إلخ ، لاسيما إدراك تلك القوى الباطنة التى لا تقع تحت مقاييس المعقول ، والتى يعمل بتأثيرها الأفراد والجماعات » .

ثم يقول « **اتيين دينيه** » : « مارأى الأوربيين فى عالم من أقصى الصين يتناول المتناقضات التى تكثر عن مؤرخى الفرنسيين ويمحصها بمنطقها الشرقى البعيد ، ثم يهدم قصة (الكردينال ريشيليو) كما نعرفها ، ليعيد لنا ريشيليو آخر له عقلية كاهن من كهان بكين وسماته وطباعه !؟

---

(١) الحجر / ٩٤ . (٢) الكهف / ٢٩ .

إن مستشرق العصر الحاضر قد انتهو إلى مثل هذه النتيجة فيما يتعلق برسمهم الحديث فى سيرة الرسول ﷺ، حتى ليخيل إلينا أننا نسمع محمدا يتحدث ، فى مؤلفاتهم ، إما باللهجة الألمانية أو البريطانية أو الفرنسية ولا نتمثله قط — بهذه العقلية والطباع التى ألصقت به — يحدثنا عربا باللغة العربية .. إن صورة النبى الجليل ﷺ التى خلقها المنقول الإسلامى تبدو أجل وأسمى إذا قيست بهذه الصور المصطنعة الضئيلة التى صيغت فى ظلال المكاتب بجهد جهيد »(1) .

إن « **دينيه** » يوضح صورا كثيرة من الشرود الذى وقع فيه المستشرقون ، ومن الخبايات التى يرتكبها من يدعون البحث عن الحقائق ، من توهين أخبار صحيحة لا تخدم أغراضهم ، واختراع وتلفيق أخبار أخرى لتوافق أهواءهم ومصالحهم ، ثم يبين حقيقة يجب لفت الأنظار إليها .

وهى : أنهم يريدون الرسول — عادته وسيرته ورسالته — تبعا لهواهم وباطلهم الذى درجوا عليه ، سواء كان الباطل بريطانيا أو نصرانيا أو فرنسيا أو ألمانيا ، وكأن الحق هو مايقولون والباطل هو مالا يحبون ولا يشتهون ﴿ **ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن** ﴾(2) .

أباطيل :

إيضاحا لما قدمنا من محاولة سلب الفضائل والطاقات الحيوية الإيمانية عن الرسول والإسلام ، نرى ما يقوله بعض المستشرقين من الخرافات فى هذه الجوانب مثل :

١ — أن النصر الذى صاحب رسول الله ليس له فضل فيه ، وإنما جاء بسبب تفرق القبائل وعدم اجتماعها على حربه ، ولو اجتمعت لكان النصر حليف المشركين .

٢ — سبب خضوع الأنصار فى المدينة لرسول الله ﷺ هو أنهم كانوا يشتاقون إلى كاهن يجمع كلمتهم ، ولم يكن دخولهم عن اقتناع بالإسلام .

٣ — سبب الهجرة إلى المدينة وإلى الحبشة كان لخلافات ظهرت ، بين المسلمين ، فباعد

---

(1) دينيه : محمد رسول الله . المقدمة ص ٤٣ — ٤٤ وانظر : مقدمة عبد الحليم محمود للكتاب ص ٢٧ — ٢٨ .
(2) المؤمنون / ٧١ .

الرسول بينهم بالهجرة .

٤ ــ كان دين الرسول ﷺ محليا ، ثم أغراه الفتح والتوسع بجعله عالميا .

إلى غير ذلك من الأقوال المغلوطة المختلقة على السيرة والتاريخ الإسلامى .

فأما عن انتصار الرسول ﷺ فقد قال « نولدكه » :

« لو أن القبائل العربية استطاعت أن تعقد بينها محالفات حربية دقيقة ضد محمد للدفاع عن طقوسهم وشعائرهم الدينية، والزود عن استقلالهم . لأصبح جهاد محمد ضدهم غير مجد ، إلا أن العجز العربى عن أن يجمع شتات القبائل المتفرقة قد سمح لمحمد أن يخضعهم لدينه، القبيلة تلو الأخرى ، وأن ينتصر عليهم بكل وسيلة ، فتارة بالقهر والقوة وتارة بالمحالفات الودية والوسائل السلمية »[1] .

وبتدبر هذا النص نجد أنه يشير إلى أمور يجب الوقوف عندها منها :

أولا : التحسر على ضياع الوثنية وذهاب طقوسها وشعائرها ، والغضب من هؤلاء الذين لم يستطيعوا أن يقفوا فى وجه الإيمان والرسول صاحب الرسالة ، وهذا الحزن الظاهر والبادى فى النص يوحى بأن هناك تعاطفاً ظاهراً بين المستشرقين وبين الوثنية وضلالها ، بل بين ما يخالف الإيمان ويضاد الهداية ، وكأنهم شياطين .

ثانيا: إرجاع سبب النصر للمؤمنين إلى تفرق العرب وعدم اتحادهم فى مواجهة الرسول وصحابته ، بدون النظر إلى عقيدة وإيمان ، وتبدل الحال لهؤلاء المؤمنين المدافعين عن عقيدة ، يريدون رفع كلمة الإيمان والموت فى سبيلها ، ثم كيف يتناسى هذا المستشرق الهمام اتفاق المشركين على حرب الرسول ﷺ ، بل واتفاق اليهود معهم كذلك ، حتى توحدت قوى الشرك على رسول الله وصحبه الأبرار .

ألم يسمع عن غزوة الأحزاب ، وتجمع المشركين فى الجزيرة مع قريش ، وكذلك اليهود ضد رسول الله والصحب المؤمن ، ثم على المسلمين من بعده فى حروب الردة ، أظنه سمع ولكنه لا ينطق بذلك هو وأضرابه ، ويكتمون الحق وهم يعلمون .

ثالثا : يريد أن يتناسى هؤلاء وأن يصرفوا الناس عن الدين الجديد ، والحيوية فيه ،

---

(١) تاريخ العالم للمؤرخين ٨ / ١١ ، وفتحى عثمان : أضواء على التاريخ الإسلامى ص ١٧٠ .

وقدرته على بعث الطاقات الكامنة ، وعن العقيدة الدافعة التى يتمتع صاحبها بتأييد الله وتوفيقه ، بإظهار أن هذه أمور طبيعية تخضع لأسباب عادية فقط لا دخل لها بإيمان ولا باستعداد روحى أو نفسى أو إيمانى ، وهذا ما يكذبه الواقع الذى هز التاريخ وشهد به القاصى والدانى ، وشهد به هذا المستشرق نفسه بعمله هذا ، وبادعائه الذى بين أيدينا ولفته الناس فيه عن الإسلام ، والتهوين من شأنه خوفا منه ، وصرفا للناس عن حيويته وطاقاته الخلّاقة المبدعة .

كما أنه يريد أن يظهر أن الإسلام قد انتشر بالسيف لا بالإقناع والحجة والبيان ، وهذا شىء يجافى الواقع التاريخى ويخالف الحقيقة عن الإسلام فى شتى بقاع المعمورة .

يقول الأستاذ « مونتيه » بكلية جنيف عند عرضه لحاضر العالم الإسلامى ومستقبله فى محاضرته :

« إن الإسلام ينتشر فى أفريقيا بنفسه ، بواسطة المسلمين أنفسهم ، لأن كل مسلم فى البلاد الوثنية داعية دين بحد ذاته » .

ثم يقول : « إن الإسلام ينتشر بنفسه بواسطة القوافل التى ترحل فى البلاد الوثنية أو الفيشية ، ودعاة الإسلام لما عرفوا به يعمدون إلى ذرائع مختلفة تناسب كل حال بحسب الأقطار والشعوب التى يبثون دعوتهم بين أهلها »(١) .

ـــ وقد تحدث « **رينيه ميليه** » عن انتشار الإسلام فى محاضرة فى باريس سنة ١٩٠٨ فقال : « إنى لا أريد أن أذكر انتشار الإسلام ، لأنه الدين الوحيد الذى ينتشر ويزداد أهله بسرعة فى آسيا وأفريقيا ، فى حين أن الأديان الأخرى بقيت واقفة عند حد محدود لا تتجاوزه البتة وقد أصبحت المسألة لا نزاع فيها »(٢) .

كثيرا ما انتصر الإسلام وهو أعزل ؛ لأن عنصر القوة كامن فى طبيعته ، كامن فى بساطته ووضوحه ، وشموله ، وملاءمته للفطرة البشرية ، يلبى حاجاتها الحقيقية ، ويستعلى على العبودية للظلم والقهر والجبروت ، يرد الإنسان إلى إنسانيته ، ويحلو فى فمه وواقعه .

ومن أجل هذه السلطة يطلقون عليه حملات الافتراء ، والتشويش ، والخداع ،

---

(١) مجلة القبس م ٦ ص ٣٧١ .

(٢) محمد فى مكة ص ٩٢ ـــ ٩٣ .

والقمع ، والإرهاب ، والإبادة !! ليستريح الاستعمار العالمى والصهيونية والصليبية الحاقدة من هذا المناضل العنيد .

دخول الإسلام المدينة :

أما عن سبب دخول الإسلام المدينة فيقول المستشرق « **كايتانى** » : « إن سكان المدينة رضوا بمحمد ككاهن أعلى فقط ؛ لأنهم كانوا بحاجة إلى الاستقرار الداخلى فى المدينة ، وليس لأنهم يقبلون تعاليم القرآن بأكملها »

ولا يدرى الإنسان ، أى إنسان قرأ سيرة رسول الله ﷺ، من أين استقى هذا المستشرق البحاثة هذه المعلومات عن أهل المدينة ؟

إن أهل المدينة عرفوا رسول الله من أول يوم التقوا به ، وقال بعضهم لبعض : اعلموا والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود ، فلا يسبقنكم إليه »[1] .

بيعة العقبة الأولى :

ثم كانت بيعتهم لرسول الله ﷺ فى العقبة الأولى واضحة على تعاليم الإسلام :

عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه ــ قال : بايعت رسول الله ﷺ فى رهط فقال : « أبايعكم على أن لاتشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصونى فى معروف ، فمن وفّى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا فأخذ به فى الدنيا فهو كفارة له وطهور ، ومن ستره الله فذلك إلى الله : إن شاء عذبه ، وإن شاء غفر له »[2] .

وقد أرسل معهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير ليعلمهم الإسلام ، فأسلم الكثير منهم .

بيعة العقبة الثانية :

ثم جاء من أسلم من الأنصار ليبايعوا الرسول فى بيعة العقبة الثانية ، فتكلم الرسول ﷺ فيهم وتلا القرآن ، ودعا إلى الله ورغب فى الإسلام ثم قال : « أبايعكم على أن تمنعونى

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ / ٤٢ .

(٢) فتح البارى (١٢ / ١٠٨) .

مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، وأن تقولوا الحق ولا تخشوا فى الله لومة لائم ، وأن تنفقوا فى اليسر والعسر ، وأسألكم لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا » قالوا : فما لنا على ذلك ؟ قال : « الجنة » .

وفى رواية جابر بن عبد الله رضى الله عنه ، قال : قلنا يا رسول الله علام نبايعك ؟ فقال : « تبايعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل ، والنفقة فى العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأن تقولوا فى الله لا تخافوا لومة لائم . وعلى أن تنصرونى فتمنعونى إذا قدمت عليكم ، مما تمنعون منه أنفسكم وأبناءكم وأزواجكم ولكم الجنة »[1]

ثم كانت الهجرة ، وكان الإيثار الذى أشاد به القرآن فى قوله تعالى : **﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾**[2] .

وكانوا هم عصبة الإيمان ، وحملة مشاعل النور فى مشارق الأرض ومغاربها .

فكيف يقول ضال حاقد أن أهل المدينة كانوا لا يريدون الإسلام وإنما يحتاجون إلى كاهن يحفظ النظام ، لقد كانت القبائل العربية تأنف أن تولى غيرها رياسة عليها ، حتى لا تعير بذلك ، ولم يثبت التاريخ غير ذلك فى واقعة واحدة ، ولكنها الرسالة والنبوة والهداية التى خضع لها الجميع وكونت دولة الإيمان على الأخوة والتقوى والإيمان .

الهجرة والخلاف بين المسلمين :

ويقع المستشرقون فيما لابد أن يقعوا فيه من التهافت ، والجهل ، والافتراضات القائمة على غير دليل ، فيرجعون الهجرة إلى المدينة والحبشة إلى أسباب بعضها صحيح لا يركزون عليه ، وبعضها ضال يفيضون فى بيانه وإيضاحه .

ورغم أن المستشرق « **منتجمرى وات** » له بعض المواقف المعقولة إلا أنه يقع فيما وقع فيه غيره ، فنراه يقول فى تحليل أسباب الهجرة إلى الحبشة وبقاء المسلمين هناك ردحا

---

(١) فتح البارى جـ ٨ ص ٢٢١ .

(٢) الحشر / ٩ .

طويلا ، ويضطرب بين خمسة أسباب :

أولها : الهروب من الاضطهاد .
وثانيها : البعد عن خطر الارتداد .
وثالثها : ممارسة النشاط التجارى .
ورابعها : السعى للحصول على مساعدة حربية من الأحباش .
وخامسها : وهو الأدهى والأمر : أنه نشأ خلاف بين الأمة الإسلامية الناشئة ، فأبعد الرسول ﷺ فريقا إلى الحبشة حتى يتخلص من النزاع .

ويقول « وات » : « فى ذلك يبدو أن إقامة خالد بن سعيد الطويلة فى الحبشة تشير إلى أنه كان على خلاف مع محمد فى سياسته ، وأنه لم يوافقه على التوجيه السياسى المتزايد للإسلام ، ولا على أهمية الدور السياسى لمحمد بسبب نبوته ، ولو أن خالداً اهتم بالنواحى السياسية للرسالة لدفن خلافه مع محمد ، وعاد إلى مكة قبل السنة السابعة للهجرة »(١) .

ويدعى « وات » حدوث خلاف بين الرسول ومؤيديه ومنهم أبو بكر ، وبين خالد ابن سعيد ومهاجرى الحبشة من جهة ، فأوعز الرسول ﷺ إلى مخالفيه هو وأبى بكر الذى كانت له مكانة قوية عند الرسول بالهجرة إلى الحبشة تفاديا للأخطار التى قد تنجم عن هذا الخلاف .

خطأ هذا التفسير :

وتفسير الهجرة على هذا الشكل الأهوج شىء يثير الأعصاب الباردة ؛ لأنه يبتعد عن المنهج العلمى وعن التصور العقلى وعن الواقع العملى : وقد يكون العنصران الأول والثانى لهما من السند والعقل ما يبررهما .

ولكن تصوير المؤمنين المهاجرين بدينهم تجاراً نازحين للإكساب والإثراء شىء يدعو إلى الدهشة ، هؤلاء الذين تركوا ديارهم وأرضهم وأموالهم وخرجوا فراراً بدينهم لا يبغون إلّا وجهه سبحانه ، تحول هذه الغاية إلى رحلة تجارية ، وكأنها امتداد لرحلة الشتاء والصيف القرشية المكية ، وتصور على أنها مسيرة ارتزاق وغنى وهروب من جوع الصحارى والقفار !!

---

(١) محمد فى مكة . ص ٢١٣ ــ لوات .

ماهذا إلا للتوهين من شأن هذه التضحية الجليلة ، والقدوة الحية التى أنارتها العقيدة ، وأشعلها الإسلام فى قلوب الصحب المؤمن .

وأما تصور المؤمنين كسفراء يبحثون عن معونات عسكرية من هنا أو هناك ، فشىء يحمل روح السياسة الاستعمارية التى يدور فى فلكها هؤلاء المستشرقون وعصر النزاعات الحزبية أو القومية التى تسيطر على عقولهم ، وأفكارهم ، وهى فكرة قديمة تدور مع الصراعات الجاهلية والمظالم العالمية .

عودة على بدء ، فليس الأمر أمر نصر عسكرى بقدر ما هو تبليغ للهداية ، ونشر للرسالة ، وتربية للقلوب والعقول ، وبعث للهمم ، وأن الذى كان المسلمون فى حاجة إليه هو حماية للدعوة من الاضطهاد ، وحماية للأفراد من العذاب الأليم ، حتى تبلغ الدعوة ، وتصل إلى شغاف القلوب ، وحتى يفتح الله عليها بالمسلمين أنفسهم ، ويأتى الاستخلاف من الله ، فالرسول ﷺ كان لا يستعين بمشرك ولا ينتصر فى الدفاع عن الإسلام بكافر : وإنما كان ينتصر بجند الإيمان ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا** ﴾[1] .

ثم ماهو السند الذى يستدل به على ذلك ، والأخبار والوقائع كلها تؤيد غير هذا ، وتلفت النظر إلى السبب الحقيقى للهجرة ، فقد أدرك الرسول ﷺ بعد سنتين من الدعوة أنه لا قدرة له على حماية المسلمين ، وأن المجتمع الوثنى ماض فى اضطهادهم وفتنتهم عن دينهم ، فرأى أن يحفظ اللبنات المسلمة من التمزق والانهيار حتى يأتى دورها فى العمل فى ساحة الصراع المحتوم ، فأشار على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة « فإن بها ملكا لا يظلم أحد عنده » حتى يجعل الله للمسلمين فرجا مما هم فيه ، فاستجاب له المسلمون ، وخرج عدد منهم من مكة صوب الساحل كى تقلهم سفن مؤجرة إلى الحبشة ، وخرج نفر من قريش فى آثارهم فلم يدركوهم ، وكان هدفهم معروفا وهو الحفاظ على دينهم وعقيدتهم ، والدعوة إلى الدين الجديد ، ولا مانع أن يكسب كل مسلم قوت يومه الذى يقيم أوده ، حتى لا يكون عالة على الناس ، ويواصل دعوته وحفظ ماء وجهه ، وقد أثمرت دعوتهم فأسلم

---

(١) النور / ٥٥ .

النجاشي ملك الحبشة وغيره من الأحباش ، وغاظ قريشاً نجاح الدعوة وأمنها فى الحبشة فأرسلوا رسلهم للوقيعة بين النجاشى وبين المسلمين ، وكانت حجة قريش فى ردهم حجة الخروج على الطاعة والإتيان بدين يخالف دين الآباء ، وهى حجة تخالف مفهوم المستشرقين تماما ، والذى يظهر لنا أن المستشرقين كانوا يفهمون غرض المؤمنين أكثر من القرشيين والمؤمنين أنفسهم !!

يروى ابن هشام فى السيرة : أن قريشا بعثت عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة إلى الحبشة يحملان الهدايا للنجاشى ولبطارقته وقالا له : « إنه لجأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردوهم إليهم » فمال إلى تسليم المهاجرين بعض بطارقة النجاشى ، أما النجاشى فقد غضب وقال : لا والله ، إذن لا أسلمهم ، قوم جاورونى ، ونزلوا بلادى ، واختارونى على من سواى ، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم » .

وما لبث النجاشى أن دعا المهاجرين لحضور مجلسه ، وعندما سألهم عن طبيعة الدين الذى دفعهم إلى مفارقة قومهم ، تقدم جعفر بن أبى طالب وقال : « أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنعبده ونوحده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانات ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولانشرك به شيئا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعدا علينا قومنا ، فَعذَّبُونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ، ورجونا ألَّا نظلم عندك أيها الملك » .

فطلب منه النجاشى أن يقرأ عليه شيئا مما جاء به الرسول ﷺ عن الله ، فتلا عليه صدر سورة مريم ، فبكى النجاشى حتى اخضلت لحيته ، وبكت أساقفته حتى اخضلوا

مصاحفهم ، وقال النجاشى « إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكما »(١) .

هذا هو حديث المهاجرين عن أنفسهم يعلنون عن أسباب هجرتهم فى بيان واضح جلى ، أفلا يكفى هذا صناع الأكاذيب وأصحاب التنظير والتقعيد والافتراء ؟

وأما عن موضوع الخلاف بين الرسول وبين المهاجرين فهو موضوع تفوح فيه رائحة التلفيق والتزوير ، الذى يظهر حجم الوقاحة والجرأة على الكذب الصراح ، كيف تكون هناك معارضة للرسول فى بدء الدعوة ، والقرآن ينزل ، والرسول هو المعلم والمربى ، وكيف هو رسول يشرد الناس فى الأرض لعداوات وخصومات ، ثم إن ابنة رسول الله ﷺ وزوجها عثمان بن عفان وجعفر ابن عمه من المهاجرين للحبشة ، هل كانت بنت رسول الله ﷺ تعارضه كذلك هى وزوجها وابن عمه جعفر ، ولقد عزم أبو بكر نفسه على الهجرة لولا أن أجاره بعض زعماء قريش ، ثم رأينا كيف أرسلت قريش فى طلب المهاجرين من النجاشى أكانت تقصد بذلك أن تصلح بينهم وبين رسول الله ﷺ ، أم ماذا ؟!!

ثم رأينا كلام جعفر بن أبى طالب الذى روته كتب التاريخ جميعها ، ورأينا فرح الرسول ﷺ برجوع مهاجرى الحبشة كثيراً ، حتى أنه قبل زعيمهم جعفر بن أبى طالب واحتضنته قائلاً : « ما أدرى بأيهما أنا أسر ، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر » .

وكان عدد العائدين من الحبشة قريبا من العشرين رجلا وعدداً من النساء والأطفال الذين ولدوا هناك ، فضلا عن بعض الأرامل اللواتى توفى أزواجهن أيام الإقامة فى الحبشة ، وكان بعض المهاجرين قد غادر الحبشة فى بداية عهد المسلمين بالهجرة إلى المدينة ، فمات بعضهم فى مكة ، واعتقل البعض الآخر ، وتمكنت فئة ثالثة من اللحاق بالمدينة والاشتراك فى معركة بدر وما تلاها من مواقع(٢) .

عالمية الرسالة :

ندع هذه المغالطات التى فندت ، وننظر إلى لون آخر من تزوير الحقائق ، وتضليل الأجيال ، وتحريف الكلم عن مواضعه لخدمة الاستعمار وبث الأحقاد ، ولتوهين أمر الرسالة

(١) ابن هشام ص ٧٥ – ٧٦ . اليعقوبى : تاريخ ٢ / ٢٣ – ٢٤ الروضة الأنف .

(٢) انظر ابن سعد فى الهجرة إلى الحبشة ، ومحمد فى مكة ملحق (و) ، (ز) ودراسة فى السيرة ص ٨٤ .

وصاحبها وأمر المسلمين ، و للتفلت من اتباع المعطيات الإلهٰية الصحيحة والسير على الطريق المستقيم حتى يظل الإشعاع الإلهٰى حبيسا لا ينفذ إلى الناس فيفضح المارقين .

فعندما أغار الاستعمار على العالم الإسلامى كان عقله الظاهر والباطن ولسانه طافحين بالحقد على الإسلام وأمته ، ومستغرقين فى المكر بهذا الدين والقضاء عليه ، وكان اتجاهه إلى الاغتيال الكامل لهذه العقيدة ، أو التهيئة لذلك بالتشكيك والتوهين حتى تحين الفرصة للخلاص منها .

ومن هذا التوهين ما يدعيه بعض المزورين من المستشرقين — ومنهم « السير وليم ويـر » — أن الرسول ﷺ لم يكن يدور فى خلده وهو فى مكة أن يمد بصره برسالته إلى غير أهلها ، وإنما بدأ يفكر أن يتجاوز بها قريشا ، ثم يجاوز بها العرب إلى دعوة أهل الكتاب ، ثم يجاوز بها الجزيرة العربية إلى ما وراءها ، كل هذا وأولئك بعد أن أغراه النجاح الذى ساقته الظروف إليه !!

والحق أن الرسالات قبل الإسلام كانت محلية قومية محدودة بفترة من الزمن — ما بين عهدى رسولين — وكانت كل رسالة توصل إلى الأخرى ، وتؤهل لها ، حتى جاءت الرسالة الأخيرة كاملة فى أصولها قابلة للتطبيق المتجدد فى فروعها ، وجاءت للبشر جميعا ؛ لأنه ليس هناك رسالات بعدها للأقوام والأجيال فى كل مكان ، وجاءت وفق الفطرة الإنسانية التى يلتقى الناس عندها جميعا ، ولهذا تولى الله حفظها ، ولم يترك حفظها إلى الناس علماءً أو غير علماء ، مصداقا لقوله تعالى ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾(1) .

وقد أوضح الله سبحانه وتعالى ذلك لرسوله وللناس من أول الطريق ، وبين سبحانه أن الرسالة عالمية عامة للناس كلهم وذلك فى العهد المكى : قال تعالى :

١ — ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا** ﴾(2) .

٢ — ﴿ **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا** ﴾(3) .

---

(1) الحجر / ٩ .   (2) سبأ / ٢٨ .   (3) الفرقان / ١ .

٣ ــ ﴿ **قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا** ﴾[١] .

٤ ــ ﴿ **قل الله شهيد بينى وبينكم وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ** ﴾[٢] .

٥ ــ ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾[٣] .

هذه الآيات التى يؤمر الرسول فيها بتبليغ الرسالة إلى الناس جميعا ، هى آيات مكية فى سور مكية ، فهم ذلك الصحابة والسلف الصالح والأمة الإسلامية .

قال ابن كثير : « هذه الآيات خطاب للناس جميعا الأحمر والأسود ، العربى والعجمى ، وهذا من شرفه وعظمته ﷺ ، لأنه خاتم النبيين ، وأنه مبعوث إلى الناس كافة لقوله تعالى :

٦ ــ ﴿ **ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده** ﴾[٤] ، وقوله تعالى :

٧ ــ ﴿ **وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ** ﴾[٥] والآيات فى هذا كثيرة »[٦] .

وقال الآلوسى فى روح المعانى : « أمر ﷺ بأن يصدع بما فيه تبكيت لليهود الذين حرموا اتباعه ، وتنبيه لسائر الناس على افتراء من زعم منهم أنه ﷺ مرسل للعرب خاصة ... وذلك ببيان عموم رسالته ﷺ وهى عامة للثقلين »[٧] .

وقال الشوكانى فى فتح القدير عن ابن عباس : بعث الله محمدا إلى الأحمر والأسود ، والأحاديث فى ذلك كثيرة »[٨] .

وقال القرطبى فى الجامع لأحكام القرآن : « قال مقاتل : من بلغه آية من القرآن من الجن والإنس فهو نذير له » ، وقال أيضا : « من بلغه القرآن فكأنما قد رأى محمداً ﷺ وسمع منه »[٩] .

---

(١) الأعراف / ١٥٨ . (٢) الأنعام / ١٩ .

(٣) الأنبياء / ١٠٧ . (٤) هود / ١٧ .

(٥) آل عمران / ٢٠ . (٦) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٥٤ ط المعرفة بيروت .

(٧) تفسير الآلوسى ــ روح المعانى م / ٩ ص ٨٢ ط الفكر . (٨) فتح القدير ٢ / ٢٥٥ .

(٩) الجامع لأحكام القرآن جـ ٦ ص ٣٩٩ ط دار الكتب .

وقد صرح الرسول ﷺ بعموم الرسالة فى كثير من الأحاديث :

ـــ روى البخارى فى حديث طويل فى أبى بكر . « هل أنتم تاركو لى صاحبى ؟ إنى قلت يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ، فقلتم كذب ، وقال أبو بكر صدقت »(١) .

ـــ وقال ﷺ: « أعطيت خمسا لم يعطهن نبى قبلى « بعثت إلى الناس كافة الأحمر والأسود ، ونصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهوراً ، وأعطيت الشفاعة فأخرتها لأمتى يوم القيامة فهى لمن لا يشرك بالله شيئا »(٢) .

ـــ وروى مسلم عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من سمع بى من أمتى أو يهودى أو نصرانى فلم يؤمن بى لم يدخل الجنة » وفى رواية « والذى نفسى بيده لا يسمع بى رجل من هذه الأمة يهودى أو نصرانى ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار »(٣) فكيف بعد هذا يستسيغ عاقل أن يقول بعدم عموم الرسالة من أول يوم .

وقد استنكر هذا جماعة من المستشرقين الذين لم يجدوا مبرراً أو سندا لهذا القول المتجنى الكاذب :

ـــ يقول « **أرنولد** » : « لم تكن رسالة الإسلام مقصورة على بلاد العرب ، بل للعالم أجمع نصيب فيها ، ولم يكن هناك غير إلٰه واحد ، كذلك لا يكون هناك غير دين واحد يدعى إليه الناس كافة »(٤) ، ويؤيد هذا الرأى « جولدزيهر ، ونولدكه ، وسخاو » .

ـــ ويقول : « **سخاو** » ويؤكد : « إن الرسالة الإلهية ليست مقصورة على العرب بل إن إرادة الله تشمل جميع المخلوقات ، ومعنى ذلك خضوع الإنسانية كلها خضوعا مطلقا وقد كان لمحمد بوصفه رسولا من الله حق المطالبة بهذه الطاعة ، وقد كان عليه أن يطالب بها ،

---

(١) البخارى ٧ / ١٧ / ١٨ باب فضائل الصحابة .

(٢) رواه أحمد بسند جيد والبخارى ومسلم ١ / ٣٦٩ ، م / ٥٢١ .

(٣) مختصر مسلم ـــ م ١ / ٩٣ للمنذرى ، وصحيح مسلم برقم ١٥٣ فى الإيمان .

(٤) محمد فى مكة ص ٩٤ .

وهذا ما ظهر من أول الأمر جزءاً لا ينفصل من جملة ما أراد تحقيقه من مبادىء »[1].

مكمن القوة والخطر :

والواقع أن قول « سخاو » قد أبان الحقيقة وكشف عنها ، ففضح من حيث يدرى أو لا يدرى أغراض المستشرقين ، وهى خوفهم من حق الرسالة فى إخضاع العالم للدين القيم إذا لم يتم تحويلها عن غايتها وقصرها على العرب فقط ، فهم بهذا يجهدون أن يحجموا العملاق الإسلامى ، وأن يوجهوا أنظار العالم عن هذه الحقيقة ، وأن يشوشوا على المسلمين كذلك ، ويبعدوهم عن هذا الفهم وهذه الريادة التى يتولونها بحكم انهم أمة رسول الله الخاتم صاحب الرسالة العامة ، والذى قلدهم القرآن والرسول الدعوة إليها بقوله ﴿ **قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين** ﴾[2] .

﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾[3] .

﴿ **لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا** ﴾[4] .

وهم بهذا يريدون تحجيم الرسالة ، وإلغاء فريضة الجهاد والدعوة إلى الله فى أنحاء المعمورة ، وتبليغ الناس هذا الهدى ليكون الدين كله لله ، وإبعاد النور الذى يجب أن يزحف على العالم فيزيل البهتان ، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد .

ذيول وخدم:

وليست البلية فى أن يرصد أهل الكتاب كيدهم كله لهذا الدين وأهله ، وأن يكون المستشرقون ـــ الذين يكتبون مثل هذا الكذب ـــ هم طليعة الهجوم على هذا الدين وأهله ، فهم أعداء ، وهذا ماينتظر من العدو .

ولكن البلية الكبرى أن كثيرا من السذج الأغرار ممن يسمون أنفسهم بالمسلمين ،

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٥٣ ، ٥٤ ، مناهج المستشرقين جـ ١ ص ١٣٤ .

(٢) يوسف / ١٠٨ . (٣) آل عمران / ١١٠ . (٤) البقرة / ١٤٣ .

يتخذون من هؤلاء المزورين على نبيهم ودينهم ، المحاربين لهم ولعقيدتهم ؛ أساتذة ، يتلقون عنهم فى هذا الدين نفسه ، ويستشهدون بما يكتبون عن هذا الدين وحقائقه ، بل قد يتبنون آراءهم وينسبونها إلى أنفسهم ليظهروا أمام الناس بأنهم رواد فكر جديد وفهم جديد ، ويزعم هؤلاء السذج المخدوعون ، للناس ولأنفسهم ، أنهم مثقفون !!

وقد استمات المستشرقون فى تربية هذه الأجيال التابعة الذليلة وتصديرهم ذيولا مدجنين مخدرين طلائع لهذا الانهزام المر ، بدعوى الإصلاح فى وقت عصيب ، فتصاب الأمة ببلايا كثيرة منها : تشعب الطرق ، ولفت الناس عن الدواء الصحيح ، ومحاربة الحق ، وإيجاد مبرر للتسيب وعدم الجد والقيام بالتبعات ، وإفساح المجال للاستعمار الثقافى ، والوهن ، والتخلى عن دور الريادة والصدارة . والفصل بين المسلمين وبين القرآن والسنة ، أو انحراف الفهم عنهم .

طلائع الهدم :

وقد نلاحظ اليوم بين الحين والحين نفس الدعوى ينادى بها وللأسف نفر من المثقفين المسلمين المستغربين ، منهم الدكتور « محمد أحمد خلف الله » : الذى يعلن أن الإسلام ليس إلا نظاما دينيا للأمة العربية نزل من السماء ليكون بديلا عن الأنظمة الأخرى التى كانت الأمة العربية تمارسها ، ثم قال : « إن الإسلام جرب أولا فى جزيرة العرب وحين نجحت التجربة خرج به الذين جربوه إلى أمم أخرى غير العرب » فقد قصر بذلك التوسع فى المفهوم الإسلامى وإخراجه إلى العالم على أتباع الرسول وليس على الرسول كما يقول المستشرقون ، فأضاف شيئا جديدا فكأنه مستشرقا أكثر من المستشرقين .

ثم قال فى مَقَالٍ لَهُ موضحا فكرته ، ومبينا أن عالمية الرسالة ليست من عند الله ولا يليق به سبحانه وتعالى ذلك ، فقال مانصه : « لا يليق أبدا بالمولى سبحانه وتعالى أن يضع لغير العرب شريعة باللسان العربى المبين »[1] وقد تولى الأستاذ « فهمى هويدى » نقل رأى « خلف الله » والرد عليه ومكملا ما سبق من واقع مما ذكر فى مقاله السابق ومحاضرته فى الكويت سنة ١٩٨٢ فى رابطة الأدباء بعنوان « العروبة والإسلام » ، ومحاضرته التى ألقيت فى ندوة فى بيروت سنة ١٩٧٨ بعنوان « العروبة والإسلام علاقة جدلية » ونشرت فى كتاب

---

(١) جريدة الأهرام ١٦ / ٩ / ١٩٨٧ م .

الندوة ص ٣٢ وما بعدها ، ونشر فى الوطن الكويتية بتاريخ ٢٧ / أكتوبر سنة ١٩٨٧ العدد « ٤٥٥٦ » ، وقد تولى الرد على « خلف الله » الأزهر وكثير من العلماء ، فى جريدة الأهـرام القاهرية وغيرها فى شهر ٩ سنة ١٩٨٧ وما بعده ، وتوالت الردود عليه فى العالم الإسلامى ، ولسنا الآن فى مقام الرد عليه وإنما فى مقام ضرب المثل على تبنى هذه الأفكار لأعداء الأمة الإسلامية والزيادة عليها إن أمكن ، وبيان إفساح المجال لهؤلاء وتبنيهم فى غفلة من المسلمين ، وهذا وأمثاله هو ما أهاج شوقى رحمة إلى بكاء هذا الحال ، فقال مناجيا رسول الله ﷺ :

شعوبك فى شرق البلاد وغربها كأصحاب كهف فى عظيم سبات
بأيمانهم نوران ذكـر وسنــــة فما بالهم فى حالك الظلمات

ولكن الذى يلفت النظر تلك الجرأة الغريبة على إنكار النصوص على عالمية الرسالة من القرآن ، ومن السنة ، ومن أقوال العلماء من سلف الأمة على مدار التاريخ الإسلامى ممن يدعون أنهم مسلمون وينتمون إلى الإسلام « ألا يفتح هذا الباب لتجريح الاعتقاد » لمن يقول بتلك الآراء منكرا معلوما من الدين بالضرورة ، وألا يفتح هذا الباب للفتنة التى تجر إلى تصرف من الغيورين الذين يتهمون بالتطرف ، فتشغل الأمة عن جلائل الأعمال أم أن الانحراف هذا شىء مراد ولو ضحى فى سبيله بكل شىء !! ؟

« فياله من عمل صالح يرفعه الله إلى أسفل »

أم أن أولى الأمر فى الأمة يريدون دائما أن يشيّعوا بما لا يحبون ويذكروا بما يكرهون كأمثالهم .

لتبك على الفضل بن مروان نفسه
فليس له باك من الناس يعرف
لقد صحب الدنيا منوعا لخيرها
وفارقهـا وهـو الظلـوم المعنـف
إلى النار فليذهب ومن كان مثله
على أى شىء فاتنا منه ناسف

السحر والدجل :

الأحقاد والأضغان كثيرا ما تفعل فعلها فى عقول أصحابها وألسنتهم وخيالاتهم ، وحينما نسمع إلى الأغاليط الجديدة من الحاقدين نعرف مقدار الحقد على ديننا وعقيدتنا بل وكياننا ، ولا يكفى أبدا أن نتعامى أو نتغابى عن أشياء يجب الحذر منها ومعالجتها فى رؤوس أصحابها ، ووضع الصورة الصحيحة بَدَلاً منها ، ومن يستطيع أن يضع تلك الصورة إلا الواعين الباحثين .

وفى الحقيقة يجب تبديل الصورة القائمة عن الإسلام فى رؤوس المجتمع العالمى إذا أردنا دعوته واحترامه لنا أو تأييده ، فضلا عن دعوته إلى الإسلام ، أما أن يظل الإعلام اليهودى الحاقد الغازى الطافح بشهوة الإبادة للمسلمين ، والإعلام الصليبى الأسير لرواسب الماضى الهالع والمشبع بالأضغان والكراهية يعمل عمله والمجتمع الإسلامى غافل وفى سبات عميق ، أو فاقد للوعى والإدراك ، فهذا شىء يدعو إلى الجزع والهلع .

إن العقلية العالمية مختلطة بإيحاءات مضللة اكتشفها غيرنا بل اكتشفها نفر من المحسوبين على المستشرقين أنفسهم .

يقول « منتجمرى وات » فى كتابه أثر الحضارة الإسلامية العربية على أوربا « بعض المعلومات تصل إلى الأوربيين عن الإسلام بالتأكيد مشوهة ومشوبة بمعطيات خاطئة ، فقد كان ينظر إلى المسلمين على أنهم قوم وثنيون يعبدون محمدا ، أما محمد نفسه فكان الأوربيون يعتبرونه ساحرا ، أو حتى شيطانا وهو ما تؤكد عليه الكلمة الإنجليزية M ohonnd (بالاسكوتلاندية : الشيطان) التى كانت تشويها لاسمه ، وكانوا يظنون أن الدين الإسلامى يدعو إلى الإباحية الجنسية »(1) ثم يقول : « وغالبا ما كانت الآيات القرآنية تترجم بصورة غير صحيحة ، بحيث تدخل عليها مسوح جنسية ذميمة لم تكن لها ، كما قالوا إن القرآن يسمح باللواط ووجد بعض المؤلفين آية قرآنية تبيح الزنى على حد زعمهم ، ويقولون إن محمدا ليس نبيا وإنما هو دجال وأن المسلمين يجب أن يصنفوا مع الوثنيين »(2) .

---

(1) أثر الحضارة الإسلامية العربية على أوربا ص ١٤٤ .

(2) المرجع السابق ص ١٤٩ .

ثم يرد الرجل فى كتابه « محمد فى مكة » عن هذه الأباطيل فيقول : « إن عزيمة محمد فى تحمل الاضطهاد من أجل عقيدته والخلق السامى للرجال الذين آمنوا به ، وكان لهم بمثابة القائد والمثل . وأخيرا عظمة عمله فى منجزاته الأخيرة ، كل ذلك يشهد باستقامته التى لا تتزعزع ، فاتهام محمد بأنه دجال Impestour يثير من المشاكل أكثر مما يحلّ ، ومع ذلك فليس هناك شخصية كبيرة فى التاريخ حط من قدرها فى الغرب كمحمد ، فقد أظهر الكتاب الغربيون ميلهم لتصديق أسوأ الأمور عن محمد ، وكلما ظهر أى تفسير نقدى لواقعة من الوقائع ممكنا قبلوه .

فإذا أردنا أن نصحح الأغلاط المكتسبة فى الماضى بصدده ، فيجب علينا فى كل حالة من الحالات ، لا يقوم الدليل القاطع على ضدها أن نتمسك بصلابة بصدقه ، ويجب علينا ألّا ننسى أيضا أن الدليل القاطع يتطلب لقبوله أكثر من كونه ممكنا ، وأنه فى مثل هذا الموضوع يصعب الحصول عليه »(١) .

ونقول : إن الحق مهما طال الزمن فهو الحق ، ولابد أن يظهر لكل ذى عينين ، ولكن : من الملام ومن المسئول عن هذا التقصير الإعلامى ، فضلا عن الإهمال الدعوى ؟ وإذا كان المجتمع المسلم أصبح لا يغار على سب دينه ، وعقيدته ، وسب رسوله ، وعلى تصنيفه مع الوثنيين والمتوحشين ، وهو هو ، حامل الحضارة إلى الدنيا ، ومحرر العالمين!؟ فى حين أنه لو سب صاحب رياسة من هذه الرياسات الدنيوية لقامت الدنيا وقعدت ، ولكن يبدو أن الأمر أصبح كما يصوره القائل :

يقاد للسجن إن سب المليك   وإن سب الإلـٰه فإن الناس أحرار .

الإسلام فى العقل البلشفى :

أما الروس فإنهم قد أطلقوا لأنفسهم العنان فى التخيل والشطط والتأويل والتمزيق ، حتى أصبحت وقائع السيرة فى واد وهم فى واد آخر ، وحتى لقد وصل الأمر بهم أن يتساووا مع المجانين فى الهذيان وفقدان العقل ، وكمثال على تخبط هؤلاء فى كثير من أحكامهم ننظر إلى بعض من أقوالهم :

(١) محمد فى مكة لمنتجمرى وات ص ٩٤ .

« لقد رأى بعضهم أن المجتمع العربى (فى مكة والمدينة) شهد بداية تكوين مجتمع يمتلك الرقيق ، بينما يرى (بيجولفسكايا) أن القرآن يشعر بتركز مرحلة مكية الرقيق ، ويذهب (بلاييف) إلى أن المرحلة الإقطاعية هى من آثار اتصال العرب بالشعوب الأخرى ، هذا ويرى آخرون أن المجتمع الإقطاعى بدأ بالتكون فعلا فور ظهور الإسلام .

ويتبع هذا قلق فى التفكير وفى التفسير ، فمنهم من يرى أن الإسلام يلائم مصالح الطبقات المستغلة الجديدة من ملاك وارستقراطية الإقطاع مثل (كليمو فيج) .

ومنهم من يقول عكس هذا فيرى الإسلام فى مصلحة أرستقراطية الرقيق فقط .

ومنهم من يرى غير ذلك مثل (بلاييف) الذى يرى أن الإسلام الممثل بالقرآن لا يلائم المصالح السياسية والاجتماعية للطبقات الحاكمة ، ولذلك لجأ أصحابه إلى الوضع فى الحديث لتسويغ الاستغلال الطبقى الجديد»[1] .

والملاحظ أن التخبط السوفيتى الفكرى تتقاذفه هواجس الإقطاع والأرستقراطية وطبقات الرقيق والمستغلين إلى غير ذلك ، وكلما عثروا على خبر أو واقعة ممكن أن يفهم منها شيئا ينال من الإسلام فى نظرهم سارعوا إلى الحكم بها ، إرضاء لنوازع معينة ، وأهواء شتى تتحكم فى مسارهم وحياتهم على حد سواء ، بغير نظر إلى دليل أو حجة أو منهج علمى معين .

هل الرسول شخصية حقيقية :

ويضطرب الموقف بالنسبة للرسول والإسلام ذاته عند السوفيت البلاشفة اضطرابا كبيرا فى وجود الرسول وحقيقة الإسلام ذاته ، فيدعى (كليمو فيج) أن محمدا ﷺ واحدا من عدة أنبياء ظهروا وبشروا بالتوحيد ، ويقصدون (توحيد القبائل) فى حين يذهب (تولستوف) إلى نفى وجود النبى العربى عليه السلام ويعده شخصية أسطورية ثم يقول : « إن الإسلام نفسه نشأ من أسطورة صنعت فى فترة الخلافة لمصلحة الطبقة الحاكمة ، وهى أسطورة مستمدة من اعتقادات سابقة تسمى الحنفية »[2] لايخفى على أى عاقل هذا الهراء وهذه السذاجة والاستخفاف بالعقول ، وبالقيم العلمية ، وبالتاريخ ، وبالحقائق الثابتة ، مما لا يجعل لهذه الآراء الشاردة أى قيمة علمية على الإطلاق .

(١ ، ٢) انظر فى ذلك : تفسير التاريخ عبد العزيز الدورى ورفاقه ص ١٤ ، ١٦ .

الإسلام مجموعة من الصراعات :

ثم يصور بعض البلشفيين الإسلام على أنه مجموعة من الصراعات النفسية والطبقية والاتفاقات الحزبية على مصالح مراكز القوى فى شعب معين ، ويقترب هذا النوع من الباحثين كثيرا بمن على شاكلتهم من المستشرقين الغربيين والرهبان الكنسيين الحانقين على الإسلام والمسلمين ، أصحاب التفسيرات المادية المتهافتة لوقائعه وحوادثه ، فيكونوا بحق ممثلين متمرسين للكهنوت المادى البلشفى .

فيقول أحد أبناء الفكر المادى البلشفى « بندلى جوزى »[1] محللا بعض مواقف رسولنا عليه أفضل الصلاة والسلام : « إن سياسة النبى مع المكيين قد تغيرت كثيرا فى المدينة تحت تأثير عوامل جديدة ، ولأسباب عديدة ، أوجدتها الظروف وأدى إليها الاختيار ، وحب النبى لوطنه الأصلى وأهله وذويه ، إلى غير ذلك من الانفعالات النفسية والعوامل السياسية ، التى ظهرت بعد مواقع (بدر وأحد وحصار المدينة) وكان من نتائجها أن النبى أخذ يلطف من سياسته نحو إخوانه المكيين ، كما أن أصحاب السلطة فى مكة رأوا بعد ما أصابهم فى موقعة بدر وبعد ما لحق بتجارتهم من الخسائر ، أن يتساهلوا فى أمور كثيرة مع النبى على شروط تضمن بقاء الكعبة والحج وعكاظ على ما كانت عليه قبل الإسلام ، وأن يشملهم بالعفو ويشركهم فى عمله الجديد الذى أخذوا يتوقعون منه خيراً . وربما كان من شروط التفاهم أن يبقى النبى فى المدينة وألا يتعرض فى كلامه لأمورهم المالية ، فكانت الحديبية وسياسة (تأليف القلوب) أو بعبارة أخرى سياسة التسامح والتساهل المتبادل .

فصار الناس (يدخلون فى دين الله أفواجاً) لا عن اعتقاد فى صحة الدين الجديد الذى لم يكونوا يعرفون عنه إلا الشىء القليل ، بل عن رغبة فى التقرب من أصحاب السلطة الجدد ، وحفظا لمراكزهم القديمة وثروتهم المجموعة فى أجيال» .

ويقول جوزى : « إن من جملة الشروط التى اتفق عليها الطرفان فى الحديبية أو فى زمان أو مكان آخرين أن يكفّ النبى عن الطعن فى الملأ المكى ، وألا يحرضوا صعاليك

---

(١) بندلى جوزى ١٨٧١ ــ ١٩٤٢ نصرانى ، شيوعى ، من أهل القدس ، تخصص فى قازان باللغات السامية والدراسات الشرقية ، وتولى التدريس فى معهد الرهبان ثم فى جامعة قازان ثم فى جامعة باو إلى أن توفى ، وقد عده المستشرقون الروس مرجعا من مراجعهم : انظر كتاب المستشرقون : نجيب العتيقى ٣ / ٩٣١ .

العاصمة الحجازية وأرقائها عليه ، وهذا على ما يظهر لى أحد أهم أسباب خلو السور المدنية وسيما تلك التى نزلت فى الدور الأخير من العبارات القارصة والطعن فى سكان مكة ، وهناك سبب آخر لايقل خطورة عن الذى ذكرناه الآن ، وهو أن حالة النبى الاجتماعية فى المدينة تغيرت كما هو معلوم ، تغيرا ظاهرا أدى إلى تغيير نفسيته .

فكان من نتائج هذا التغيير ومن الأسباب التى ذكرنا بعضها وغيرها مما لم نذكر ؟ أن بعض إصلاحات النبى الاجتماعية والدينية جاءت مبتورة وفيها شيء مما يقوله الأوربيون »[1] .

ويمضى « بندلى جوزى » ، إلى القول : « إن الدور المكى كان دور تمهيد واستعداد ، دور بث دعوة جديدة بين طبقات الأمة ، ودور حرب ونزاع كلامى بين رجل ثابت فى مبادئه مخلص فى عمله وبين طبقة من الناس شعرت بالخطر على ثروتها وزعامتها فى البلاد فهبت تقاوم ذلك الرجل وتناوئه : دور جهود وأحلام لو تحققت كلها لقلبت البلاد كلها رأسا على عقب ، ما أجمل هذا الدور وما أعظمه وما أحلى تلك الأحلام والمساعى التى بذلت فى تحقيقها ، وأما الدور الثانى فكان دور عمل وتنظيم ، ودور هروب وافتتاحات ، ودور سياسة ومكاشفات أدت إلى تساهل من الطرفين ، ومعنى التساهل فى مثل هذه الثورات الاجتماعية هو التنازل عن بعض مطالب أو مبادئ أو تلطف فى الطلب ، والرجوع عن بعض الأفكار ، أو وضعها فى قالب يرضاه الفريقان ، وهذا ما كان من أمر النبى العربى ورئيس جمهورية مكة أبى سفيان ، الخبير المحنك الذى كان يتكلم بلسان الملأ المكى ، هذا يعترف بسيادة النبى الروحية والعالمية ويهجر الأوثان ويؤدى الزكاة ويقيم الصلاة ، وذاك يتعهد أن تبقى مكة مركز البلاد العربية الدينى ، وأن يجعل لأعيان مكة وقادة أفكارها حظا فى إدارة المملكة ، أو الجمهورية الزوحية الجديدة ، وأن يتركهم وشأنهم يتاجرون ويعيشون كما يشاءون ، أما الفريق الثالث الفقراء وهو الطرف الذى استعرت الحرب لأجله وظهرت الدعوة لتحسين أحواله فقد أرضوه فى بادئ الأمر بشيء من الصدقات والزكاة ، ثم نسوه أو تناسوه بعد وفاة النبى ﷺ وخلفائه الأولين ، فرجع إلى حالته الأولى بل إلى ماهو أسوأ منها »[2] .

---

(١) من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام ص ٤٩ — ٥٠ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٥١ ، ٥٢ .

الخروج عن كل القيم والمناهج العلمية :

هذا الكلام الخارج على المنطق والعقل هو غاية ما يمكن أن يصل إليه إنسان لا يحترم نفسه وعقله ، وهذا العبث الصريح بالوقائع والحقائق العلمية يمثل كارثة فكرية تتعرض لها الإنسانية ، ويشارك فيها عصابات السلب والنهب لمقدسات الأمم وتراث الشعوب ، ماهذا الهذيان ؟ الرسول أسطورة ، والإسلام أسطورة !! أيّ أسطورة يتكلم عنها هؤلاء المجانين ، أهم فى كوكب غير هذا الكوكب ؟ أم فى عالم غير هذا العالم . لقد قام الإسلام بإحياء الدنيا زمانا يربو على الألف عام ، وقامت تعاليم القرآن الموحاه على هذا الإحياء إلى اليوم ، وقد ملأ الفكر الإسلامى بسنده مكتبات الدنيا وبيوتها وصدورها ، وأجمعت الدنيا متواترة أخبارها على ظهور الرسول ﷺ ومعايشته للناس وجهاده فى سبيل الله وبلاغه للقرآن الكريم والدعوة المباركة ، ورصد أقواله وأفعاله وتقريراته وصفته الخلقية والخلقية مما يغنينا عن الرد على هذا العواء الأهوج ، ويحق لنا أن نتساءل أيحق للإنسان أن يعارض كل الناس وكل الحقائق ، وكل المناهج العلمية ، وكل الدلائل والقرائن ، ثم يدعى أنه عاقل يسمع له قول ويحترم له نطق .

ثم نرى البعض الآخر يعترف بالرسول والإسلام ، أو يسايرنا فى اعترافنا ثم يبدأ يفسر الحوادث على وفق شهواته وشهوات أسياده ، فيتصور معاهدات الصلح فى الحديبية تنازلات إسلامية لإرضاء قريش على حساب الدعوة الإسلامية وحساب المبادىء والأهداف ، ويوزع الأسلاب أو المنافع والرياسات والمنح على الرؤساء القرشيين تبعا لمكانتهم وتبعا لمراكز القوى المختلفة ، وفى النهاية يفوز محمد ورؤساء قريش ، ويضيع المستضعفون الفقراء الذين قسموا لهم بعض الصدقات ذرا للرماد فى العيون ، وتتبلور القصة فى الصراع الذى دائما تدور حوله الشيوعية . ويدور الأمر على نحو معين وينتهى إلى تقسيم الأمور على النحو التالى بعد تنازلات محمد عن دعوته ، حبا فى قومه وشفقه عليهم ، فهو لم يقصد فى الحقيقة إزالة الشر بقدر ما يقصد الإخضاع والرياسة ، وتؤول الأمور فى الاتفاق إلى مايلى :

الفريق الأول : محمد ومن معه : يكفوا عن سب الآلهة وسب الملأ المكى ، وتكون لهم السيادة الروحية .

الفريق الثانى: قريش : الكف عن تحريض صعاليك الحجاز على محمد : ويكون

لهم بقاء الكعبة والحج وعكاظ والسيادة السياسية فى إدارة الجمهورية الجديدة والحرية المالية .

الفريق الثالث : الفقراء : الخضوع التام ، ويجعل لهم بعض الصدقات والمعونات ولا طمع لهم فى شىء بعد هذا ، ولم يلبث هذا الحق أن منع بعد الرسول ﷺ .

ولا أدرى أى الأمور الإسلامية فى العقيدة أو الأخلاق أو الغايات تنازل عنها رسول الله ﷺ ، وشروط صلح الحديبية متواترة بنصوصها الحرفية فى كافة المصادر والمراجع ، ولم يكن فيها هذا الهراء ثم ما هى الرياسة التى أخذتها قريش وولاهم إياها رسول الله ﷺ فى حياته أو للمشركين فيمن بعده ، ومبدأ الرياسة الكفاءة والدين واختيار الأمة وليس بالطلب ، لقوله ﷺ « لا نستعمل على عملنا من أراده » أخرجه مسلم .

وقوله ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة « يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها » رواه مسلم .

ونسوق حادثة واحدة لعلها تغنى عن الرد المطول :

« عن الحسن قال : حضر باب عمر بن الخطاب رضى الله عنه سهيل بن عمرو ، والحارث وبلال ، وتلك الموالى الذين شهدوا بدرا ، فخرج آذن عمر فأذن لهم ، وترك هؤلاء . فقال أبو سفيان : لم أر كاليوم قط ، يأذن لهؤلاء العبيد ونحن على بابه لا يلتفت إلينا ؟

فقال سهيل بن عمرو ، وكان رجلا عاقلا : أيها القوم إنى والله لقد أرى الذى فى وجوهكم إن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم ، دعى القوم ودعيتم ، فأسرعوا وأبطأتم فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم ؟ أما والله لما سبقوكم إليه من الفضل مما لا ترون أشد عليكم فوتا من بابكم هذا الذى كنتم تنافسونهم عليه . قال : ونفض ثوبه وانطلق »[1] .

فأين هى سطوة زعماء قريش التى يدعيها هؤلاء البلاشفة ؟ وأين هى مكانتهم المزعومة التى يحاول أصحاب الوهم التاريخى أن يثبتوها ، وأن ينسجوا حولها قصة التنازلات ؟

أما قصة الفقراء العامة الذين أعطوا شيئا من الصدقات ثم منعت عنهم ورجعت

---

(١) صفة الصفوة ١ / ٧٣٢ .

مكانتهم إلى ما كانت عليه من هضم للحقوق ومنع للمعونات ، فهذه فرية مفضوحة .

فما كان الخليفة إلا راعيا للفقير ، ومحافظا على مصالحه ، ومقيما للعدل بين الناس ، وحافظا للحقوق ، وحاميا للأمة ، أما إنه كان محافظا على الحقوق حاميا للعدالة فلقوله تعالى ﴿ **يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعو الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا** ﴾[1] ﴿ **ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع** ﴾[2] .

وقد قال ﷺ « إن الله يملى للظالم ، فإذا أخذه لم يفلته »[3] ونرى أبا بكر الصديق رضوان الله عليه يقول فى أول خطبة له : « أيها الناس إن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ له بحقه ، وإن أضعفكم عندى القوى حتى آخذ منه الحق »[4] .

وأما عن إعانته للضعيف فقد كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، يحلب للحىّ أغنامهم ، فلما بويع له بالخلافة قالت جارية من الحى : « الآن لا تحلب لنا منائح دارنا ، فسمعها أبو بكر رضى الله عنه فقال : بلى ! لعمرى لأحلُبنها لكم ، وإنى لأرجو أن لا يغيرنى ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه » . وأما عن منع الزكاة عن الفقراء ، فنحن نعلم موقف أبى بكر وقتاله من أجلها ومازالت إلى اليوم فريضة لازمة وركن من أركان الإسلام ، وقد ظلت العدالة وبقى العطف على الفقير سمة من سمات المجتمع المسلم ، وعلامة صحية على سلامة القائمين عليه على مر الدهور .

فى عام ١٠٠ من الهجرة أى منذ ثلاثة عشر قرنا ، شكت جارية سوداء تسمى فرتونة إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بأن لها حائطا قصيرا يقتحم منه عليها السارق ، فيسرق دجاجها ، فأرسل عمر فورا إليها يخبرها أنه أرسل إلى والى مصر يطلب إليه أن يصلح لها حائطها ، ويحصن لها بيتها ، وكتب إلى واليه فى مصر أيوب بن شرحبيل : أن فرتونة مولاة ذى أصبح قد كتبت إلى تذكر قصة حائطها ، وأنه يسرق منه دجاجها وتسأل تحصينه لها ! !

---

(١) النساء / ١٣٥ .

(٢) غافر / ١٨ .

(٣) البخارى ٨ / ٢٦٧ مسلم (٢٥٨٣) .

(٤) صفة الصفوة ١ / ٢٦٠ .

فلما وصل الكتاب ركب الوالى بنفسه إلى الجيزة ليسأل عن فرتونة حتى عثر على محلها ، فإذا هى سوداء مسكينة ، فأعلمها بما كتب به أمير المؤمنين وحصن لها بيتها (١) .

هذا هو الإسلام ، وهذه هى سمته ، ولكن أنى لأصحاب الأغراض الخبيثة أن يعرفوا الحياء ، وقد صدق القائل :

إذا لم تخش عاقبة الليالى ولم تستحْيِ فاصنع ما تشاء
فلا والله ما فى العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء
يعيش المرء ما استحيا بخير ويبقى العود ما بقى اللحاء (٢)

وهذا هو عمل الأعداء وشأنهم ، ولكن كيف بمن يقلدونهم ، ويسيرون على دربهم ، ويعملون عملهم ، ويواصلون مهمتهم من الخونة والجاهلين ، وصدق القائل :

قد كان ثم أبو رغال واحد واليوم آباء الرغال كِثار

(١) من روائع حضارتنا للسباعى ص ٧٢ .
(٢) بصائر ذوى التمييز ٢ / ١٥٥ .

الفصل الرابع

الحاقدون والمتربصون من الساسة

المبحث الأول

التعاون بين المستشرقين والساسة

من المعلوم الجلى الذى ظهر لكل ذى لب أن المستشرقين عملوا عيونا لرجال السياسة فى الغرب والشرق ، وبدراستهم لأحوال الأمم والشعوب ، ولأخلاقهم وعقائدهم ، كانت توضع الخطط لاستغلال الشعوب واستعمارها عسكريا وفكريا وثقافيا ، كما كانت تسخر معلوماتهم لمكافحة التوجهات التحررية والتقدمية فى الأمم ، وهذا واقع مؤلم ، أن تتطوع العقول التى تدعى الحضارة والعلم والتقدم بكامل حريتها وإرادتها لقهر الشعوب وامتهان الإنسانية ، وسرقة مقدرات الأمم وتركها نهبا للضياع والحرمان .

ومن بين الأمثلة العديدة المختلفة نذكر أمثلة من هذه الوفود الكوالح ، والعقول والضمائر الخربة ، التى ساهمت فى إيذاء المسلمين :

يقول المستشرق الألمانى « أوليريش هارمان » : « كانت الدراسات الألمانية حول العالم الإسلامى قبل عام ١٩١٩ أقل براءة وصفاء نية .

فقد كان (هينريش بيكر) ـــ وهو من كبار مستشرقينا ـــ منغمسا فى النشاط السياسى ، حتى أنه أصبح فى عام ١٩٢٤ شديد الحماس لمخطط استخدام الإسلام فى أفريقيا والهند كدروع سياسية فى وجه البريطانيين » (١) .

ـــ أما عالم الإسلاميات الهولندى الشهير « سنوك هورجرونيه » [ت ١٩٣٦ م] فإنه

---

(١) انظر فى ذلك الاستشرق.د . زقزوق ص ٤٥ عن مقال كتبه أوليريش هارمان عن الاستشراق الألمانى ، فى مجلة ـــ الباحث العدد ٢٥ يناير سنة ١٩٨٣ ، ص ١٤٥ .

فى سبيل استعداده للعمل فى خدمة الاستعمار توجه إلى مكة فى عام ١٨٨٥ م بعد أن انتحل اسما إسلاميا هو « عبد الغفار » وأقام هناك ما يقرب من نصف عام ، وقد ساعده على ذلك أنه كان يجيد العربية كأحد أبنائها ، وقد لعب هذا المستشرق دوراً هاماً فى تشكيل السياسة الثقافية والاستعمارية فى المناطق الهولندية فى الهند الشرقية ، وشغل مناصب قيادية فى السلطة الاستعمارية الهولندية فى أندونيسيا (١) .

ـــ ويكشف المستشرق الفرنسى « هانوتو » ١٩٤٤ م ـــ فى مقال له بعنوان : « قد قد أصبحنا اليوم إزاء الإسلام والمسألة الإسلامية » ـــ يكشف بوضوح عن مقترحاته لتوجيه سياسة فرنسا فى مستعمراتها الأفريقية الإسلامية ، وما تهدف إليه هذه المقترحات من إضعاف المسلمين فى عقيدتهم حتى يسهل قيادهم (٢) .

ـــ ويقول الدكتور إبراهيم اللبان رحمه الله : « الواقع أن رجال السياسة فى الغرب على صلة وثيقة بأساتذة هذه الكليات (يعنى كليات اللغات الشرقية فى أوربا من المستشرقين) ويرجعوا إلى آرائهم قبل أن يتخذوا القرارات الهامة فى الشئون السياسية الخاصة بالأمم العربية والإسلامية ، وقد سمعت أحد كبار المستشرقين يتحدث أمامى فيذكر أن مستر (إيدن) كان قبل أن يضع قراراً سياسيا فى شئون الشرق الأوسط يجمع المستشرقين المستعربين ويستمع إلى آرائهم ، ثم يقرر ما يقرر فى ضوء ما يسمع منهم ، هذا إلى أن بعضهم كان يؤسس صلات صداقة بالبارزين من رجال الأمة العربية ، ويتخذ من هذه الصلات ستارا يقوم من ورائه بأعمال التجسس فى أثناء الحرب » (٣) .

والاستعمار فى حقيقة أمره ، هو امتداد للحروب الصليبية التى كان باعثها الحقد ، والتى كان أصحابها يستخفون وراء الصليب ، والمستشرقون حلقة من حلقات تلك الحروب .

ـــ يقول « أيوجين روستو » رئيس قسم التخطيط فى وزارة الخارجية الأمريكية ومساعد وزير الخارجية الأمريكية ومستشار الرئيس جونسون لشؤون الشرق الأوسط حتى عام ١٩٦٧ :

يقول : « يجب أن ندرك أن الخلافات القائمة بيننا وبين الشعوب العربية ليست

(١) المرجع السابق ص ٤٥ .

(٢) انظر : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى للدكتور البهى ص ٣٠ وما بعدها .

(٣) الاستشراق والمستشرقون للدكتور مصطفى السباعى ص ١٩ ط دار البيان الكويت سنة ١٩٦٨ م .

خلافات بين دول أو شعوب ، بل هى خلافات بين الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية ..

لقد كان الصراع محتدما ما بين المسيحية والإسلام منذ القرون الوسطى ، وهو مستمر حتى هذه اللحظة بصور مختلفة ، ومنذ قرن ونصف ، خضع الإسلام لسيطرة الغرب وخضع التراث الإسلامى للتراث المسيحى .

إن الظروف التاريخية تؤكد أن أمريكا إنما هى جزء مكمل للعالم الغربى ، فلسفته وعقيدته ونظامه ، وذلك يجعلها تقف معادية للعالم الشرق الإسلامى ، بفلسفته وعقيدته المتمثلة بالدين الإسلامى ، ولا تستطيع أمريكا إلا أن تقف هذا الموقف فى الصف المعادى للإسلام وإلى جانب العالم الغربى والدولة الصهيونية ، لأنها إن فعلت غير ذلك فإنها تتنكر للغتها وفلسفتها وثقافتها ومؤسساتها » (١) .

ـــ ويقول « باترسون سمث » فى كتابه « حياة المسيح الشعبية » : « باءت الحروب الصليبية بالفشل لكن حادثا خطيرا وقع بعد ذلك ، حينما بعثت انكلترا بحملتها الصليبية الثامنة ، ففازت هذه المرة ، إن حملة « اللنبى » على القدس أثناء الحرب العالمية الأولى هى الحملة الصليبية الثامنة والأخيرة » (٢) .

فهمت هذا الصحف البريطانية وكان هذا فى ضمير الشعب البريطانى ، فنشرت الصحف صورة « اللنبى » وكتبت تحتها عبارته المشهورة التى قالها عند فتح القدس : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » .

وما كان هذا هو موقف « اللنبى » وحده ، وإنما كان هذا هو الشعور والإحساس الذى يوجه الموقف الإنجليزى بالنسبة للشرق الإسلامى خاصة والمسلمين عامة .

ولهذا انهالت التهانى على ذلك القائد الشجاع الذى استطاع أن يفعل ما لا يستطيع أن يفعله « رتشارد قلب الأسد » من قبل ، فى وجود صلاح الدين الأيوبى ، وهـــذا هو « اللنبى قلب الحمار » !! ولكن أين « صلاح الدين الأيوبى » ، بل أين تلامذته ؟

وكذلك كان الفرنسيون صليبيين حاقدين ، وقد تكسرت نصالهم من قبل على

---

(١) معركة المصير ص ٨٧ — ٩٤ .

(٢) مجلة الطليعة القاهرية . مقال وليم سليمان سبتمبر سنة ١٩٦٦ ص ٨٤ .

صخرة الصمود الإسلامى أيام لويس السابع ، وأرناط ، ولويس التاسع ملك فرنسا الذى قاد الحملة الصليبية السابعة بنفسه على مصر ، ولكنه أسر وحبس فى دار ابن لقمان بالمنصورة ، بعد أن تحطم جيشه وأسقط فى أيديهم ، ورحلوا عن البلاد مجللين بالخزى والعار .

ولما عاد الجنرال الفرنسى « غورو » فى العصر الحديث إلى الشام بحملته وتغلب على جيش « ميسلون » خارج دمشق توجه فوراً إلى قبر صلاح الدين الأيوبى عند الجامع الأموى وركله بقدمه ، وقال له : « ها قد عدنا يا صلاح الدين »(١) .

وكان هذا أيضا فى ضمير الساسة الفرنسيين يحكم تصرفهم ويهيمن على تحركاتهم ، يؤكد هذا ما قاله مسيو « بيدو » وزير خارجية فرنسا عندما زاره بعض البرلمانيين الفرنسيين وطلبوا منه وضع حد للمعركة الدائرة فى مراكش أجابهم : « إنها معركة بين الهلال والصليب » (٢) .

والاستشراق يرتبط بالصليبية والسياسة الاستعمارية ارتباطا وثيقا لغاية معروفة وهى : تحويل المسلمين عن الهدف الأسمى ، ألا وهو تحقيق الرسالة وإقامة حضارة إسلامية رائدة ، لتكون كلمة الله هى العليا ، وإغراق المجتمع الإسلامى فى الانحلال والشهوات ، حتى ينسلخ المسلم من عقيدته الإسلامية ، ولا يعرف فى الحياة شيئا مقدسا سوى إشباع الغريزة والانطلاق فى حياة الرذيلة ، ولا يسعى إلى مجد أو غاية عليا ، تفيد المجتمع والناس .

ولهذا يقول أحد أقطاب هؤلاء المستعمرين : « كأس وغانية تعملان فى تحطيم الأمة المحمدية أكثر مما يفعله ألف مدفع » فأغرقوها فى حب المادة والشهوات .

ـــ ويقول « توينبى » : « منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر طور الغرب استراتيجيته الهجومية على الشرق ليجعلها أعمق جذورا وأبعد تأثيرا ، فالحرب العسكرية والاحتلال الاستعمارى لم يؤديا وحدهما ، كل النتائج المتوخاه ! إذ رغما عن فقر الشرقيين فى العدة والعتاد ، وجهلهم بالتقنية الغربية الحديثة ، بقيت لدى المسلمين روح نضالية مقدامة ، وقفت للغرب المستعمر بالمرصاد ، واستشهد رجال بالملايين ـــ بأسلحتها التقليدية الخفيفة

---

(١) القومية والغزو الفكرى ص ٨٤ .

(٢) مأساة مراكش ـــ روم رولاند ـــ ص ٣١٠ .

البسيطة — أمام جحافله المدرعة المدججة بالأسلحة الآلية الجديدة ، ولقد خبر الغرب ذلك فى الثورات المتتابعة التى حمل لواءها الإسلاميون المقاومون المتحمسون المتعصبون — كما يسميهم « توينبى » — .

فالوهابية ، والسنوسية ، والمهدية ، وثورة الباثان فى الأفغان ، وتمرد المسلمين فى الهند ، وثورة عبد القادر فى الجزائر ، وثورة عبد الكريم الخطابى فى الريف المراكشى ... كل هذه الثورات أعطت الغرب الدروس والعبر فطوروا — تكتيكهم — وفتحوا جبهات داخلية فى قلب الشرق تلغم صموده ، وتفتت تماسكه ، وتحاول قتل الروح النضالية والإيمانية فيه »[1] .

وكانت الدعوة البارعة والخبيثة هى الاستشراق والتغريب والغزو الثقافى .

وخرجت من الشرق بعثات ووفود ، وجاءه خبراء وفنيون ، وقامت مؤسسات وإرساليات تبشيرية ، وتضاعفت الأبحاث التى تشككك فى العقيدة ، وتهون من أمرها حتى قام لهؤلاء وأولئك تلامذة نجباء من المسلمين يحملون دعوة المستعمر الاستشراقية كأنبياء كذبة ومصلحين أفاكين ، وأذناب طائعين ، وجاءوا على ذلك بضلال كذب ، فصبر جميل والله المستعان على ما يصفون .

---

(١) الإسلام والغرب .. والمستقبل ص ٦ ، ٧ .

المبحث الثانى

الحقد والعداء بدون حدود

رغم أن المسلم محب لكل إنسان ، ويعلم أن حبه لكل إنسان ونفعه له ، سبيل إلى الإصلاح فى الأرض ، وسبيل إلى إسماع الإنسانية صوت ربها ووحى خالقها ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا** ﴾ [1] .

رغم التوسل إلى القلوب بالنسب الممدود والأخوة العميقة ، يقابل المسلمون بالكراهية والعداء الشديد ، ورغم إيمان المؤمنين بموسى وعيسى واحترام أتباعهم كأهل كتاب إلا أن الغيظ اليهودى والحقد الصليبى دائما يموج ويهدر ويدمر فى حالة التسلط وإتاحة الفرصة ، أو يداور ويتربص ويتلون فى حالة عجزه ، وقد صور ذلك القرآن فقال : ﴿ **قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون . ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور** ﴾ [2] .

يبذر هذا الحقد فى ضمير الفرد الغربى الماجن والشرقى الملحد ، على شتى الجبهات ، وعلى كل المستويات ، ننظر إلى نشيد الجندى الإيطالى الذاهب إلى طرابلس لحرب المسلمين الآمنين فى بلادهم ، يخاطب أمه :

« أماه ... أتمى صلاتك يا أماه .... لا تبكى .... ، بل اضحكى وتأملى ... أنا ذاهب إلى طرابلس .... فرحا مسرورا .... سأبذل دمى فى سبيل سحق الأمة الملعونة ... سأحارب الديانة الإسلامية .... سأقاتل بكل قوتى لمحو القرآن .... » [3] .

---

(١) النساء / ١ .　　(٢) آل عمران ١١٨ ، ١١٩ .　　(٣) القومية والغزو الفكرى ص ٢٠٨ .

وماذا كان ؟ استبيحت الأمة كلها ، هدمت المساجد وحولت إلى كنائس ، ثم أحرقت مكتبات المسلمين .. ثم أحرقت الشعوب نفسها .

وفى مصر :

يقول : « بيزانت ، وبالمير » فى كتابهما « القدس » : « سار فتيان القدس وما حولها من المدن الصليبية إلى مصر ، واستولوا على بلبيس بعد مسيرة عشرة أيام فى الصحراء فى طريق عرفوه من قبل ، ولم يقاوم أهل بلبيس إلا مقاومة ضعيفة استمرت ثلاثة أيام ، استولى بعدها الفرنجة عليها ، وذبحوا كل طفل وامرأة ورجل وقع فى قبضتهم » ! !

أين دعاة المسيح أصحاب غصن الزيتون ، أكل الحقد قلوبهم وأعمى التعصب بصائرهم أمام المسلمين ، وأصبحوا يحملون الدمار والحديد والنار حتى فى العصر الحديث الذى يدعون فيه الحضارة .

فترى صحيفة « شيكاغو صن تايمز » بأمريكا أكبر صحيفة يومية فى شيكاغو تكتب فى مقالها الافتتاحى بتاريخ ٢٢ / ٢ / ١٩٧٩ تحت عنوان « لا تفاهم مع الإسلام إلا بلغة الحديد والنار » ثم أورد العبارات التالية : « إن الشيوعية أفضل من الإسلام ، لأنها فى الأصل فكرة غربية ، ويمكن الالتقاء والتفاهم معها ، أما الإسلام فلا التقاء ولا تفاهم معه إلا بلغة الحديد والنار »(١) .

— وخرج أعوان إسرائيل فى فرنسا بمظاهرات قبل حرب ١٩٦٧ يحملون لافتات سار تحت هذه اللافتات « جان بول سارتر » ، كتبوا على هذه اللافتات وعلى جميع صناديق التبرعات لإسرائيل جملة واحدة من كلمتين ، هما :

« قاتلوا المسلمين »

فالتهب الحماس الصليبى الغربى ، وتبرع الفرنسيون بألف مليون فرنك خلال أربعة أيام فقط .. كما طبعت إسرائيل بطاقات معايدة كتب عليها « هزيمة الهلال » بيعت بالملايين .. لتقوية الصهاينة الذين يواصلون رسالة الصليبية الأوربية فى المنطقة ، وهى محاربة الإسلام وتدمير المسلمين(٢) .

---

(١) المسلمون ، المجلد السادس العدد الثالث ص ٢ .

(٢) قادة الغرب يقولون ص ٣٨ عن طريق المسلمين إلى الثورة الصناعية ص ٢٠ — ٢١ .

ياللخبال ، وياللحضارة ، وياحقوق الإنسان الفرنسية ، وياللاإنسانية الغربية ، أين هذا كله وأين هو « سارتر » وأتباعه ، وأين الوجوه المغبرة التى تتزعم الثقافة وتتكلم بلغة الإنسانية ؟ سقطت أقنعتها الكاذبة ، وظهر الخداع والغش والتزوير ، وحب الدماء ، وبرزت الوحشية الحضارية الباهرة .

السيطرة الاستعمارية :

لا شك أن من أغراض الحاقدين والمتربصين بالأمة الإسلامية زوال تلك الأمة ، وإذا لم يتم هذا واقعيا فمعنويا بذهاب شخصيتها ، وذلك إما أن يكون بمحو ثقافتها وعقيدتها ، أو بالسيطرة عليها ، والهيمنة على مقدراتها ، وتوجيهها إلى ما يراد لها .

وقد أخذت السيطرة فى العصر الحديث أشكالاً شتى ، وأوضاعاً متعددة ، منها العسكرى ، ومنها الاقتصادى ، ومنها الثقافى والفكرى . إلخ .

ولن يتخلى الاستعمار عن المناطق الإسلامية إلا إذا ضمن أنها مربوطة بذيله ، ومتعلقة بأهدابه ، ومسبحة بحمده ، ولن يهدأ ليلا أو نهارا من وضع المخططات ودراسة التجارب والبيانات التى تيسر له طريق ذلك ــ وهذا ما يجب أن يوضع فى الحسبان عند دراسة أى مخطط إصلاحى للأمة الإسلامية ــ وقد رأينا كثيرا من الأمم الإسلامية تقع فى شباك هذه المخططات عن جهل ، أو عن طبيعة مواتية وطبع مشوه ، وأمراض قاتلة من حب الترف أو الزعامة والسيطرة ، وحب التصدر بغير مقومات أو استحقاق ، وقد جرت إلى الرضى بأنظمة تفقدها حريتها وتقتل شخصيتها وطاقاتها ، وإلى قروض تنفق على الكماليات وتصرف فيما لا يعود على المجتمع أو الاقتصاد القومى بالخير أو بالانتعاش ، وبهذا تطوق رقاب الأمم الإسلامية وتجر بالسلاسل إلى مذابح الأعداء .

يقول « باول سمتز » فى كتابه « الإسلام قوة الغد العالمية » : « تشير سيطرة شركات البترول الكبرى وتسلطها فى العالم الإسلامى على أن الاستقلال السياسى لهذه المنطقة لن يكون سوى واجهة خداعة ، وتدل الحقائق على أن منطقة الشرق الإسلامى لن تخرج خروجا كليا من دائرة الوصاية الأوربية ، وأن ما يبدو فى المنطقة من ظواهر يعتقد البعض أنها مقدمات لقوة نامية ليس الأوربية ، وأن ما يبدو فى المنطقة من ظواهر يعتقد البعض أنها مقدمات لقوة نامية ليس إلا احتمالات لم تخرج إلى الواقع بعدُ ، ويحتمل عدم وجودها ، ويستدلون على ذلك بأن استعمار الدولار يحل ــ بسرعة متزايدة ، محل استعمار الأرضى ،

وأن الرقابة السياسية استبدلت بالرقابة الاقتصادية ، وبذلك رسخت سيادة الغرب على الشرق وإن تغيرت صورتها ، ولم تضعف ، ولم تهن ، وسوف تمتد زمنا طويلا »[1] .

الخوف من البعث الإسلامى :

صراع الحق مع الباطل حتمى كما نعلم ، وللحق صولة وجولة يخاف منها الباطل ويفزع ؛ لأنه يعرف النهاية ، وأنه لا يصمد فى مواجهة هذا الحق : وصدق الله ﴿ **كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض** ﴾[2] وهذا هو مفتاح ذلك الخوف والجزع من قيام الإسلام وعافيته وتجمعه وبروزه فى الواقع المعاصر .

ونستطيع أن نفهم جيدا تلك النداءات الكثيرة التى يطلقها كل يوم قادة الغرب والشرق محذرين من الإسلام ، وعودته إلى حياة المسلمين وأخذه زمام المبادرة فى الحياة .

ونرى ما يقوله الشرق والغرب حول هذا الموضوع الهام :

ـــ يقول الدكتور« كاسترو » الزعيم الشيوعي الكوبى فى معرض النصيحة لدبلوماسيًّا إسرائيليًّا ، ونشرت هذه النصيحة جريدة « جراما » الكوبية ، ومجلة « كوبا سوشاليستا » كبرى المجلات الكوبية : « يجب على إسرائيل أن لا تترك حركات الفداء الفلسطينى تتخذ طابعا إسلاميا ، لأن اكتساب هذه الحركات هذا الطابع العقائدى سيجعل منها شعلة من الحماس الذى هو مألوف فى المجتمعات الإسلامية ، وأن الحماس الدينى سيستقطب جماعات إسلامية أخرى ، مما يجعل من المستحيل على إسرائيل أن تصون كيانها ، وعلى إسرائيل أن تسعى لجعل كل دولة عربية فى جوارها دولة اشتراكية الجذور ، فإن منتهى المطاف لأية حركة مقاومة عربية ذات طابع اشتراكى هو التعايش السلمى العربى مع الاشتراكية الإسرائيلية »[3] .

وهذه هى النصيحة التى حاولت القوى الاستعمارية أن تبذرها فعلا فى الشرق الإسلامى يوما ، ورأينا عروشا تنادى بالاشتراكية ورأينا شبابا يعلى صور جيفارا ، وأمثاله ، ولكن سرعان ما انتفض المارد القوى ، وفضحت هذه الألاعيب وانكشف الغطاء .

---

(١) الإسلام قوة الغد العالمية ص ٢٢٤ .

(٢) الرعد / ١٧ .

(٣) نقله محمود الصواف .

وهذا هو ما تعرفه إسرائيل جيدا ، ويصرح به « ابن غوريون » فى تحذير ترتعد له فرائصه : « إن أخشى ماأخشاه أن يظهر فى العالم العربى « محمد » من جديد » ، وإسرائيل تعرف جيدا عزمة الرسول ﷺ ، وعزمة التعاليم الإسلامية ، وعزمة رجال الإسلام التى لا تهدأ إلا بالنصر وإزالة الباطل .

ـــ ويقول « لورانس براون » :

« لقد كنا نخوف بشعوب مختلفة ، ولكنا بعد الاختبار لم نجد مبررا لمثل هذا الخوف ، لقد كنا نخوف من قبل بالخطر اليهودى ، والخطر الأصفر ـــ باليابان وتزعمها على الصين ـــ وبالخطر البلشفى ، إلا أن هذا التخوف كله لم نجده كما تخيلناه ، لأننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا ، وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الألد ، ثم رأينا البلاشفة حلفاء لنا أثناء الحرب العالمية الثانية ، أما الشعوب الصفراء فإن هناك دولا ديمقراطية كبرى تتكفل بمقاومتها ، ولكن الخطر الحقيقى كامن فى المسلمين ، وفى قدرتهم على التوسع والإخضاع ، وفى الحيوية المدهشة والعنيفة التى يمتلكونها ، ألا أنهم السد الوحيد فى وجه الاستعمار الأوربى » (١) .

ـــ وهذا هو رأى الخارجية الفرنسية : فقد جاء فى كلمة لأحد المسؤولين فى وزارة الخارجية الفرنسية ١٩٥٢ م ما يلى : « ليست الشيوعية خطراً على أوربا فيما يبدو لى ، فهى حلقة لاحقة لحلقات سابقة ، وإذا كان هناك خطر فهو خطر سياسى عسكرى فقط ، ولكنه ليس خطرا حضاريا تتعرض معه مقومات وجودنا الفكرى والإنسانى للزوال والفناء ، إن الخطر الحقيقى الذى يهددنا مباشرا وعنيفا هو الخطر الإسلامى ، فالمسلمون عالم مستقل كل الاستقلال عن عالمنا الغربى ، فهم يملكون تراثهم الروحى الخاص ، ويتمتعون بحضارة تاريخية ذات أصالة ، فهم جديرون أن يقيموا بها قواعد عالم جديد دون حاجة إلى الاستغراب ، أى دون حاجة إلى إذابة شخصيتهم الحضارية والروحية بصورة خاصة فى الشخصية الحضارية الغربية » (٢) .

ـــ ويقول المستشرق « غاردنر » : « إن القوة التى تكمن فى الإسلام هى التى تخيف

---

(١) انظر رسالة لم هذا الرعب من الإسلام ، ص ٢٠ ، والتبشير والاستعمار ص ١٤٨ .

(٢) المرجع السابق للأستاذ سعيد جودت ص ٢٢ ، ٢٣ .

أوربا »[1] .

— ويقول « هانوتو » وزير خارجية فرنسا سابقا : « لا يوجد مكان على سطح الأرض إلا واجتاز الإسلام حدوده ، وانتشر فيه فهو الدين الوحيد الذى يميل الناس إلى اعتناقه بشدة تفوق كل دين آخر »[2] .

— ويقول « البرمشادور » : « من يدرى ، ؟ ! ربما يعود اليوم الذى تصبح فيه بلاد الغرب مهددة بالمسلمين ، يهبطون عليها من السماء لغزو العالم مرة ثانية وفى الوقت المناسب » .

ويتابع حديثه قائلا : « لست متنبئا ، ولكن الأمارات الدالة على هذه الاحتمالات كثيرة ... ولن تقوى الذرة والصواريخ على وقف تيارها .

إن المسلم قد استيقظ ، وأخذ يصرخ ، ها أنذا ، إننى لم أمت ، ولن أقبل بعد اليوم أن أكون أداة تسيرها العواصم الكبرى ومخابراتها »[3] .

— ومن تصريح « لسالازار » فى حديث له مع بعض الصحفيين يقول :

« إن الخطر الحقيقى إنما هو الذى يمكن أن يحدثه المسلمون من تغيير فى نظام العالم ، فقيل له : إنهم فى شغل عن أن يفكروا فى هذا بخلافاتهم ونزاعاتهم . فقال : إنى أخشى أن يخرج من بينهم من يوجه خلافهم إلينا »[4] .

— ويقول « مرماديوك باكتول » :

« إن المسلمين يمكنهم أن ينشروا حضارتهم فى الدنيا الآن بنفس السرعة التى نشروها بها سابقا ، إذا رجعوا إلى الأخلاق التى كانوا عليها حين قاموا بدورهم الأول ، لأن العالم الخاوى لا يستطيع أن يقف أمام روح الحضارة الإسلامية »[5] .

— ويقول « توينبى » فى محاضرته عن الإسلام والغرب والمستقبل :

« هناك من يفترض مقدما أن الخليط المتنافر الذى نتج عن غزو الغرب سيطور

---

(١) التبشير والاستعمار ص ٣٦ ط ٤ .

(٢) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالعالم الغربى محمد البهى ص ١٨ .

(٣) لم هذا الرعب كله من الإسلام ، وقادة العالم ص ٥١ .

(٤ ، ٥) المرجع السابق ص ١٩ .

تدريجيا وسلميا إلى تركيب متجانس ، وسيشكل هذا التركيب بدوره تدريجيا وسلميا أيضا نوعا من الإيداع الجديد ...

قد ينتهى الخليط إلى تركيب متجانس ، وقد ينتهى بانفجار مدمر ، وفى حالة وقوع مثل هذه الكارثة سيكون للإسلام دور مختلف تماما هو دور العنصر الفاعل فى ردة فعل عنيفة تقوم بها البروليتاريا (١) العالمية للشعوب المسحوقة ضد أسيادها الغربيين ، صحيح أن هذه الإمكانية المدمرة للإسلام لا تظهر الآن حتمية الوقوع ؛ لأن الكلمة المؤثرة — وهى (الوحدة الإسلامية) والتى كانت دائما بعبع المستعمرين منذ استعمالها فى اللغة السياسية للسلطان (عبد الحميد) — بدأت تفقد سيطرتها التى كانت لها على عقول المسلمين ، وليس من الصعب علينا أن نرى العوائق الذاتية الموجودة فى الدعوة لمثل هذه الحركة الإسلامية الشاملة ...

صحيح أن الوحدة الإسلامية نائمة ، ولكن يجب أن نضع فى حسابنا أن النائم قد يستيقظ إذا ثارت البروليتاريا العالمية للعالم المتغرب ضد السلطة الغربية ، ونادت بزعامة معادية للغرب ، فقد يكون لهذا النداء نتائج نفسانية لا حصر لها فى إيقاظ الروح النضالية للإسلام ، حتى ولو أنها نامت نومة أهل الكهف ، إذ يمكن لهذا النداء أن يوقظ أصداء التاريخ البطولى للإسلام ، وهناك مناسبتان تاريخيتان كان الإسلام فيهما رمز سمو المجتمع الشرقى فى انتصاره على الدخيل الغربى .

ففى عهد الخلفاء الراشدين بعد الرسول ﷺ حرر الإسلام سوريا ومصر من السيطرة الرومانية التى أثقلت كاهليهما مدة ألف عام تقريبا ، وفى عهد (نور الدين وصلاح الدين) والمماليك احتفظ الإسلام بقلعته أمام هجمات الصليبيين والمغول .

فإذا سبب الوضع الدولى الآن حربا عنصرية يمكن للإسلام أن يتحرك ليلعب دوره التاريخى مرة أخرى » ثم يقول — كصليبى — : « وأرجو ألا يتحقق ذلك »(٢) .

نرى أن العقول الغربية والشرقية على حد سواء متجهة إلى تحجيم الإسلام وإلى التحذير منه . إنه فى الفكر العالمى اليوم عملاق مقيد أو مارد مخبوء يخشى الأعداء من إطلاق

---

(١) البروليتاريا : تعنى الطبقة العاملة فى المعامل والمصانع .

(٢) انظر الإسلام والغرب .. والمستقبل توينبى ص ٦٨ .

ذلك العملاق ، أو الكشف عن هذا المارد المدفون ، فينفض المسلمون عن أعينهم سحائب الكرى ، وعن عزائمهم هموم الكسل والخور والوهن ، فهل يفهم المسلمون ذلك ! !

المبحث الثالث

هل يهادن الفكر الحاقد النظرية الإسلامية يوما ؟

الإسلام لا يغيب لحظة واحدة عن أعين الغربيين والشرقيين ، شأن كل خائف مذعور ﴿ **يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون** ﴾(١) وإذا تجولنا للحظة فى أعماق هؤلاء الناس نجد الرصد الدقيق للظواهر الإسلامية المختلفة ، كما نجد الفروض والاستنتاجات لكل ما يحتمل ظهوره أو تبدّيه .

ـــ يقول « لوثروب ستودارد » ، فى كتابه « حاضر العالم الإسلامى » : « وقد غلب رأى الكثيرين من رجال الغرب وهم فى هذا الموضوع مابرحوا يخالون الخلافة الإسلامية لا الحج العامل الأكبر والأشد الذى بسببه يتشارك المسلمون ميولا وعواطف تشاركا مؤديا إلى الاعتزاز بالوحدة ، وازدياد منعتها وامتدادها وانتشارها .

إن هذا لمن الوهم الصرف (فى رأيى) فالأمر على الضد منه ، أن محمدا (فى زعمه وليس الله) قد فرض الحج على من استطاعه فرضا مقدسا ، لذلك مازالت مكة المكرمة حتى اليوم مجتمعا يجتمع فيه كل عام أكثر من مائة ألف حاج(٢) وافدين من كل رقعة من رقاع العالم الإسلامى ، وهناك أمام الكعبة المقدسة فى مكة المكرمة يتعارف المسلمون على اختلاف الألسنة ، والأجناس ، ويتباثون العواطف الدينية ، ويتباحثون فى الشئون الإسلامية .

إن الأغراض الإسلامية التى ينالها المسلمون على يد الحج الممهد لها السبيل معلومة لا تحتاج إلى كبير إيضاح ، بل يكفى أن نقول : إن الحج هو المؤتمر الإسلامى السنوى العام الذى فيه يتباحث النواب المسلمون الطارئون من أقطار المعمورة الإسلامية كافة ، فى

(١) المنافقون / ٤ .

(٢) هذا العدد قديم أما اليوم فيتجاوز المليونين .

مصالح الإسلام .

وفيه يقوم هؤلاء بوضع الخطط ورسم الطريق للدفاع عن بيضة الإسلام ، والذب عن حياض المسلمين ونشر الدعوة فى سبيل الرسالة .

وفى هذا المؤتمر العظيم ، كانت قلوب قادة اليقظة الإسلامية وأبطالها تشعر بجلال الواجب الإسلامى المقدس ، وتتّقِد من خطورة المشهد وروعة المحفل ، غيرة على الإسلام والمسلمين ، وقد جهد السلطان (عبد الحميد) جهدا كبيراً لإحياء عظمة الخلافة الدينية واسترداد ما كان لها من الجلال والهيبة والخطورة فى العالم الإسلامى ، فنال ما ناله ليس بسبب من أسباب الخلافة من حيث الاعتبار الدينى ، بل بسبب الشعور العام الذى ظهر واشتعل فى صدور المسلمين لإنشاء الجامعة الإسلامية الكبرى .

هذه حقيقة غابت عن عقول كثير من ساسة أوربا ، حتى وجلوا من (عبد الحميد) ، فحسبوه فى الإسلام كالبابا فى النصرانية ، وما زال حتى اليوم أكثر ساسة الغرب يتوهمون فى ذلك فيخالون الجامعة الإسلامية ، إنما مبعثها الخلافة ، ونرى أيضا غالب حملة الأقلام يفيضون فى الكلام فيما إذا استبقيت الخلافة فى السلطان التركى على ظلمه (فى زعمه) أو نقلت إلى شريف مكة ، أو قضى عليها القضاء الأخير ، وأى من هذه الوسائل تكون خيرا لهيض جناحى الجامعة الإسلامية ؟ .

إن هذا وأيم الحق لغاية ما يرتكب من الخطأ ، لا ينكر أن الخلافة ما برحت رفيعة المكانة فى عيون المسلمين بلاريب ، غير أن قادة الجامعة الإسلامية الحديثة ذوى العقول (الثاقبة) والذكاء المتوقد ما فتئوا منذ عهد بعيد يجدون فى سبيل الجماعة الإسلامية فى نطاق أوسع ، وأفق أبعد ، وقد أيقنوا كل الإيقان أن القوة الكبرى التى تستمدها الجامعة الإسلامية اليوم ليست من مركز الخلافة ولكن من بيت الله الحرام حيث الحجيج ، إذ يأتمرون كل عام مؤتمرا عظيما ، ومن إنشاء الطرق الدينية المؤدية إلى الجامعة الإسلامية كالطريقة التى أنشأها السنوسى »[1] .

ــ ويقول « لورنس » فى كتاب « الثورة العربية » : « وأخذت طول الطريق أفكر فى سوريا وفى الحج وأتساءل : هل تتغلب القومية ذات يوم على النزعة الدينية ، وهل يغلب الاعتقاد

---

(١) لم هذا الرعب كله من الإسلام ص ٩ ــ ١٣ .

الوطنى الاعتقاد الدينى ، وبمعنى أوضح ، هل تحل المثل العليا السياسية ، مكان الوحى والإلهام ، وتستبدل سوريا مثلها الأعلى الدينى بمثلها الأعلى الوطنى ، هذا ما كان يجول بخاطرى طول الطريق »[1] .

ونرى أن أمنية الغرب تذهب شمالا ويمينا وتبحث عن بديل للإسلام تعتنقه هذه الديار المؤمنة وتتمنى وتهوى أن يكون قوميا ، ولا تمانع أن يكون حتى شيوعيا أو بلشفيا قوميا .

ــ يذكر « عبد الرحمن عزام » ، أنه دخل مرة فى نقاش مع السفير الإنجليزى فى دمشق حول : ايهما أخطر فى منطقة الشرق الأوسط ، الشيوعيون أو الإخوان المسلمون ؟ فكان رأى السفير الإنجليزى أن الإخوان هم الأخطر !! .

وفى كتاب « لعبة الأمم » يذكر مؤلفه ما فعلته أمريكا لتقطع الطريق على الإخوان المسلمين . ويلاحظ بشكل واضح أن خطة أمريكا فى العالم الإسلامى استبعاد الديمقراطية إلى أقصى حد ، لأن الديمقراطية لصالح الإسلام ، مع كونها ليست من الإسلام .

ولهذا نرى أن معظم الشعوب الإسلامية لا تألف الديمقراطية ولا تتعايش معها ، وإذ صح أن وجدت فلتكن بالاسم لا بالفعل .

يقول : « و . ك . اسمث » المستشرق الأمريكى الخبير بشئون باكستان :

« إنه من الممكن أن تصبح مثل هذه البلاد ــ يعنى باكستان وغيرها ــ شيوعية ، ولكن من المحال أن تكون ديمقراطية ، كما أنها إذا تركت ممكن أن تكون ديمقراطية ولكن من المحال أن تكون مع ذلك لا دينية » .

لذلك ينصح رئيس تحرير مجلة التايم فى كتابه « سفر أسيا » الحكومة الأمريكية أن تنشىء فى البلاد الأسيوية دكتاتوريات عسكرية .

ومحصلة هذا الكلام : يوصى بأمور منها :

أولا ــ آفاق المسلمين مدروسة بعناية وفهم ، تحت المجهر ، عدوهم يقظ ، وحذر ، وكافر .

---

(١) المرجع السابق ص ١٤ .

ثانيا ــ يسيرون ولا يخيرون ، يسيّرون فى عكس مصالحهم وعقيدتهم ومصدر قوتهم .

ثالثا ــ الدكتاتوريات والحديد والنار والقهر وأدوات القمع لوازم لا تنفك عن الأمة الإسلامية .

رابعا ــ عملاء يقودون هذا المخطط الرهيب لتدمير الأمة ، نزعت من قلوبهم الرحمة والإيمان .

خامسا ــ أمة لا حول لها ولا قوة ولا تأثير ، لا تملك الفهم وإن ملكته لا تحسن العمل ، وإن أحسنت فإنها تلاقى القهر والبغى والعدوان .

وهذه الأمور الخمسة أصبحت ظاهرة واضحة تجول فى نفوس الكثير ، أصبحت نوعا من التحدى والضغط الذى ممكن بعد فترة أن يؤدى إلى الإحباط الفكرى والعقلى والإرادى ، وقد ظهرت بوادر هذا فى أوساط المسلمين غير المؤمنين « أى غير الملتزمين بالإسلام » .

وإن كانت نفس العوامل إذا أحسن شرحها واستغلالها ممكن أن تؤدى إلى بعث للعزائم وتحريك للهمم وتربية ديناميكية فاعلة تستطيع أن تتغلب على كثير من العوامل المجهضة للنهضة المرتقبة ، كما أن بعث التقدم العلمى فى الناحية العملية قد يكون زادا أساسيا لاستقلال هذه النهضة ، وقد يعمل على تخلصها من كثير من الضغوط الخارجية والاحتواءات الاقتصادية والفكرية ، على أنه لابد أن يكون دائما فى المخيلة وفى الوعى الحركى أن استمرارية الكفاح وكفاءته وقدرته على قهر التحديات ، لا يتأتى إلا من خلال العقيدة الإسلامية الرائعة والمؤيدة فى هذا المجال ، والفاعلة فى العواصف الصعبة على مدار التاريخ .

فلقد ثبت أن المنظور الإسلامى الربانى دائما يخوض فى أغوار النفس ، ويرسل أشعته إلى اللانهائية ، فيكون رؤية واضحة وصراطا مستقيما ، يعطى المسلم دائما الخلفية الفكرية الصحيحة ، ويوضح دائما الرؤية المستقبلية السليمة التى تتفاعل مع أوامر الإسلام وتعاليمه فى همة المسلم وعزيمته فتنشىء قوة من الدفع والانطلاق العارم البصير بحساب المكاسب والمغارم ، والعقبات ، والنتائج ، حتى لا ترتعش الآفاق أمام المؤمنين العاملين : فمثلا ، لقد أخبر الله للمسلمين أن يتوقعوا وجود مقاومة للإسلام ، وكشف لهم أن الأشياء التى تملأ قلوب المؤمنين بالدهشة والبهجة هى ذات الأشياء التى تثير الغضب الشديد لدى المشركين

يقول الله عز وجل عن نمو الإسلام ﴿ **كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار** ﴾ [(1)] .

وهذا هو بالضبط ما يتراءى للمتفحص لحال أعداء الإسلام ، أو للمجتمع الحاقد ، أو الخائف من الإسلام ، يريد دائما أن يرى الإسلام ضعيفا ، وكل قوة للمسلمين أو إصلاح أو نهضة تصيبه بالأرق ، ودائما يعمل ليل نهار وبشتى الوسائل على إجهاضها ، وقتلها بعمل وحشى إن اقتضى الأمر .

إذاً فقد أعطى الإسلام للمسلم ميزانا صحيحا يزن به وهو : كل ما يعجب المسلم ، يغضب الكافر وكل ما لا يريده الكافر للمسلم ، هو صحيح عند المسلم ينبغى أن يتوجه إليه .

فرح الغرب بهزيمة المسلمين :

كل هزيمة للمسلمين تلاقى ابتهاجا عند الغربيين أصدقاء القادة المسلمين ، وكل أرض تقتطع من أراضى الإسلام تصادف ترحيبا وتأييدا لدى القوى الحليفة لزعماء العالم الإسلامى .

ولست أرى أمة تقبل المتناقضات مثل الأمة الإسلامية فى وضعها الحاضر : التى يجتمع عندها الحب والبغض ، والعداء والصداقة ، والخير والشر ، والمصلحة والمضرة ، ولعلى لا أكون مبالغا إذا قلت إنه قد يجتمع العقل واللاعقل ، والسمع والصمم ، والعمى والبصر ، ننظر إلى فعل الأصدقاء والحلفاء بأصدقائهم وحلفائهم .

يقول « راندولف تشرشل » فى حب المسلمين عند سقوط القدس المسلمة : « لقد كان إخراج القدس من سيطرة الإسلام حلم المسيحيين واليهود على السواء ، إن سرور المسيحيين لا يقل عن سرور اليهود ، إن القدس قد خرجت من أيدى المسلمين ، وقد أصدرت الكنيسة اليهودية ثلاث قرارات بضمها إلى القدس اليهودية ، ولن تعود إلى المسلمين فى أية مفاوضات مقبلة ما بين المسلمين واليهود »[(2)] .

فى المفاوضات التى كانت تجرى بين الدولة العثمانية وبين بعض دول البلقان

---

(1) الفتح / ٢٩ .

(2) حرب الأيام الستة راندولف تشرشل : ص ١٢٩ من الترجمة العربية ، وقادة الغرب يقولون ص ٣٦ .

المسيحية وكانت فرنسا الوسيط فى هذه المفاوضات ، وكانت فرنسا وحلفاؤها قد قرروا أن لا يستفيد أى من الفريقين المتحاربين شيئا من هذه الحرب من الآخر ، وأن كل جيش يرجع إلى وضعه قبل الحرب ، فرجع جيش العثمانيين إلى حدوده وانسحب من أرض الأعداء ، وطالب بالمقابل أن ينسحب الجيش الآخر إلى حدوده ، فلم ينسحب فأرسلت الدولة العثمانية أحد رعاياها واختارته مسيحيا حتى يكون التفاهم أفضل بين بنى جلدته من المسيحيين وهو « سليمان البستانى » إلى المسيو « بوانكريه » وزير خارجية فرنسا فى هذا الوقت ، يطالبه فيها بالوعد الذى قطعوه على أنفسهم بانسحاب كل دولة إلى حدودها .

فقال « بوانكريه » : « مسيو (بستانى) ما أخذ من الصليب لابد أن يعود إليه ، لكن ما أخذ من الهلال إلى الصليب فلا يمكن أن يعود » فلما حاول البستانى أن يقنعه بالحق والصداقة وتنفيذ الوعود : قال له « بوانكريه » : « مسيو (بستانى) : « إنك مسيحى عاقل وإن هذه الملايين لو اجتمعت كلمتها وانتظم عقدها لحسبت أوربا حسابها ، أما فى حالة تمزقها الحاضر وضياع سطوتها فليس لها وزن ، ونحن نحب ذلك » [1] .

الجدار الفولاذى :

يمثل الإسلام اليوم سد ذى القرنين الذى بناه من قديم ليمنع الباطل من القضاء على الحق فى الموقع الممتاز والوقت المطلوب : ﴿ **قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا قال مامكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما ، آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال آتونى أفرغ عليه قطرا، فما اسطاعوا أن يظهروه وماستطاعوا له نقبا** ﴾[2] .

فالإسلام اليوم هو سد ذى القرنين أمام القوى الحاقدة على الإسلام ، يعترف بهذا الذين لم يستطيعوا أن يظهروه والذين لم يستطيعوا له نقبا .

ــ يقول « لورانس براون » : « إن الإسلام هو الجدار الصلب الوحيد فى وجه الاستعمار الأوربى »[3] .

---

(١) أنظر فى ذلك مع الله للغزالى ص ٤٠٨ .

(٢) الكهف / ٩٤ ــ ٩٧ .

(٣) التبشير والاستعمار ص ١٨٤ .

ـــ ويقول « غلادستون » : رئيس وزراء بريطانيا سابقا : « مادام هذا القرآن موجودا فى أيدى المسلمين فلن تستطيع أوربة السيطرة على الشرق »[1] .

ـــ ويقول الحاكم الفرنسى فى الجزائر فى ذكرى مرور مائة عام على استعمار الجزائر : « إننا لن ننتصر على الجزائريين ماداموا يقرأون القرآن ، ويتكلمون العربية ، فيجب أن نزيل القرآن من الوجود ونقتلع اللسان العربى من ألسنتهم » (٢) .

وقد أثار هذا المعنى حادثة طريفة جرت فى فرنسا ، وهى أن فرنسا من أجل القضاء على القرآن فى نفوس الشباب الجزائرى قامت بتجربة عملية ، قامت بانتقاء عشر فتيات مسلمات جزائريات ، أدخلتهن الحكومة الفرنسية ، فى المدارس الفرنسية ، وألبستهن الثياب الفرنسية فأصبحن كالفرنسيات تماما .

وبعد أحد عشر عاما من الجهود هيأت لهن حفلة تخرج رائعة ، دعى إليها الوزراء والمفكرون والصحفيون ..

ولما ابتدأ الحفل ، فوجىء الجميع بالفتيات الجزائريات يدخلن بلباسهن الإسلامى الجزائرى ، فثارت ثائرة الصحف الفرنسية ، وتساءلت : ماذا فعلت فرنسا فى الجزائر إذن بعد مرور مائة وثمانية وعشرين عاما ! ! ؟

أجاب « لاكوست » وزير المستعمرات الفرنسى : « ماذا أصنع إذا كان القرآن أقوى من فرنسا ؟!! »[3] .

ـــ ويقول الكاتب الصهيونى « إيرل بوغر » فى كتابه « العهد والسيف » الذى صدر عام ١٩٦٥ ما نصه :

« إن المبدأ الذى قام عليه وجود إسرائيل منذ البداية هو أن العرب لابد أن يبادروا ذات يوم إلى التعاون معها ، ولكى يصبح هذا التعاون ممكنا فيجب القضاء على جميع العناصر التى تغذى شعور العداء ضد إسرائيل فى العالم العربى ، وهى عناصر رجعية تتمثل

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق « لمحمد أسد » ص ٣٩ .

(٢) المنار ـــ عدد ١٩ ـــ ١١ سنة ١٩٦٢ .

(٣) جريدة الأيام ـــ عدد ٧٧٨٠ ـــ تاريخ ٦ كانون أول سنة ١٩٦٢ ، وقادة الغرب يقولون ص ٦٩ .

فى رجال الدين والمشايخ » [1] .

وهذا مما يجب أن يلتفت إليه المؤمنون ، وخاصة الشباب الناهض الذى يريد أن يعرف أسباب العلل وأنواع الأمراض ، وليحدد بالضبط الأدوية الناجعة لهذه الحالات المعاشة من العلل المزمنة ، التى حجبت الصحة والعافية عن المساهمة فى بناء الإنسان المسلم ، وإحيائه على الأرض الإسلامية فى واقعه المعاصر .

وحدة المسلمين عقبة:

وحدة المسلمين وعدم فرقتهم من أسرار قوتهم ، وقد نبهنا إلى ذلك القرآن الكريم فقال ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا**﴾[2] ولهذا منع الإسلام كل ما يؤدى إلى تفكيك هذه الوحدة ، من الغيبة والنميمة ، وإيذاء المسلم ... إلخ . وحض على كل ما يقوى هذه الرابطة ، كالتعاون ، وقضاء الحاجات ، وإصلاح ذات البين ..الخ

ولهذا حرصت القوى المعادية للإسلام أن تفتت وحدة المسلمين وتعمل على تشتيت شملهم ، حتى تضعف قوتهم ، وتوهن عزيمتهم ، ونسمع فى ذلك شيئا من أقوالهم :

ـ يقول « انتونى ناثان » فى كتابه « شاهدت بعينى » : « إن إسرائيل لا تخشى شيئا خشيتها من وحدة العرب والمسلمين » ثم روى « انتونى ناثان » أن زعماء وزارة الخارجية الإسرائيلية قالوا له : « إن حكومتهم ستلجأ إلى كل وسيلة ممكنة من أجل بقاء جيراننا العرب ممزقين » [3] .

وبقاء العرب ممزقين يجعل العدو يزدردهم لقما سهلة يسهل ابتلاعها ، فضلا عن أنه لا يجد ما يوقف أعماله العدوانية التى تدل على استهتار بالقيم الإنسانية ويمن على ظهر هذه الرقعة من المسلمين المستسلمين ، لأنهم كما قال سعد زغلول أصفار تجمع على أصفار = أصفار ، فأين إذن الحقوق المسلوبة ، وأين الرجال الذين يمكن أن يأخذوا الحقوق وهم بددا وأشلاء .

---

(1) الإسلام فى المعترك الحضارى لبهاء الدين الأميرى ص ٢٨ .

(2) آل عمران / ١٠٣ .

(3) حقيقة إسرائيل . شيت خطاب ص ١٣٠ .

ـــ يقول المؤرخ البريطانى « توينبى » « إن القضية الفلسطينية لن تحل حلاً نهائيا إلا إذا اتحد العرب »- فما بالك بالمسلمين .

وهذا هو ما يحاول كل حاقد أن يبعد المسلمين عنه ، وأن يخلق الظروف والملابسات والعداوات التى تزحزح المسلمين عنه .

ـــ يقول القس « سيمون » : « إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب الإسلامية ، وتساعد على التخلص من السيطرة الأوربية .. من أجل ذلك يجب أن نحول بالتبشير اتجاه المسلمين عن الوحدة الإسلامية » (١) .

ـــ ويقول المبشر « لورانس براون » : « إذا اتحد المسلمون فى إمبراطورية عربية ، أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرا ، أو أمكن أن يصبحوا أيضا نعمة له ، أما إذا بقوا متفرقين ، فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير » (٢) .

هذا الفكر المعترض للحضارة الإسلامية والتجمع الإسلامى يمثل الخطر المتوهج الذى يمر بالمستقبل الإسلامى متوعدا ، يقذف بالحمم ، ويفصح عن أطماعه وأغراضه فى غير خجل أو وجل .

ولا يسع كل مخلص لوطنه وعقيدته ومصيره إلا أن يقف وقفة تأمل طويلة حول هذه التوجهات العدائية المتأصلة ، التى يحاول أصحابها أن يكونوا بربريين فى ثياب متحضرة ، وعنصريين فى جلود مثقفة ، ووحوشا لها أنياب وأظافر بملمس ناعم ، وابتسامات باهته .

إن مصالح الغرب وحدها لا تجعل الناس عبيداً لهم ، وأهواء لقلة أو كثرة منحرفة جشعة ، تسير البشرية نحو الهاوية ، بغير أن تستغيث أو يكون لها الحق فى أن تفتح فما أو تحرك ساكنا .

فليس من حق أى فرد أن يحدد غاية لأمة لا تخرج عنها ، وسجنا لشعوب لا تخرج منه ، وقيودا لأجيال لا تحاول التخلص منها ، كما أنه لا يمكن أن تخدر الشعوب أو تساق بمقامع الجلادين العملاء إلى ما لانهاية بغير إفاقه أو إحياء .

---

(١) كيف هدمت الخلافة ص ١٩٠ .

(٢) جذور البلاء ـــ ص ٢٠٢ .

المبحث الرابع

المخططات بالوثائق والحقائق

الوثائق السرية أصبحت اليوم علنية ، وكشف المستور ، وتناقل التاريخ الحقائق التى تثبت بالدليل والبرهان القاطع ما تعانيه الأمة الإسلامية من مؤامرات ودسائس فى القديم والحديث ، وسنسرد بعضا من هذه الوثائق التى تتحدث عن نفسها وتعلن عن أصحابها وتدل على خبث نواياهم .

١ ـــ الوثائق الشيوعية :

فى إحدى الوثائق الخطيرة التى نشرتها مجلة « كلمة الحق » فى شهر المحرم ١٣٨٧ هـ الموافق شهر نيسان ١٩٦٧ م نرى المخطط الشيوعى الرهيب للقضاء على الإسلام ، ونحن ننقل هنا ملخصا من هذه الوثيقة ، ويظهر فيه ملامح ذلك المخطط .

تقول الوثيقة :

« برغم مرور خمسين سنة تقريبا على الاشتراكية فى الاتحاد السوفيتى ، وبرغم الضربات العنيفة التى وجهتها أضخم قوة اشتراكية فى العالم إلى الإسلام ، فإن الرفاق الذين يراقبون حركة الدين فى الاتحاد السوفيتى صرحوا كما تذكر مجلة (العلم والدين) الروسية فى عددها الصادر فى أول يناير (كانون الثانى) ١٩٦٤ ما نصه :

« إننا نواجه فى الاتحاد السوفيتى تحديات داخلية فى المناطق الإسلامية ، وكأن مبادىء (لينين) لم تتشربها دماء المسلمين » .

« وبرغم القوى اليقظة التى تحارب الدين فإن الإسلام مايزال يرسل إشعاعا ، وما يزال يتفجر بالقوة ، بدليل أن الملايين من الجيل الجديد فى المناطق الإسلامية يعتنقون الإسلام ، ويجاهرون بتعاليمه ، مع أن قادة الحزب ومفكرى المذهب لا يغيب عنهم خطر يقظه الإسلام فى المناطق الإسلامية بالاتحاد السوفيتى ، الذى أشار فى (دائرة معارف

الثقافة الشيوعية) إلى أن الإسلام أخطر الأديان الرجعية ، ويبذل أقصى جهده ليكون فى خدمة المستغلين والإقاطعيين والرأسماليين ، ويقدم العون للاستغلال ، وهو دين جامد ، حقود على الحضارات والتقدم ، وخصم عنيد للاشتراكية ، ويناهض التحركات التحررية »
ثم تقول الوثيقة : « ومن هذا المخطط أن يتخذ الإسلام نفسه أداة لهدم الإسلام نفسه وقد قررنا ما يلى :

١ ــ مهادنة الإسلام لتتم الغلبة عليه ، والمهادنة لأجل حتى نضمن السيطرة ونجتذب الشعوب العربية للاشتراكية .

٢ ــ تشويه سمعة رجال الدين والعاملين له ، والحكام المتدينين ، واتهامهم بالعمالة للاستعمار والصهيونية .

٣ ــ تعميم دراسة الاشتراكية فى جميع المعاهد والكليات والمدارس فى جميع المراحل .. ومزاحمة الإسلام ومحاصرته حتى لا يصبح قوة تهدد الاشتراكية .

٤ ــ الحيلولة دون قيام حركات دينية فى البلاد مهما كان شأنها ضعيفا ، والعمل الدائم بيقظة لمحو أى انبعاث دينى ، والضرب بعنف لا رحمة فيه لكل من يدعو إلى الدين ولو أدى إلى الموت .

٥ ــ ومع هذا لا يغيب عنا أن للدين دوره الخطير فى بناء المجتمعات ، ولذا وجب أن نحاصره من كل الجهات وفى كل مكان ، وإلصاق التهم به ، وتنفير الناس منه بالأسلوب الذى لا ينم عن معادات الإسلام .

٦ ــ تشجيع الكتاب الملحدين وإعطاؤهم الحرية كلها فى مهاجمة الدين ، والضمير الدينى والعبقرية الدينية ، والتركيز فى الأذهان على أن الإسلام انتهى عصره ، وهذا هو الواقع ولم يبق منه اليوم إلا العبادات الشكلية التى هى الصوم والصلاة والحج وعقود الزواج والطلاق ، وستخضع هذه العقود للنظم الاشتراكية ...

٧ ــ قطع الروابط الدينية بين الشعوب قطعا تاما ، وإحلال الرابطة الاشتراكية محل الرابطة الإسلامية ، التى هى أكبر خطر على اشتراكيتنا العلمية .

٨ ــ إن فصم روابط الدين ، ومحو الدين لا يتمان بهدم المساجد والكنائس ، لأن الدين يكمن فى الضمير ، والمعابد مظهر من مظاهر الدين الخارجية ، والمطلوب هو هدم

الضمير الدينى ، ولم يصبح صعبا هدم الدين فى ضمير المؤمنين به ، بعد أن نجحنا فى جعل السيطرة والحكم والسيادة للاشتراكية .. ونجحنا فى تعميم ما يهدم الدين من القصص والمسرحيات والمحاضرات والصحف والأخبار والمؤلفات التى تروج الإلحاد ، وتدعو إليه ، وتهزأ بالدين ورجاله ، وتدعو للعلم وحده ، وجعله الإلهٰ المسيطر .

٩ ــ مزاحمة الوعى الدينى ، وطرد الوعى الدينى بالوعى العلمى .

١٠ ــ خداع الجماهير بأن نزعم لهم أن المسيح اشتراكى ، وإمام الاشتراكية ، فهو فقير ، ومن أسرة فقيرة ، وأتباعه فقراء كادحون ، ودعاة إلى محاربة الأغنياء .

ونقول عن محمد : إنه إمام الاشتراكيين ، فهو فقير ، وتبعه الفقراء ، وحارب الأغنياء المحتكرين والاقطاعيين ، والمرابين وثار عليهم ، وعلى هذا النحو يجب أن نصور الأنبياء والرسل ، ونبعد القداسات الروحية ، والوحى والمعجزات بقدر الإمكان لنجعلهم بشراً عاديين ، حتى يسهل علينا القضاء على الهالة التى أوجدوها لأنفسهم ، وأوجدها لهم أتباعهم المهووسون .

١١ ــ فى القرآن الكريم والتوراة والإنجيل قصص ، ولئلا تصطدم بشعور الجماهير الدينى وتثيرهم على الاشتراكية ، يجب أن نفسر تلك القصص الدينية تفسيرا ماديا تاريخيا ، ومافيها من جزئيات يمكن أن نفيد منها فى تعبئة الشعور العام الرأسمالية ، والإقطاعيين والنساء الشريفات والحكام الرجعيين ...

١٢ ــ إخضاع جميع القوى الدينية للنظام الاشتراكى . وتجريد هذه القوى تدريجيا من موجداتها ...

١٣ ــ إشغال الجماهير بالشعارات الاشتراكية ، وعدم ترك الفرصة لهم للتفكير ، وإشغالهم بالأناشيد الحماسية والوطنية . والأغانى الوطنية ، والشئون العسكرية والتنظيمات الحزبية ، والمحاضرات المذهبية ، والوعود المستمرة برفع الإنتاج ومستوى المعيشة ، وإلقاء مسئولية التأخر الاقتصادى والجوع والفقر والمرض ... على الرجعية والاستعمار ، والصهيونية . والإقطاع ، ورجال الدين .

١٤ ــ تحطيم القيم الدينية ، والروحية ، بإظهار مافيها من خلل وعيوب ، وتخدير القوى الناهضة .

١٥ ـــ الهتاف الدائم ليلا ونهارا ، وصباحا ومساءً بالثورة ، وأن الثورة هى المنقذ الأول والأخير للشعوب من حكامها الرجعيين ، والهتاف للاشتراكية بأنها هى الجنة الموعود بها جماهير الشعوب الكادحة .

١٦ ـــ نشر الأفكار الإلحادية ، بل نشر كل فكرة تضعف الشعور الدينى والعقيدة الدينية ، وزعزعة الثقة فى رجال الدين فى كل قطر إسلامى .

١٧ ـــ لابأس باستخدام الدين لهدم الدين ، ولابأس من أداء الزعماء الاشتراكيين بعض الفرائض الجماعية للتضليل والخداع على ألا يطول زمن ذلك ، لأن القوى الثورية يجب ألا تظهر خلاف ماتبطن إلا بقدر ، ويجب أن تختصر الوقت والطريق لتضرب ضربتها ، فالثورة قبل كل شيء هدم للقديم والموروثات الدينية جميعها .

١٨ ـــ الإعلان بأن الاشتراكيين يؤمنون بالدين الصحيح ، لا بالدين الزائف الذى يعتنقه الناس لجهلهم ، والدين الصحيح هو الاشتراكية . والدين الزائف هو الأفيون الذى يخدر الشعوب لتنساق وتسخر لخدمة طبقة معينة ، وإلصاق كل عيوب الدراويش وخطايا رجال الدين بالدين نفسه ، وترويج الإلحاد وإثبات أن الدين خرافة ، والخرافة تكمن فى الدين الزائف لا الدين الصحيح الذى هو الاشتراكية .

١٩ ـــ تسمية الإسلام الذى يؤيده الاشتراكية لبلوغ مآربها ، وتحقيق غاياتها بالدين الصحيح والدين الثورى ، والدين المتطور ، ودين المستقبل .... حتى يتم تجريد الإسلام الذى جاء به محمد من خصائصه ومعالمه ، والاحتفاظ منه بالاسم فقط ، لأن العرب إلا القليل مسلمون بطبيعتهم ، فليكونوا الآن مسلمين اسما ، اشتراكيين فعلا ، حتى يذوب الإسلام لفظا كما ذاب معنى .

٢٠ ـــ أخذنا بتعاليم (لينين) ووصيته بأن يكون الحزب الاشتراكى خصما عنيداً للدين ، ويحارب فكرته فى المنتظر مابعد الموت بالفردوس الذى تحققه الاشتراكية العلمية التى تحقق العدالة الاجتماعية التى هى الفردوس ، وإذا وجدنا من الضرورى مهادنة الدين وتأييده وجب أن تكون مهادنة الدين لأجل ، والتأييد بحذر ، على أن يستخدم التأييد والمهادنة لمحو الدين .

٢١ ـــ الاهتمام بالإسلام مقصود منه :

أولا ـــ استخدام الإسلام فى تحطيم الإسلام .

ثانيا ـــ استخدام الإسلام للدخول فى شعوب العالم الإسلامى .

ومع أن القوى الرجعية فى العالم العربى والإسلام قوى يقظة ، إلا أن الخطة التى اتخذناها ، ستضعف هذه القوى حتى تجردها من عناصر احتفاظها بمقوماتها ، فتذوب على مر الأيام .

٢٢ ـــ وباسم تصحيح المفاهيم الإسلامية ، وتنقية الإسلام من الشوائب ، وتحت ستار الإسلام ، يتم القضاء عليه بأن تستبدل به الاشتراكية » .

وتفصح الوثيقة عن أسرار رهيبة فتقول :

« وفى المحيط العربى كله يعمل أنصارنا بجد ، وقد استطاعوا أن يثبوا إلى المناصب الرئيسية فى الوزارات ، والإدارات الحكومية ، والشركات والمؤسسات الرسمية وغير الرسمية . ووفقوا حسب تعليماتنا للسيطرة التى وإن كانت فردية إلا أن توفيقهم للوصول إلى تلك المناصب يعد من الأعمال الناجحة ، كما أن لقاء الأفراد بعضهم مع بعض يجعل اللقاءات فى صورة اللقاء الجماعى ... ويزداد على مر الأيام عدد أنصارنا الذين يتولوا المناصب ذات الأثر الفعال ، فى خلق جو صالح للتحرك الثورى ، وحسب تعليماتنا لهم جعلوا من الوزارات والمسئولين الذين لا يشك فى إخلاصهم للنظام الرجعى الحاكم المعادى للاشتراكية واجهة يقفون وراءها ، ويعملون تحت ستارها مايريدون ، فى أمن وطمأنينة مع اليقظة والحذر ، دون أن تحوم حولهم شبهة أو شكوك لأنهم يتستررون بأولئك المسئولين ..»(١) .

٢ ـــ وثائق صليبية ومخططات غربية :

وثيقة لويس التاسع :

لم تنل الحروب الصليبية المتكررة من صمود المسلمين القوى أو من عزيمتهم الصلبة ، ولم تستطع أن توهن من صبر المسلمين أو تخترق جداره الصلب الذى بنته العقيدة فى قلوب أتباعها المؤمنين ، فلجأ الصليبيون إلى التخطيط والكيد بدلا من الحروب ما أمكن وكان رائدهم فى ذلك نصيحة لويس التاسع ملك فرنسا ، الذى أسره المسلمون فى الحروب الصليبية وسجنوه فى المنصورة فى دار ابن لقمان ، حيث كتب وثيقة وهو فى سجنه تبين الخطة التى يجب أن يسير عليها الصليبيون فى صراعهم المقبل مع المسلمين ومازالت تلك

(١) نص الوثيقة فى كتاب الشيوعية والإسلام : لعباس محمود العقاد ص ١٢٣ .

الوثيقة محفوظة فى دار الوثائق القومية فى باريس ، والتى يقول فيها : « إنه لايمكن الانتصار على المسلمين من خلال حرب ، وإنما يمكن الانتصار عليهم بواسطة السياسة باتباع مايلى :

١ ــ إشاعة الفرقة بين قادة المسلمين ، وإذا حدث فليعمل على توسيع شقتها ما أمكن ، حتى يكون هذا الخلاف عاملا فى إضعاف المسلمين .

٢ ــ عدم تمكين البلاد الإسلامية والعربية أن يقوم فيها حكم صالح .

٣ ــ إفساد أنظمة الحكم فى البلاد الإسلامية بالرشوة والفساد والنساء حتى تنفصل القاعدة عن القمة .

٤ ــ الحيلولة دون قيام جيش مؤمن بحق وطنه عليه ، يضحى فى سبيل مبادئه .

٥ ــ العمل على الحيلولة دون قيام وحدة عربية فى المنطقة .

٦ ــ العمل على قيام دولة غريبة فى المنطقة العربية تمتد مابين غزة جنوبا ، وأنطاكيا شمالا ثم تتجه شرقا ، وتمتد حتى تصل إلى الغرب »[1] .

ولقد أشار إلى هذه الوثيقة الخطيرة مراجع عديدة من كتب التاريخ الفرنسى وذكرها المؤرخ الفرنسى (جرانفيل) يحدد بها الموقف من العالم الإسلامى بعد هذه السنوات الطويلة من الحروب الصليبية ، وقد وضع لويس التاسع معالم العمل فى وسط المسلمين ، وأوضح أنه لاسبيل إلى السيطرة على المسلمين عن طريق الحرب أو القوة ، ذلك لأن فى الإسلام عاملاً حاسماً هو عامل المواجهة والمقاومة والجهاد وبذل النفس والدم رخيصا فى سبيل حماية العرض والأرض ، وأنه مع وجود هذا المعنى عند المسلمين فمن المستحيل السيطرة عليهم ، لأنهم قادرون دوما ــ انطلاقا من عقيدتهم ــ على المقاومة ودحر الغزو الذى يقتحم بلادهم ، وأنه لابد من إيجاد سبل أخرى من شأنها أن تزيف مفهوم العقيدة عند المسلمين ،حتى يصبح مفهوما سطحيا ، ثم تزرع الخلافات والعداوات ، وتقطع أوصال العالم الإسلامى والعربى فينهد هذا الصرح الضخم ، ويسهل ابتلاعه وإخضاعه .

---

(١) قادة الغرب يقولون . ص ٦٣ عن آخر ساعة العدد ٢١٦ من خطبة لأمير الحاج المصرى لعام ١٩٧٥ الوزير أحمد كمال وزير الرى .

٣ ـــ مخطط إنهاء الخلافة وإبعاد الإسلام :

وثيقة لوزان :

ضعفت دولة الخلافة العثمانية لعوامل عدة ، منها : الفساد ، والفرقة بين قادتها ، والدسائس ، والفتن ، والضعف ، والوهن ، فطمعت فيها الصليبية العالمية المتمثلة فى الإنجليز ، واليونان وإيطاليا وفرنسا .... ووجدوا بذلك فرصة لضرب الجسد الإسلامى وتمزيق شمله ، فانقضت هذه الدول كالذئاب الكاسرة بجيوشها المستعدة فى غفلة المسلمين اللاهين ، وسيطرت على جميع أراضيها ومنها العاصمة « استانبول » ولما ابتدأت المفاوضات فى مؤتمر « لوزان » لعقد الصلح بين المتحاربين اشترطت إنجلترا على صنيعتهم خائن تركيا الأكبر « أتاتورك » أنها لن تنسحب من أراضى تركيا إلا بعد تنفيذ الشروط التالية :

أ ـــ إلغاء الخلافة الإسلامية ، وطرد الخليفة من تركيا ، ومصادرة أمواله ...

ب ـــ أن تتعهد تركيا بإخماد كل حركة يقوم بها أنصار الخلافة .

جـ ـــ أن تقطع تركيا صلتها بالإسلام .

د ـــ أن تختار لها دستورا مدنيا بدلا من دستورها الذى هو مستمد من أحكام الإسلام ...

هذا عدا إلغاء المحاكم الشرعية ، والمدارس الدينية ، والأوقاف ، وأحكام الميراث ، وجعل الآذان باللغة التركية ، واستبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية ، وعطلة يوم الجمعة بالأحد ... وانتهى ذلك كله فى عام (١٩٢٨ م) .

فنفذ الخائن « أتاتورك » هذه الشروط ، واعترف الإنجليز والحلفاء باستقلال تركيا ، وباركوا جهد أتاتورك فى إلغاء الخلافة وعلمنة الدولة ومحاربة الإسلام ...

ولما وقف وزير خارجية إنجلترا « كرزون » فى مجلس العموم البريطانى يستعرض المعاهدة ، وماتم بشأنها مع تركيا ، احتج بعض نواب الإنجليز بعنف على « كرزون » واستغربوا كيف اعترفت إنجلترا باستقلال تركيا التى يمكن أن تجمع حولها الدولة الإسلامية وتهجم على الغرب ، فأجاب : « كرزون » : « لقد قضينا على تركيا التى لن تقوم لها قائمة بعد اليوم ... لأننا قضينا على قوتها المتمثلة فى أمرين : الإسلام ، والخلافة » .

فصفق النواب الإنجليز كلهم وسكتت المعارضة[1] .

والملاحظة الصارخة فى هذه الوثيقة ، هى الانسلاخ عن كل ماهو إسلامى ، وطمس الهوية الإسلامية لتلك الشعوب ، وتجريدها من قوتها ، وقطعها عن جسدها الحى وهو العالم الإسلامى ، وتولية صنيعة لهم ودسيسة على المسلمين ، لإذهاب ريحهم .

٤ ــ وثيقة المؤتمر الصليبى التبشيرى فى القاهرة :

أعدت كوادر مدربة تدريبا جيدا لبحث الأمور فى بلاد المسلمين ، والعمل على غزوها فكريا وعقائديا ، ورسم الخطط لذلك ، وبحث الصعوبات والحلول الممكنة التى تؤدى إلى نتائج طيبة فى هذا المجال التخريبى .

ففى يوم ٤ أبريل من سنة ١٩٠٦ افتتح المؤتمر فى القاهرة فى منزل عرابى باشا فى باب اللوق ، وبلغ عدد مندوبى البلاد الصليبية والإرساليات التبشيرية (٦٢) بين رجال ونساء ، وكان عدد مندوبى أمريكا ومايتبعها (٢١) ومندوبى انجلترا ومايتبعها من اسكتلندة وألمانيا وهولندا والسويد والدنمارك الباق .

وقد انتخب (زويمر) رئيسا للمؤتمر وعين له نواب وكتبة ، وكان برنامج المسائل التى بحثت فى هذا المؤتمر كما يلى .

١ ــ حصر إحصائى عن عدد المسلمين فى العالم الإسلامى فى أفريقيا ، الإسلام فى السلطنة العمثانية ، الإسلام فى الهند ، الإسلام فى فارس ، الإسلام فى الملايو ، الإسلام فى الصين .

٢ ــ النشرات والتعليمات التى ينبغى إذاعتها بين المسلمين المتنورين حتى تتزلزل عقيدتهم .

٣ ــ النشرات والتعليمات التى ينبغى إذاعتها بين المسلمين العوام حتى تتزلزل عقيدتهم .

٤ ــ الارتداد عن الإسلام ، وكيفية إعلانه وإحاطة المرتد .

٥ ــ وسائل إسعاف المتنصرين الذين يتعرضون للاضطهاد .

٦ ــ كيفية الدعوة بين النساء ، وكيفية استخدام النساء فى التبشير والتنصير .

---

(١) من كتاب الأرض والشعب ص ٤٦ جـ١ وانظر كتاب « كيف هدمت الخلافة ص ١٩٠ وانظر كذلك المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام للصواف ص ١٢٨ .

٧ ـــ تربية المبشرين وكيفية دراستهم إسلاميا ، ومواطن ذلك ، والشُّبه التى يقصدونها .

وقد طبعت نتائج المؤتمر فى كتاب نشره القس (فلمينغ) ووزع على الأعضاء وكبار الباحثين والكوادر التى ستقوم بتنفيذ المخطط .

وضم هذا الكتاب بعد التنسيق فصولا بحثت فى الأمور التى درست فى المؤتمر بعد المناقشات والإيضاحات ومنها .

الفصل الأول : فى الطريقة التى ينبغى انتهاجها فى تخريب المسلم ، وهل إلٰه المسلمين هو إلٰه النصارى واليهود أم لا ؟ وكان رأى زويمر أن إلٰه المسلمين ليس إلٰه النصارى وليس له قداسة ولا محبة .

الفصل الثانى والثالث : فى الصعوبات التى تحول دون إفساد المسلمين العوام ، وذكر الوسائل التى يمكن التوصل بها إلى ذلك ، مثل الموسيقى والسينما والفانوس السحرى ، ويمكن خداعهم بالطب والعناية الطبية .

ولكى ينجح من يريد ذلك من الصليبيين لابد وأن يتعلم لهجة البلاد العامية وأن يدرس القرآن وأن يتعلم الخطابة وأن يكون خبيراً فى المحاورة والمداورة والنقاش ، وخبيراً بنفوس الشرقيين .

الفصل الرابع : ذكر الصعوبات التى تحول دون إفساد المسلمين المتنورين ، وهذه الصعوبات جعلت المؤتمر يترك الأساليب الصريحة ويوصى بالأساليب الملتوية كالموضوعات الاجتماعية والحضارية والتاريخية والفكرية ، والحريات ، والنقد وحرية التعبير إلى غير ذلك من الموضوعات التشكيكية التى يمكن الدخول منها إلى موضوعات تؤدى إلى التشكيك أو الانفلات على المدى البعيد ، وفى نفس الوقت تؤدى إلى مايلى :

أولا ـــ تؤدى إلى معرفة أحوال البلاد وأفكار المسلمين وشعورهم ، وقياس استجابتهم .

ثانيا ـــ تؤدى إلى الحصول على ثقة المسلمين وصداقتهم وكسب ميولهم .

ثالثا ـــ التعاطف المبدئى إلى تأييد المسلمين فى بعض القضايا الهامشية حتى يمكن معرفة أسرارهم .

وبناء على ذلك اقترح إنشاء جمعيات صداقة ومحبة ، وإثارة بعض القضايا من خلال تلك الجمعيات مثل الاختلاط ، وحرية المرأة ، وإحياء حفلات البهجة والسرور والمجاملات ، وإحياء العادات الأوربية والأجنبية فى المجتمع ، والاستعانة على ذلك بالنساء والخمور .

الفصل الخامس: ترجمة الكتب المقدسة ، وطباعة النشرات ، واستعمال الصحافة للتنوير وإبراز المصطلحات المسيحية والغربية ، والعمل على التهوين من المصطلحات الإسلامية والشرقية .

ثم فصل بعد ذلك مقررات المؤتمر فى الأمور الآتية :

١ ــ فى الإرساليات الطبية :

من حيث التجهيز ، والإعداد للمكان ، وللطبيب ، وللوسائل التى تضمن صلة المريض بالطبيب واستغلال العمل الطبى فى الإفساد ، وذكر إحصائيات تمت فى بلاد إسلامية تفيد أن الطب كان له دور مهم فى هذا المجال .

٢ ــ الأعمال النسائية :

فى التخريب وتعداد الوسائل التى يتوصل بها إلى ذلك .

٣ ــ نصائح للعاملين فى هذا الحقل :

١ ــ يجب إقناع المسلمين رغم كل ذلك أن الصليبيين ليسوا أعداء .
٢ ــ يجب نشر الكتاب المقدس وإهداؤه بلغة المسلمين .
٣ ــ إفساد المسلمين يجب أن يكون أخيرا بواسطة رسول من أنفسهم ، لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد وأعضائها » .

ثم توالت المؤتمرات على هذا الغرار ، مثل مؤتمر ادنبرة سنة ١٩١٠ الذى حضره ١٢٠٠ باحث بينهم ٥٠٢ من الإنجليز و ٥٠٥ من الأمريكان من بينهم « المستر روزفلت » رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، « والمستر برايـن » وهو خطيب أمريكا المشهور ، وقد رشح نفسه لرئاسة الولايات المتحدة مرارا ، وحضره من ألمانيا ٩٨ ، والباقى من جنسيات مختلفة ، وفيه رصدت الأموال الضخمة للعمل فى وسط المسلمين ورصدت التحركات الصليبية

والنجاحات التى توصلت إليها فى الإفساد ومايجب عمله فى المستقبل »[1]

٥ ـــ وثيقة ريتشارد ب ميتشل الأمريكى :

وهى المقدمة من أحد كبار العاملين فى الجاسوسية الأمريكية فى الشرق الأوسط إلى المخابرات الأمريكية ، والذى ينصح فيها بخطة جديدة لتصفية الحركات الإسلامية فى الأمة الإسلامية ، والتى نشرتها الصحف ومنها الدعوة ، ومجلة المجتمع الكويتية فى عددها ٤٢٨ المؤرخ ١٧ صفر ١٣٩٩هـ ، وننقلها هنا نصا أيضا ، ليرى الناس من مكائد الأعداء للدعوة الإسلامية ولأصحابها ماتشترك فيه جميع القوى العالمية بأجهزتها المختلفة ، ومخابراتها المتنوعة ، وأبحاثها المستفيضة .

سرى للغاية :

من ريتشارد ب ميتشل :

إلى رئيس هيئة الخدمة السرية بالمخابرات المركزية الأمريكية :

بناء على ما أشرت إليه من تجميع المعلومات لديكم من عملائنا ومن تقارير المخابرات الإسرائيلية والمصرية ، التى تفيد أن القوى الحقيقية التى يمكن أن تقف فى وجه اتفاقية السلام المزمع عقدها بين مصر وإسرائيل هى التجمعات الإسلامية ، وفى مقدمتها جماعة الإخوان المسلمين بصورها المختلفة فى الدول العربية ، وامتداداتها فى أوربا وفى أمريكا الشمالية .

وبناء على نصح مخابرات إسرائيل من ضرورة ضربة قوية لهذه الجماعات فى مصر قبل توقيع الاتفاق ضمانا لتوقيعه ثم لاستمراره ، وفى ضوء التنفيذ الجزئى لهذه النصيحة من قبل حكومة « السيد ممدوح سالم » باكتفائها بضرب جماعة التكفير والهجرة .

ونظرا لما لمسناه من أن وسائل القمع والإرهاب التى اتبعت فى عهد الرئيس ناصر قد أدت إلى تعاطف جماهير المسلمين وإقبال الشباب عليها مما أدى إلى نتائج عكسية .

فإننا نقترح الوسائل الآتية كحلول بديلة :

أولا ـــ الاكتفاء بالقمع الجزئى دون القمع الشامل ، والاقتصار فيه على

---

(١) انظر فى ذلك كتاب الغارة على العالم الإسلامى ص ٢٠ وما بعدها .

الشخصيات القيادية التى لاتصلح معها الوسائل الأخرى المبينة فيما بعد ، ونفضل التخلص من هذه الشخصيات بطرق تبدو طبيعية .

ولابأس من الإسراع بالتخلص من بعض الشخصيات الإسلامية الموجودة بالمملكة العربية السعودية ، نظراً لأن التخلص من أمثال هؤلاء يحقق المراد من القمع الجزئى ويعمل على تدهور الثقة بين الإخوان وبين الحكومة السعودية مما يحقق أهدافنا فى هذه الفترة .

ثانيا: بالنسبة للشخصيات القيادية الأخرى التى نرى التخلص منها أيضا فننصح باتباع مايلى :

أ ــ تعيين من يمكن إغراؤهم بالوظائف العليا ، حيث يتم شغلهم بالنشاطات الإسلامية الفارغة المضمونة وغيرها من الأعمال التى تستنفد جهودهم ، وذلك مع الإغداق عليهم أدبيا وماديا ، وتقديم تسهيلات كبيرة لذويهم ، وبذلك يتم استهلاكهم محليا وفصلهم عن قواعد الجماهير .

ب ــ العمل على جذب ذوى الميول التجارية والاقتصادية إلى المساهمة فى المشروعات المصرية الإسرائيلية المشتركة المزمع إقامتها فى مصر بعد الصلح .

جـ ــ العمل على إيجاد فرص عمل وعقود مجزية فى البلاد العربية البترولية ، الأمر الذى يؤدى إلى إبعادهم عن النشاط الإسلامى .

د ــ بالنسبة للعناصر الفعالة فى أوربا وأمريكا نقترح مايلى :

١ ــ تفريغ طاقاتهم فى بذل الجهود مع غير المسلمين ثم إفسادهم بواسطة مؤسساتنا .

٢ ــ استنفاد جهودهم فى طبع وإصدار الكتب الإسلامية ، مع إحباط نتائجها .

٣ ــ بث بذور الشك والشقاق بين قياداتهم لينشغلوا بها عن النشاط المثمر .

ثالثا : بالنسبة للشباب نركز على مايلى :

أ ــ محاولة تفريغ طاقاتهم المتقدة فى الطقوس التعبدية،التى تقوم عليها قيادات كهنوتية متجاوبة مع السياسات المرسومة .

ب ــ تعميق الخلافات المذهبية والفرعية ، وتضخيمها فى أذهانهم .

جـ ــ تشجيع الهجوم على السنة المحمدية والتشكيك فيها وفى المصادر الإسلامية

الأخرى .

د ـــ تفتيت التجمعات والجماعات الإسلامية المختلفة ، وبث التنازعات داخلها وفيما بينها .

هـ ـــ مواجهة إقبال الشباب من الجنسين على الالتزام بالتعاليم الإسلامية ، خاصة التزام الفتيات بالزى الإسلامى عن طريق النشاط الإعلامى والثقافى المتجاوب .

و ـــ استمرار المؤسسات التعليمة فى مختلف مراحلها فى حصار الجماعات الإسلامية ، والتضييق عليها والتقليل من نشاطها . .

هذا مانراه من مقترحات حلا لمشكلة التجمعات الإسلامية فى هذه الفترة الدقيقة ، وفى حالة اقتناعكم بها نرجو توجيه النصح للجهات المعنية للمبادرة بتنفيذها مع استعدادنا هنا للقيام بالدور اللازم فى التنفيذ » .

توقيع

(ريتشارد ب ميشيل)

٦ ـــ الوثيقة النصرانية ومخطط تدمير لبنان :

خلال الحرب اللبنانية سنة ١٩٧٥ ، وخلال المداهمات للأديرة فى لبنان والتى كانت تتخذ كقلاع حربية ، والأديرة فى لبنان فى الأصل صممت على شكل قلاع على قمم الجبال والهضاب ، فلا غرابة إذن من اقتحامها بعد أن استعملت كغرف عمليات وأماكن تحصين وانطلاق حربى للهجوم على المسلمين أثناء المداهمات الفلسطينية لدير فى المتن الأعلى ، وأثناء التفتيش عثر الفلسطينيون على وثيقة مكتوبة باللغة الفرنسية ويعود تاريخها إلى سنة ١٩٤٣ ، وفى ٢٠ آب ١٩٧٦ أذاع كمال جنبلاط هذه الوثيقة ، ونشرتها الصحف اللبنانية فى اليوم التالى ، وفيما يلى ترجمتها :

« يا أبناء يسوع المسيح ، يامن صبرتم على الذل والهوان عبر القرون ، دفاعا عن عقيدتكم : أيها الشرفاء الأطهار ، لاتنسوا هذه الوصايا العشر :

١ ـــ إن هذا الوطن لم يخلق إلّا لكم حتى تجمعوا شملكم فيه ، وتباشروا حريتكم بعد الحروب التاريخية (لعلها الحروب الطائفية لما بين ١٨٤١ ـــ ١٨٦٠) ، فاعلموا جيدا أن

كلمة لبنان معناها مسيحى ، أما العرب الذين جاءوا من الصحراء فيجب أن يعودوا إليها (كلمة عربى تعنى مسلم فى النص) .

٢ ــ إننا قد رتبنا لكم أهم الأشياء التى تضمن لكم معيشة حسنة على هذه المنطقة ، مثل تمليك الأراضى ، والتوكيلات الأجنبية (وقد ساعد الفاتيكان والدول الأوربية الأخرى الموارنة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مالياً من أجل الحصول على الوكالات الدولية والوضع السياسى وشئون التقدم) ، وقد وضعنا ذلك كله فى أيديكم ، ويبقى عليكم أن تحافظوا على هذه المكاسب وتزويدها مع الأيام .

٣ ــ جاهدوا للسيطرة على المصايف وأمور السياحة ، وامتلاك ساحل البحر ، واخرجوا من قراكم كلما أصبحتم غالبية أو أغلبية ، ولا تنسوا تجهيز ميناء احتياطى فى مدينة غير بيروت لايكون فيها مسلمون ، وذلك عندما تسنح الفرصة . (وهذا المرفأ قد جهز فعلا ، ومنذ الأحداث الأخيرة أضيف إليه مطار حامات قرب البترول) .

٤ ــ عليكم بأسباب القوة من لياقة بدنية وتنظيمات للشباب ، واهتموا بالجيش ، وعليكم بكتمان أموركم والوثوق من سلامة صفوفكم ، لأن المعركة مع الأعداء مستمرة وطويلة ، وهم يطوقونكم من كل جانب .

٥ ــ احرصوا على الزعامة الأدبية ، كنشّر الكتب ، والسيطرة على النقابات والاتحادات ، ولا تعترفوا أن تراث لغتكم وتاريخكم ملك للمسلمين وحدهم ، وحاربوا بلا هوادة الأفكار والأشخاص الذين يعاكسون أفكاركم .

٦ ــ إن الاختلافات المذهبية بين المسيحيين يجب ألا تخرج عن النظرية والسطحية ، لأن حياتكم مرهونة باتحادكم أمام العدو الكافر ، ولكنكم أبناء يسوع الذى علمنا المحبة .

٧ ــ ادرسوا دائما مخططات الآخرين ، وتداخلوا معهم لتعرفوا ماعندهم ، ولامانع للبعض من التظاهر بتأييدهم عند الضرورة ، ولكن كل واحد يبقى مرتبطا برؤسائه وكنيسته ، ولايعصى أوامر الآباء المخلصين لكم .

٨ ــ ارفعوا رؤوسكم وشعائركم فى مكان مرتفع على الطرقات العامة وعلى رؤوس الجبال والتلال ، وفى المدارس ، ومراكز البعثات ، واعلموا أن كل القوى الجبارة فى العالم

الحر تساعدكم ، وتقف إلى جانبكم فى أسرع وقت ، ولكن عليكم أن تتصرفوا كأنكم لاتعرفون ذلك .

٩ ـــ اجتهدوا فى التقرب من ملوك العرب ورؤسائهم بالخدمات الطبية والخدمات الشخصية ، وهذا شىء سهل جدا ، ولكنه يفتح لكم مجالات واسعة للعمل ويدر عليكم أموالا طائلة ، ونفوذا كبيرا حتى فى البلاد المستعصية عليكم .

١٠ ـــ إن معركة الجنسية اللبنانية شديدة الأهمية ، ودققوا كثيراً فى ذلك ، واهتموا بإخوانكم المغتربين والذين نزلوا عليكم من البلدان الأخرى ، لتحتفظوا بحقوق الأكثرية المقررة لكم ، وإلّا ضاعت كل الجهود . »[١] .

قال جنبلاط :

« هذه الوثيقة قد كتبت فى اجتماع الرهبان والمدنيين » أى أن هذه الوثيقة كانت دستور العمل الفعلى الذى تسير عليه الصليبية فى لبنان ، وعلى أساسه تقوم التحركات والسياسات .

وبملاحظة ماكان عليه لبنان ، وما كان يدار به من سياسات وأفعال ، يجد المراقب أن هؤلاء الناس كانوا يسيرون على هذه الوثيقة حرفيا .

ولا أدرى لم كل هذه العداوات ، وكل هذه الأحقاد ، والمسلمون فى كل عصر ماكانوا إلّا أصحاب سماحة وحب ، وكانوا نعم الجار لكل صاحب دين ، أو عقيدة تخالف عقيدتهم ، وهل يأتى اليوم الذى يصحو فيه هؤلاء الجاحدين ويملأوا قلوبهم بالحب بدل الكراهية ، أم أننا ننادى فى واد وننفخ فى رماد ، إن الأديان المسيحية كادت أن تفنى بعضها فى بعض المناطق على طول التاريخ ، ولم يحصل ذلك بالنسبة للإسلام مع المسيحية ، وإن كان الإسلام قد لاقى من المسيحية ماتقشعر منه الأبدان ، وما الأندلس ومحاكم التفتيش بخافية على أحد ، وما فعله الصليبيون فى القدس بخاف على أحد ، حيث قتلوا من المسلمين العزل فى الأندلس بالملايين ، وفى القدس قتل فى المسجد الأقصى وحده (٧٠) ألفا من المسلمين العزل ، وذلك بعد التسليم والأمان والصلح ، ولا مراعاة لعهد أو ذمة أو خلق

---

(١) انظر ـــ هذه وصيتى كمال جنبلاط ص ٨٥ وقد أذيعت فى الصحف الصادرة فى شهر ١٢ من سنة ١٩٧٥ وأنظر الصراع العربى الإسرائيلى ، الجزء الأول مؤامرات الدويلات الطائفية ، محمد عبد الغنى النواوى ص ١٨٧ .

أو رحمة ولكن يظهر أن روح الأحقاد والأضغان والعفن قد حل محل شرائع الحب والهداية والإيمان والنور .

٧ ــ وثائق تأييد الاحتلال الفرنسى للشام :

منذ اليوم الأول الذى وطأت فيه أقدام الغزاة بيروت ودمشق ، أعلن نصارى بلاد الشام عن تأييدهم للانتداب الفرنسى ، ووقوفهم إلى جانب المحتلين الصليبيين ، ولم يكتموا اغتباطهم بالانتصار الذى حققه القائد الفرنسى (غورو) فى معركة ميسلون .

وكانت فرنسا لاتتخذ قرارا داخليا فى سوريا ولبنان إلا بعد دراسته مع المواطنين النصارى ، وقد كانت العرائض المؤيدة للاحتلال من الصليبيين تنهال على القيادة الفرنسية ، وقد حفظت وزارة الخارجية الفرنسية هذه العرائض فى وثائقها والتى سنذكر بعضا منها :

أ ــ من أفراد الطائفة الكدانية :

« نحن أفراد الطائفة الكدانية » بحلب الموقعين بذيله ، قد انتدبنا برضانا وحسن اختيارنا « حضرة الخورى ميخائيل شعيا ، والسادة فرانسوا شوحا ، وجميل رسام ، وسمعان موصلى ، ليمثلونا أمام اللجنة الأمريكية وليبينوا لها مطالبنا ، وهى المحافظة على وحدة سوريا بحدودها الطبيعية واستقلالها ، وانتداب دولة فرنسا دون سواها للوصاية عليها ، وإشعارا بذلك سلمنا هذا صك الاعتماد .

حلب تحريرا ٦ ــ ٧ ــ ١٩١٩ .

ب ــ من كهنة ووجوه قصبة إهدن :

« نتشرف برفع عريضتنا هذه ، ولما كان القصد من حرب دولتى فرنسا وإنجلترا فى الشرق تحرير الشعوب المظلومة وتأسيس حكومات وإرادات تنشأ فيها حسب مايود الأهلون مخيرين ، وبما أننا من تلك الشعوب نسترحم من عدالتكم إجابة مطالبنا الآتية :

أولا ــ توسيع نطاق جبل لبنان توسيعا موافقا لحدوده الطبيعية .

ثانيا ــ توسيع امتيازاته بما يناسب حالة الأهلين الحاضرة وطبائعهم .

ثالثا ــ حماية وإدارة الجمهورية الفرنسية .

مكررين الاسترحام بقبول التماسنا ، داعين لمعاليكم بالنصر ٦ كانون الأول ١٩١٨ .

التواقيع وعددها عشرون

من الكهنة والوجوه(١)

جـ ـــ من قضاء راشيا :

لمعالى حضرة القوميسير الأعلى فى ولاية بيروت المسيو (جورج بيكوا) الأفخم ، نحن الموقعين إمضاءاتنا بذيله من طائفة الروم الكاثوليك بقضاء راشيا . من ضمن لبنان الكبير ، بمقتضى الخريطة التى وضعتها دولة أوربا سنة ١٨٦٠ ، وقضت سياسيا أوربا بفصل قسم كبير وحرم قضاؤنا تلك المساعدة التى وضعتها يد الدول العظمى ، واليوم هذه الدول وضعت على مسئوليتها إعادة الحقوق المهضومة ، فإليها نرفع صوتنا مستغيثين باسم العدل إعادتنا إلى النقطة التى حذفتنا منها تركيا من الخريطة القديمة واعتبار قضائنا من ضمن لبنان الكبير تحت حماية فرنسا ، راجين رفع عريضتنا هذه للمؤتمر العالى لينظر بحالتنا ويتذكر أننا بيده وُضِعْنَا ، مع لبنان الكبير ، وهو اليوم مسئول تجاه الله والعالم المتمدن لإعادة حقوقنا المهضومة .

تواقيع : مختار الكاثوليك وإخوانه

وكيل مترو بوليتان الروم الكاثوليك

بقضاء راشيا

د ـــ من مختلف الطوائف المسيحية فى قضاء راشيا :

نحن الموقعين أختامنا وإمضاءاتنا فى ذيله سكان قضاء راشيا الواقع فى سفح جبل حرمون الغربى ، لكون بلادنا هى من حدود لبنان القديمة الطبيعية كما تثبت ذلك الأدلة التاريخية والجغرافية والجيولوجية ، وقد فصلت بلادنا عن لبنان السياسة التركية منذ نصف قرن ، فنريد أن ننضم إلى لبنان الكبير المنوى تأسيسه ، على أن يكون حائزا على امتيازاته واستقلاله ، ويكون مربوطا بسورية ربطا اقتصاديا تكفله دولة الوصاية على لبنان وسورية ، وعلى هذا نرفع مطالبنا بواسطتكم إلى مؤتمر السلام العظيم ، وإننا نتمنى أن تكون الجمهورية الفرنسية الفخمة الدولة الوحيدة المساعدة لنا وبهذا نكون قد نلنا مراحم عظيم

---

(١) المرجع السابق ص ٣٦٠ .

جودكم .

التوقيع والأختام ، أكثر من ٤٠٠ من الطوائف المسيحية[1] .

هذا وقد عاب رجل من المسيحيين هذا الوضع المخزى من بنى جلدته ، وهو : رشيد سليم الخورى فقال :

وكيف ألوم فى وطنى الزمانا   ومنا ذلة لا من سوانا
ألسنا قد أهنّاه فهانا   وقلنا كن فرنسيا فكانا

إذن فليهننا نيل المراد

رضينا « للتعصب » أن نهونا   فأغمضنا على الضيم العيونا
نقول المسلمون المسلمونا   فنرميهم ونحن الخائنونا

نبيع بدرهم مجد البلاد

بربك قل : متى لبنان ثارا   ليدرك من علوج الغرب ثارا ؟
متى نفرت إلى السيف النصارى   لتغسل بالدم المسفوك عارا ؟

وتحرز مرة شرف الجهاد[2]

٨ ــ وثيقة الأركان الإسرائيلية لتفريق العرب وإنشاء دويلات جديدة :

حصل الكاتب الهندى « ر .ك . كارانجيا » صاحب مجلة « بليتز » الهندية على وثيقة إسرائيلية ، أودعها كتابه الذى أسماه « خنجر إسرائيل » ننشر منها ما يلى :

« .... لتقويض الوحدة العربية ، وبث الخلافات الدينية بين العرب ، يجب اتخاذ الإجراءات الآتية منذ اللحظة الأولى من الحرب ، لإنشاء دولة جيدة فى أراضى الأقطار العربية :

١ ــ دولة درزية (منطقة الصحراء وجبل تدمر) .

---

(١) تطور الحركة الوطنية فى سورية ص ٣٩ ، ورؤية الصراع العربى الإسرائيلى الجزء الأول مؤامرة الدويلات الطائفية ص ١٥٩ ــ ١٦١ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧٩ .

٢ ــ دولة شيعية ، تشمل قسما من لبنان ــ اريتز آشر ــ أى منطقة جبل عامل ونواحيها .

٣ ــ دولة مارونية تشمل جبل لبنان حتى الحدود الشمالية الحالية للبنان .

٤ ــ دولة علوية ــ أى نصيرية ــ وتشمل اللاذقية حتى الحدود التركية .

٥ ــ دولة أو منطقة ذات استقلال ذاتى قبطى .

وستوزع الأراضى العربية بما فى ذلك المنطقة الصحراوية بين الدول الجديدة .

تبقى المناطق العربية التالية :

دمشق ، جنوب العراق ، مصر ، وسط العربية السعودية ، وجنوبها ، ومن المرغوب فيه إنشاء ممرات غير عربية تشق طريقها عبر هذه المناطق العربية » .

وجاء فى الوثيقة أيضا :

« ويجب علينا أن نظهر الود للدروز والموارنة ونحرضهم على إنشاء دولة مستقلة . إن احتلال الجليل حتى نهر الليطانى سيسهل الدفاع عن الحولة ، وسيعزل كذلك لبنان عن سورية » (١)

ــ الوثيقة المارونية التى سربتها السفارة السوفياتية فى بيروت :

سربت السفارة السوفياتية فى بيروت إلى الصحف اللبنانية تقريرا سريا جاء فيه :

إن سليمان فرنجية ، وكميل شمعون ، وبيار الجميل وحلفاءهم اتفقوا على تقسيم لبنان إلى دويلات ضمن مخطط شامل ، يرمى إلى إنشاء دويلات متعددة فى العالم العربى ، وبالتحديد فى الدول المواجهة لإسرائيل تشكل بمجملها حزاما أمنيا دائما للدولة الإسرائيلية من جهة ، وتسقط من جهة ثانية الشعار الذى رفعته المقاومة الفلسطينية بإقامة دولة علمانية ديمقراطية فوق تراب فلسطين يتعايش فيها الفلسطينيون والإسرائيليون .

والتقسيم المتفق عليه يشتمل على الآتى :

١ ــ دولة مارونية فى جبل لبنان ، وحدودها هى حدود دولة لبنان الصغير ، قبل

---

(١) خنجر إسرائيل . كارانجيا . ص ٥٨ ــ ٦٩ ــ ٧٢ والمرجع السابق ص ٣١٥ .

ضم البقاع والشمال والساحل إليه .

٢ ــ دولة إسلامية فى الشوف وفى الساحل والجنوب ، تضم المسلمين فى لبنان والفلسطينيين .

٣ ــ ضم البقاع وقسم من شمال لبنان إلى سورية .

٤ ــ دولة درزية فى الجولان تكون فاصلا بين إسرائيل والدولة السورية »[١] .

ومن الجدير بالذكر أن البند الأول من هذه الوثيقة ــ الذى يخص الموارنة ــ يتفق تماما مع مضمون المذكرة التى قدمها موارنة لبنان إلى المبعوث الفرنسى « كوف دى مورفيل » .

٩ ــ الرسائل المتبادلة بين إدة وكيسنجر :

تعرف كل الأوساط العربية وغيرها « ريمون إدة » بعدم إخلاصه وعمالته .

قام فى الآونة الأخيرة وحسب مخطط مرسوم بالاتصالات للاتفاق على التقسيم الطائفى فى لبنان ، فزار الولايات المتحدة الأمريكية ومعظم العواصم الأوربية ، وختم جولته واتصالاته برسالة بعث بها إلى وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية وصفه فيها بأنه مهندس الحرب اللبنانية بتكليف من إدارة البيت الأبيض .

وقد جاء فى الرسالة مما يخص موضوعنا وهو تقسيم لبنان ما يلى :

« إن المخطط يقتضى إعطاء البقاع وطرابلس وعكار ــ أى المنطقة التى اقتطعت من سوريا عام ١٩٢٠ وضمت إلى لبنان ــ وتكون هذه الأراضى بدلا عن الجولان التى لن تتنازل عنها إسرائيل . وما تبقى من لبنان يقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول: شمال طريق بيروت شتورة للمسيحيين .

والثانى : ويقع جنوب الطريق المذكور حتى نهر الليطانى يعطى للبنانيين المسلمين وللفلسطينيين .

والثالث : ويقع بين الليطانى والحدود اللبنانية الإسرائيلية تحتله إسرائيل من أجل

---

(١) نشرت هذه الوثيقة الصحف اللبنانية فى نهاية الشهر التاسع من عام ١٩٧٦ انظر القبس فى يوم ٢٨ / ٩ / ١٩٧٦ .

تأمين المياة اللازمة لها » .

وقد رد « كيسنجر » برسالة بعث بها إلى « إدة » جاء فيها :

« إن الزلازل لا تحدث إلا فى الأرض المشقوقة ، ولا أكتمك إن لبنان هو بلد مثالى لتحقيق المؤامرات ، ليس ضده فقط ، وإنما ضد العالم العربى ككل . ومن هنا اكتشفت فى تناقضاته عناصر جديدة لنصب فخ كبير للعرب جميعا » .

وأضاف قائلا :

« إن التناقضات اللبنانية هى التى كانت تؤمن لنا الخطة وسلامتها ، مرة واحدة حدث خطأ عربى أوربى كاد يجمد حركة العملية ، وسارعت بإرسال (دين براون) وهو مهندس سياسى اختصاصى بعمليات الشرق الأوسط ، ولقد اكتشف بسرعة موضع الخلل ، ثم أعاد ضبط الجهاز الكبير الذى يحرك الأمور حسب الأهداف المطلوبة والخطة المرسومة .

وقد تسأل (مستر إدة) عن طبيعة هذه الخطة ! لا أكتمك أننى بدأت بشىء ثم انتهيت بشىء آخر ، كان همى الوحيد أن أبعد الاتحاد السوفيتى عن مجال التدخل والحسم والمشاركة فى حل أزمة الشرق الأوسط ، كما أسعى إلى تأجيل مؤتمر جنيف ، والاعتراف بمنظمة التحرير إلى ما بعد انتخابات الرئاسة ، أى مدة سنتين على الأقل ، ثم تشعبت مطامحى بعد ما رأيت أن خصوبة الأحداث الدامية فى لبنان قد أسقطت صيغة التعايش المطروحة ، وبعد أن بدا لى أن ما كان يحلم به (موشى شاريت) عندما كتب رسالته الشهيرة إلى (ابن غوريون) فى ١٨ / ٣ / ١٩٥٤ أصبح سهل المنال .

ورسالة شاريت مع ابن غوريون كانت عن وجوب تقسيم لبنان : حيث قال شاريت حرفيا : (لا جدوى ولا فائدة فى محاولة إثارة حركة من الخارج إذا لم يكن لهذه الحركة وجود فى الداخل ، ومن الممكن تعزيز روح حية إذا كانت تنبض من تلقاء نفسها ، وليس من الممكن بعث الروح فى جسد لا تبدو عليه دلائل الحياة) .

هذا ما قاله شاريت حرفيا عن لبنان ، لذلك لا أريد أن تجعلنى مسئولا عن خطة كانت إسرائيل تمهد لها منذ عام ١٩٥٤ .

صحيح أننى أفكر بخلق دويلات شبيهة بإسرائيل بعد ما فشلت فى إقناع الدول

العربية بفكرة الصلح الانفتاحى .

وفى قبول هذه الدولة الجديدة جزءًا من المنطقة ، ولكن الصحيح أيضا أن الأحداث الد' التى افتعلناها أمنت لنا أرضية مثالية لتقسيم النفوس الموحدة وتدمير صيغة التعايش ، وإحداث خلل أساسى فى النظام الديمقراطى الوحيد فى المنطقة » (١) .

مغالبة الهموم :

إن قصص الكفاح التى يخوضها المجتمع المسلم اليوم ، والتى يتحمل أبطالها وروادها ضغوط العالمية الصليبية والصهيونية والشيوعية ، ثم لم تضعف ولم تتقاعس لهى جديرة بالإعجاب والاحترام ، وأن تلك العقيدة العظيمة القوية السامية التى تنفض هذه الأحقاد عن كاهلها وهذه المؤامرات عن رجالها وتظل متقدة فى قلوبهم لتدعو إلى الإبهار وتصيب النفوس بالدهشة .

وإن عالم الصغار والتدنى اليوم لفى حاجة إلى هذه الدروس من هؤلاء الرجال الذين يصمدون رغم كل التحالفات والدراسات الخبيثة والحاقدة التى تحاك ضدهم وتنسج حولهم .

وحقب التخلف الحضارى والعلمى والقيمى وعصور الامتهان الجسدى والنفسى ، لتتطلع فى هذا العصر إلى هذا النوع الأصيل من الرجال ، أصحاب الإيمان ، والقوة ، والعزائم ، والعقول ، حتى تنهض من كبوتها وتتخلص من عجزها وصغارها .

إن فقراء الرجولة والعلم والإيمان قد سدوا المنافذ المطلة على الناس ، وملأوا الأجواء بالهموم والقهر والحزن ، وصبغوها بالنفاق والعجز والوهن ، حتى يئست قلوب الكثيرين ، واحتارت نفوس العاملين ، ولم يجدوا أمامهم زاداً إلا هذه المخططات التى تقدم إليهم فى كل وقت وحين لتغالبهم على البقية الباقية من فطرة سليمة وعقيدة مكينة ، ولكن هيهات فإن غدا لناظره قريب .

---

(١) انظر الوطن الكويتية الصادرة بتاريخ ١٩ / ٨ / ١٩٧٧ . والسياسة الكويتية الصادرة فى ١٢ / ٦ / ١٩٧٦ بالنسبة لرسالة إدة ، وقد نشرت رسالة كيسنجر أكثر من صحيفة عربية ومنها الوطن الكويتية المشار إليها .

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

الباب الأول

النظريات الإسلامية مقارنة بالنظريات الغربية

الموضوع الصفحة

الباب الثانى

عطاء المسلمين للبشرية

الباب الثالث

أعاصير وشبهات وردود وبراهين

الموضوع | الصفحة

الباب الرابع

سياحة فى العقل العالمى

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٨٥٠ / ٨٨

الترقيم الدولى ٩ ـ ٠٤ ـ ١٤٢٢ ـ ٩٧٧

مطابع الوفاء ـ المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠

تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة ش.م.م

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت ٣٤٢٧٢١ / ٣٥٦١٢٢٠ / ٣٥٦٢٣٠

المكتبة : أمام كلية الطب ت ٣٤٧٤٢٣ ص ب ٢٣٠ تلكس DWFA UN 24004

تطلب جميع منشوراتنا من :



دار النشر للجامعات المصرية - مكتبة الوفاء

٤١ ش شريف ت : ٣٩٢١٩٩٧ / ٣٩٣٤٦٠٦